القسم الثانى

العِراق

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

البويهيون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

البويهيون [١] أسرة فارسية تُنْسب إلى بُويه ، وهو فارسي ديلمي ، ويقال إنه كان صَيَّاداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يَحْتطِبون . ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون – مَلَقاً لهم فيما يبدو – إلى الملك الساسانى بهرام جور . ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ما كان بن كاكى ، حتى إذا انتصر عليه مَرْداويج الزِّيارى صاحب جُرْجان تحولوا إليه ، وأيدوه فى حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطَبَرِستان ، فولَّى عليا الكَرَج فى الجنوب الشرقى من هَمَذان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرَّجان واتخذ شيراز مقرا له . وقُتل مرداويج فى سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصْفهان والرَّىّ اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شئونهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوهما أحمد على كَرْمان ، وظل يتقدم تدريجا نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط ؛ وفى هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها فى جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكفى منقذاً ومخلِّصا ، ومنحه إمرة الأمراء ولقَّبه معز الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز عماد الدّولة والحسن صاحب بلاد

(١) انظر فى الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبى شجاع والمنتظم لابن الجوزى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وأحسن التقاسيم للمقدسى فى مواضع متفرقة وابن خلكان فى تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثانى من كتاب اليتيمة للثعالبى وابن طباطبا (الفخرى فى الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ومادة بنى بويه فى دائرة المعارف الإسلامية .

الجيل ركن الدولة ، وضُربت ألقابهم على السكَّة ، وذُكرت أسماؤهم وألقابهم مع الخليفة فى خطبة الجمعة . ومن حينئذ بالغ البويهيون فى الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزرائهم . . ولم يكد الشهر التالى لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خُلع المستكفى وسُملت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين فى عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم فى خطبة الجمعة وعلى السَّكَّة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع فى أيدى البويهيين يسبغون عليهم الرواتب بالمقدار الذى يريدون .

وظل معـز الدولة يلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكَرْمان إلى أن توفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بَخْتيار ، وكان شديد البأس شجاعاً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان فى سنة ٣٦٤ على صـداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . فآلت ولايته إلى أخيه ركن الدولة ، فمنحها ابنه عضد الدولة . وتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الرىَّ وأصفهان ، ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينور ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبكا فى حروب ، قُتل فيها بختيار فى شوال سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق فى حوزة عضد الدولة منذ هذا التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بنى بويه . إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خُطب له – فيما يقال – على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقِّب بشاهنشاه (ملك الملوك) فى الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقَّبون بهذا اللقب ، وكانت فيه قسوة شديدة . ومما يصور ذلك رميه بابن بقية الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلَّمه إليه بختيار لأمور ساءته ، فقتلته بأرجلها شر قتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرما وأعاد الأمن إلى نصابه فى صحراء كَرْمان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الجباية واحتفر لهم الآبار فى سُبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصينا . وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقرض من قصرت يداه من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعُنى بالبساتين فامتلأت خرابات بغداد بالزهر والخضرة . وجلب

إلى بغداد الغروس فى سائر البلاد ، وعُنى بجداولها وجسورها ، وأنشأ سوقاً للبزّازين . وبنى مارستانا كبيراً ببغداد ، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف ، وكان عادلا سَيوسا يحسن اختيار ولاته وعماله ، وكانت جِراياته متصلة على الفقراء والمساكين . غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل ، فقد توفى سنة ٣٧٢ ، وكأنهما لم تنعما بحكمه إلا خمس سنوات متصلة . وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، وهو تقسيم أثبتت الأيام دائما أنه نذير بضياع الدولة واختلال شئونها . وتولى شئون بغداد والعراق صَمْصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سَعْدان صاحب أبى حيان ، ولم ينجح أمر صمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٦ وقهره وحبسه وأخذ بغداد منه ، ويتوفىَّ شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضياء الملة الذى ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣ وكان – كما يقول المؤرخون – ظالما غَشوما سفاكا للدماء ، وقد قبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١ وخلعه من الخلافة ، وولاها القادر بالله ، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة ، ويقال إنه جمع من المال ما لم يجمعه أحد . وتوزعت الدولة بعده بين أبنائه الأربعة : مشرّف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبى شجاع سلطان الدولة وهو الذى ولى بغداد بعد أبيه بعهد منه ، وظل يلى شئون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كلمته ، فخُطب له ببغدادَ فى المحرّم وخوطب بشاهنشاه . ويدور العام ، فيتم الصلح بين الأخوين ، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة ، ويتوفى سلطان الدولة فى سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده فى سنة ٤١٦ وتصبح بغداد خالصة هى والعراق لأخيهما جلال الدولة ، ويستوزر أباسعيد بن ماكولا ، ويلقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك ، مما يصور مدى تغالى البويهيين فى الألقاب . ويطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم فى أيامه ويختل السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيَّارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالا قبيحة ، واختلّت الشئون المالية ، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعون بيته وآلاته فى الأسواق ، وخلت داره – كما يقول ابن الجوزى – من الحجّاب والفراشين والبوابين . وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز ، وكان شجاعا فاتكا مشغولا باللهو ، وفى عهده أخذ المدُّ السلجوقى يزداد حتى شمل أكثر إيران . مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم ، وبلغ من ضعفه أن جرَّده أحد قواده الأتراك ، ويسمى البساسيرى ، من سلطانه

كله ، وأحسَّ الخليفة العباسى القائم بأمر الله بخطره ، وعرف أنه يكاتب سِرًّا الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر ، وأنه يدبِّر أمراخطيرا . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذ يعظم شأنها فى خراسان بقيادة طُغْرُلْبَكْ ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل فى الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البويهية .

والسلاجقة [1] شعبة من الأتراك الغُزِّ الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سَلْجوق منذ سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشتاهم بالقرب من بخارى ومصيفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السنى وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محموداً الغزنوى دعاهم إلى الإقامة فى الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فتوجَّس منهم شرا ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحَبَسه فى قلعة ببلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفى محمود . وفكر السلاجقة فى الثأر فانقضّوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طُغْرُلْبَك نفسه ملكاً على خراسان فى صيف سنة ٤٣٠ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفى سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طَبَرستان وسِجِسْتان وهَراة وبُسْت وأخذ طُغْرُل يولِّى أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرَّىَّ حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كى يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا . فدخلها فى سنة ٤٤٧ وهرب منها البساسيرى ، وخلع عليه الخليفة خلعاً سنية وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان البساسيرى قد فرَّ إلى الشمال فتعقبه طُغْرُلْبَك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن يَنال خرج عليه فى همذان ، وعرف البساسيرى كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده فى يد أحد أمراء بنى عُقَيْل ، وهو قريش بن بدران ، واستوليا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة ، وكذلك صنعا بما استوليا عليه من

(١) انظر فى السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور فى تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى والدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسما بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى (مختصر البندارى) ووفيات الأعيان لابن خلكان فى تراجم سلاطينهم وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى (ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى) وسلاجقة إيران والعراق للدكتور عبدالنعيم حسنين (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة فى دائرة المعارف الإسلامية .

المدن . وأخرج البساسيرى الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطُغْرُل هو أول ملوك الدولة السَّلْجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفِّى بمدينة الرَّىِّ سنة ٤٥٥ فخلفه ابن أخيه ألْب أرْسلان بن جُغْرى بَكْ ، كان اسمه بالعربية محمداً ، ولُقِّبَ بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لُقب بالسلطان من بنى سَلْجوق ، وذُكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بنى سلجوق فى الرعية ، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ فى موقعة دمَّر فيها الجيش الرومى تدميراً . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومى فى تلك الموقعة يتألف من مائتى ألف رجل من يونان وأرمن وقوقاز وروس وغيرهم . وفَدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبيه جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُرَدَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم .

وكان مدبِّر مملكته وزيرَه نظام الملك ، وكان حصيفاً وافر العقل ، وسياسيا حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محبا للعلم ، وقد بعث فى دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها فى كثير من البلدان ، وعُنى خاصة بمدرسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نَيْسابور وغيرها وفى مقدمتهم أبو إسحق الشيرازى والغزالى وغيرهما من كبار العلماء . وخلف ألب أرْسلان حين توفى سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرَّق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشتمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتدّ من مدينة كاشْغر – وهى أقصى مدينة للترك – إلى بيت المقدس طولا – كما يقول ابن تغرى بردِى – ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلطن خرج عليه عمه « قاورد بك » صاحب كَرْمان ، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراؤك كاتبونى وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاها إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها فى موقد نار كان بين يدى ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعمائر ، فعمَّر الأسوار والقناطر وحفر الأنهار ، وأبطل المكوس فى جميع بلاده . وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذى عمَّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق فى أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى مملكته وليس معها خفير.

وتزوج الخليفة المقتدى بابنته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلكان : كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرته ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير. وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفى ببغداد فى شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن فى مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بَرْكِيَارُوق ، وكان أخوه السلطان سِنْجَر نائبه على خراسان ، ودخل فى حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ؛ وحاربه عمه تُتُش صاحب دمشق ، وقُتل فى بعض المعارك . ودوَّخ الإسماعيلية الباطنية فى إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان عالى الهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفى سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم . ويقول ابن خلكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يريد الإسماعيلية) والنظر فى أمور الرعية » . وتوفى سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ فى سن الحلُم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسِّيَر شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حَيْص بَيْص الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت فى أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفُقَّاعى أو الشَّرابى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها فى حاجته .

وتوفى سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير فى المهد ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طُغْرل ، وتوفى سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سنقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال باللذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ وقتل من الأمراء خلقاً كثراً ، وممن قتلهم الخليفتان لعهده المسترشد بالله والراشد . وفى هذا ما يدل على أن السلاجقة استهانوا بخلفاء بنى العباس ولم يَدعوا لهم حَوْلا ولا طَوْلا ، إذ استخلصوا منهم كل شىء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه يختم دولتهم فى العراق ، أو قل كأن قتله للخليفتين المسترشد والراشد كان إيذاناً بانتهاء الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده فى الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفى بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقى يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأميره الذى فى رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم فى وجوه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت فى الضعف سريعاً .

وكانت تُمنَحُ لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ، حتى يساعدوها بما تحتاج إليه من مال وجُنْد . وانتهز بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية فى أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية فى ديار بكر والجزيرة وبلدانها مَيَّافارِقين وآمِد وحصن كَيْفا وحَرَّان ومارْدين ، كما نذكر منهم بنى زنكى فى الموصل ولهم الفضل الأكبر فى القضاء على الصليبيين فإن « زنكى » الملقب بعماد الدين هو الذى افتتح سلسلة دَحْرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرُّهَا » من جوسلين الصليبى ، وبذلك سقطت أولى ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين يمحقهم محقاً فى الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سِنْجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعيا أن تهبط الدولة السلجوقية بعد صعود ويأفل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقى فى سنة ٥٥٢ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتفى وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى هَمذان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبى الموصل استقلالها ، ورُدّت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم

وللمقتفى[1] (٥٣٢ – ٥٥٥هـ) الفضل فى عودة صولجان الحكم إلى أيدى الخلفاء العباسيين . وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولى أو التتارى سنة ٦٥٦ وكان المتقى عالماً أديباً دمث الأخلاق .

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) وكان عادلا محبوباً فى الرعية أزال المظالم والمكوس . وولى الخلافة بعده ابنه المستضىء (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب فى أيام خلافته . وفى أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه فى مصر والثغور الشامية ، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها ، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد . وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) وفى عهده سحق صلاح الدين الصليبيين فى الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون . واستطاع عبد الجبار البغدادى فى أيامه أن يحوِّل جماعة الفتاك الذين كانوا يُرهبون الناس فى بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة ، واتخذ لهم سراويل مخصوصة ، وبذلك أحالهم إلى جماعة حربية ، واستنفر فئات منهم كثيرة لجهاد الصليبيين فى الشام مع الأيوبيين ، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية ، وانضم إليها ولبس سراويلها ، وأرسل بها إلى ولاته كى يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين . وممن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناؤه ، فلبسوها ، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند .

ويتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر ، ولا يدور العام حتى يتوفى ، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة . ونشر السنن وكفَّ الفتن . وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاظم فى عهده ويكتسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة . وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك ، استوزر مؤيد الدين بن العلقمى ، وكان رافضياً حريصاً على زوال الدولة ، فكاتب هولاكو وأرسل إليه أخاه وغلامه ، وسهَّل عليه فتح العراق وأخْذَ بغداد .

وسارع هولاكو ، وهاجم بغداد ، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد ،

---

(١) انظر فى المقتفى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن تغرى بردى وابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير والعبر فى خبر من غبر للذهبى (طبع الكويت) وخلاصة الذهب المسبوك للإربلى (طبع بغداد) ومآثر الإنافة فى معالم الخلافة للقلقشندى وتاريخ الخلفاء للسيوطى (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمدانى ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور يحيى محمد فهد (طبع بغداد) .

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التتار بغداد وظلوا يُعْملون السيف فى أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائة ألف ، وخربت بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب ، وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، ورثاها الشعراء مراثى كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقى الدين التنوخى ، وفيها يقول :

يا زائرين إلى الزَّوْراء لا تَفِدوا فما بذاك الحِمى والدارِ ديَّارُ

وذاق ابن العلقمى الذل والهوان من التتار ، كما ذاقها أيضاً مَنْ مالأهما من حكام الموصل والجزيرة ، وفى مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكى أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفى سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين ومنه عشر سنوات ، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكا له ، ولم يلبث نور الدين أن توفى ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، ومازال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك الموصل فى سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التتار نحو أَذْرَبيجان حتى أخذ يمدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلا ، فما كان من هولاكو إلا أن حزَّ رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلِعاً فزعاً يحمل الهدايا ، وتوفى بدر الدين فى سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاكو أن اجتاح الموصل بجيوشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتهما المتكررة ، وأصبحت العراق كلها فى حوزة التتار .

٢

الدول : المغولية والتركمانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التتار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين ، واستطاع أحد أبنائها وهو جنْكِزْ خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصِّين وبكين ، حتى إذا تم له ذلك وجَّه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى ومملكة خوارزم وزحفت سيولها إلى الرَّىّ وهمذان ، مستولية على شمالى فارس فيما بين سنتى ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفى فى السنة الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدى (٦٢٥ - ٦٣٩) الذى استطاع أن يُخْضع روسيا وبولندة لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذى أرسل بأخيه هُولاكو إلى إيران ، فقضى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكتف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرَّب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الإيلخانية ، بينما انتسب المد المغولى الثانى فى إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية .

الدولة المغولية الإيلخانية[1]

تنتسب هذه الدولة إلى هُولاكو (إيلخان) الذى أطبقت جموعه على بغداد والعراق فى سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا فى سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين فى الجنوب ، فلقيهم الجيش المصرى بقيادة قُطز والظاهر بيبرس فى عَيْن جالوت بالقرب من نابلس ، فمزق جموعهم تمزيقا ، وقُتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام فى الشمال . وبذلك رُدَّ سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هُولاكو -- كما قدمنا - ملكاً مستقلا فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلا سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثنيا كأجداده وقومه . غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجته النصرانية : « دُقوز خاتون » ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أَبْغَا » .

ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر فى بكين ووجه أخاه مَنْكوتَمُر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص « بقيادة قلاوون وهُزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أَبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همذان فمات بها غَماً وكمدا . وخلفه مَنْكوتَمُر ، وكان نصرانيا ، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم . وملك بعدهما

(١) انظر فى هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة والجزء الثانى من دول الإسلام للذهبى (طبع حيدر آباد) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمدانى (الترجمة العربية) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون (ترجمة الشوارنى) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدوالدولير ص ٦٥ والعراق فى عهد المغول الإيلخانيين لجعفر خصباك (طبع بغداد) .

أخوهما بوكدار بن هولاكو سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد . وبنى بممالكه الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فرح بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه « أَرْغُون بن أَبْغا » حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه « كَيْخَتُو » فأفحش فى الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه بَيْدو بن طَرْغاى بن هولاكو وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره فى أواخر هذه السنة . وملك بعده غازان بن أرْغون بن أبْغا بن هولاكو ، وأسلم فى سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً ، واحتفلَ بإسلامه ونَثَر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه فى ممالك التتار ، وقد أختار المذهب السنّى .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاكو . ودخلت جيوشه الشام فى سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا تمضى إلى سنة ٧٠٢ حتى يكيل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمَّر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات فى ديارهم — حين بلغهم الخبر — شهرين . واغتم غازان غما عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان مَنْ قبله منذ هولاكو يحكمون باسم الخان الكبير فى بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُفْرَضُ قبله حسب أهواء الجباة من حكام المغول فأمر بأن تُمْسَحَ الأراضى وأن يتَّخذ ذلك أساساً فى فرض الضرائب حتى لايُظْلَمَ أحد ، وأصلح النظام النقدى فى الدولة وجعله نقداً معدنيا صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينها بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلكيا عظيماً . وتوفى سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه « خُدابندا » والعامة تسمية « خَرْبَنْدا » وكان سنيا ثم أصبح شيعياً غالياً وأظهر الرفض فى بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفى سنة ٧١٦ .

وخلفه بو سعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفى وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنَّف فى ذلك ، وكان حسن السيرة ، أبطل عدة مكوس فى مملكته وأراق الخمور فى بلاده ومنع الناس من شربها وهدَم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفى سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاكو ، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدى حكّام

مختلفين ، وأصبحوا شبيهين بملوك الطوائف من الفرس . وفى مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثمّ هم (أى التتار فى إيران والعراق) بعده فى دهياء مظلمة وعمياء مقتمة ، لاينْقضى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولافسادهم إلى صلاح ، وفى كل ناحية هاتف ، يُدْعَى باسمه ، وخائف أخذ جانبا إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولاتتحقق دعوته حتى يُدْعَى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفى سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقْبغا ، كان جده رفيقاً لهولاكو . وتوفى سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سِبْط أرغـــون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفى سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين ، وكان قد ولاه مكانه فى أواخر أيامه . وكانت العراق فى عهده مطمئنة معمورة . وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين . وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف فى قتل أمرائه وبالغ فى ظلم الرعية وانهمك فى الفجور والفساد . فكاتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد . فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقها فأعانه على استردادها فى السنة التالية . وسنرى فى حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

الدولتان : المغولية التيمورية [1] والتركمانية

قاد الموجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود فى «كش» من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جنِكزّ خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه واليا لكش وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور فى يده لا فى كش وحدها ، بل فى كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً فى قبضته ، ثم أخذ يُعدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة٧٨٢ ومضى فى سنة ٧٨٤ يستولى على مازنْدران وسِجِسْتان وجُرّجان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذْرَبيجان سنة

---

(١) انظر فى تيمور وحكام بغداد بعده احمد بن أويس والتركمان ابن عربشاه فى كتابه «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» وابن تغرى بردى فى الجزءين الثانى عشر والثالث عشر وخاصة فى ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس ترجمة فى المنهل الصافى ٢٣٢/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية فى تيمور وأوزون حسن التركمانى ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر .

٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان فى شمالى العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق فى الشام وخرَّب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام فى سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغلت فى روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند فى سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهى بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفا ، وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قَرَا يوسف عاد إلى نيابته على الرُّها فى الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر بَرقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربى من آسيا الصغرى ، فَرأى أن الظفر بمملكتيهما أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً ، فاستناب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً فى أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرا يوسف التركمانى صاحب تبريز والرُّها وديار بكر ، وعاد معه إلى بغداد . وصيَّف تيمور فى بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخرَّبها ومَحَا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف فى جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى ، وعمل تيمور – فيما يقال – من رءوس القتلى مناثر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديدا ووعيدا . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقعتْه جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلا ، ولم يلبث أن وقَّع مع أهل دمشق صلحا ، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموى ، وصارت أطلالا بالية ورسوماً داثرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها فى شعبان سنة ٨٠٣ وظل فى انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استناب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرا يوسف صاحب الرُّها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة فى يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف فى البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبنى من رءوسهم – على عادته كلما دخل

مدينة عنوة – مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحرّب بايزيد العثمانى ، وانضم إلى جيشه التركمان فى قَيْسارية وسيواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب مَنْ مع بايزيد من التتار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعدوه أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان فى الشمال الشرقى من أنقرة فى التاسع عشر من ذى الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التتار منضمين إلى تيمور كما وعدوه وكانوا معظم عسكره ، وتلاهم ولده عثمان الذى عاد بجنده إلى مدينة بروسة ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فشت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته فى شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له فى جامع بروسة .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قَشْتالة . وزَيَّن عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من بنّائى الفرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلما على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النَّقْشَبندية وقد استطاع فعلا أن يستعيد مملكة جِنْكِزْخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة فى سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفى فى شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر ، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها فى ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكَرج أو جورجيا ، وكان يخضع لسلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل فى حربه مع قرايوسف التركمانى صاحب تبريز سنة ٨١٠ هـ/١٤٠٧م فدخلت بلاده فى حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعربستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلا حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٧م وكان يرعى العلوم والآداب فى مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه أُلُغ بَك وكان عَالما فلكيا واهتم برعاية الأدبين الفارسى والتركى غير أنه قتل بعد سنتين بيد ابنه عبد اللطيف وينتاب الدولة التيمورية اضمحلال سريع ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بوسعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم فى يده ويقتل فى حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية فى سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيبانى زعيم الأوزبك فى سنة ٩٠٦ هـ /١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبى سعيد عن عرشه فى سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادتا بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركمانى صاحب تبريز ويخرّ فى ميدانها صريعا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد فى قبضة التركمانيين بزعامة قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثها عنه أبناؤه وأحفاده ، وفى أيامهم ودولتهم عمّها الخراب لفساد حكمهم حتى ليقول ابن تغرى بردى : لا أعلم فى طوائف التركمان أقبح طريقة ولا أسوأ سيرة من أولاد قرايوسف وينتزعها منهم فى سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧م أوزون حسن المار ذكره وكان تركمانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفى فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية وإيران والعراق ، ودخل فى حروب طويلة مع العثمانيين . وفى هذه الأثناء كانت أسرة صوفية فى أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صفى الدين ، وبلغ حفيده خوجا على من الشهرة بالتقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد العثمانى يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن . وزوّجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذى أتيح له أن ينشىء لأسرته الصفوية دولة وطيدة فى إيران .

الدولة الصفوية[1]

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آبائه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عمامةً سُمِّيت تاج حيدر الأحمر ، وهى عمامة ذات اثنتى عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعى إمامى اثنى عشرى . وما وافت سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك فى سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م فى حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلاً فى المعركة ،

(١) انظر فى الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايغ ثونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة القارمية فى العراق لنعمان الشعوب الإسلامية لبروكلمان . وإيران . ماضيها وحاضرها الأعظمى وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لدونالدولير .

وتوفى يعقوب بعده بنحو سنتين وتصارع أولاده واشتبكوا فى حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كى يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بثأر أبيه ، ويمد سلطانه تدريجاً على شيروان وأذربيجان ويأخذ فى تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تبريز فى سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢ م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثنى عشرية مذهب الدولة الرسمى. ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبى بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعِدَّ العدة لمنازلة مراد خان التركمانى صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه ألوند هزيمة ساحقة فى أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توافى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفرّ مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثمانى. ومضى فى سنة ٩١٦هـ/١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيبانى زعيم الأوزبك والتقيا قرب مَرْو ، ودارت الدوائر على شيبانى وجنده وسقط صريعاً فى الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لابد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعى الإمامى وبين دولة السلطان سليم العثمانى السنى ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ فى اضطهاد أهل السنة . مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعة . والتقى الجيشان الصفوى والعثمانى بالقرب من تبريز بوادى جالداران فى المحرم سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ومنى الشاه بهزيمة منكرة ، وفتحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطُر الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك فى حرب العثمانيين إلى أن توفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهماسب وهو فى العاشرة من عمره ، وطالت مدته فى الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين فى الشرق والعثمانيين فى الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهماسب سنة ٩٣٠ وتظل فى حوزته حتى سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهماسب ومضى فى اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثمانى يوجّه فى أواخر سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فتستولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها فى أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهى عهد الدولة الصفوية فى العراق .

الدولة العثمانية [١]

تم للسلطان سليمان العثمانى الاستيلاء على العراق وبغداد فى سنة ٩٤١ ورفرف العلم العثمانى على البصرة فى سنة ٩٤٦ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسِّم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفى حقب متفاوتة عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالى يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشئون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، فى مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و « الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدبِّر الشئون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامه أى ديوان الدفتر اليومى ، وكان به كثير من الكتَّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام .

وكان يوجد بجانب الوالى قاض كبير يتبع قاضى القضاة فى الأناضول ، وكان للقاضى نواب كثيرون فى كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضى على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالى قوة عسكرية أساسية تحمى المدن والقلاع ، وتُعَدَّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم فى حروبها بأوربا ، وهم لا يزالون علماناً وتربِّيهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمْنحون إقطاعيات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُرَدّ إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذُون الناس فى بغداد والعراق ويتعدَّون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاة جند يحصلون عليهم بطريق الأسْر أو الشراء .

ويمر حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث فى هذا العهد فتن الجند كما حدث فى عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والى بغداد بزعامة ضابط يسمى بكراً برتبة

---

(١) انظر فى الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ البصرة لنعمان الأعظمى وعشائر العراق لعباس العزاوى (طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصرى (طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان . والمماليك فى العراق لأحمد على الصوفى (طبع الموصل) والعراق : دراسة فى تطوره السياسى لفيليب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وإمارة العمادية للدملوجى (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ – ١٩١٨ الجزء الأول للدكتور عبد الكريم محمود غرايبة (طبع دمشق) .

سوباشي وقتلوا الوالي يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربته الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكراً ونكل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استعصت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالا ذاتيا عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الإيرانيين نحو خمسة عشر عاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م وفى هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز فى سنة ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ .

وينتهى الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ/ ١٧٠٤ م كما مرّ بنا ، ويبتدئ دور ثان سُمى دور المماليك ، وفيه تعرَّضت العراق لخطر إيرانى كبير ، أدَّى إلى أن يتسلَّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكها الذين أخذوهما بضرب من التربية يشبه صنيع الدولة فى إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرَّج فى مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد فى سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بحروبها فى أوربا مع الروس والبلقان ، فتركت لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكها إدارة بغداد والعراق .

وطبيعى أن تصبح المناصب العليا فيها وقفاً على المماليك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الوالى منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجه ابنته واتخذه «كتخدا» أو أميرا للأمراء ، حتى إذا توفى خلفه فى الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقا أن يسمى دور المماليك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا فى سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثرون من التآمر ، مما زاد الأمن فى بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد .

ولما ساءت الأمور وتفاقم سوؤها رأى الباب العالى فى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لابد من رَدِّ الأمور إلى نصابها فى العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المماليك قضاء نهائيا . وبذلك تدخل بغداد والعراق فى الدور الثالث من أدوار الحكم العثمانى الذى أظلَّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن ندخل الشطر الأكبر من هذا الدور فى حقب العصر الحديث فى العراق ، إذ هبَّ جماعة من المصلحين فى تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة .

وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد فى تركيا والولايات التابعة لها فى العراق وغير العراق . غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م لم يصدروا عن ذلك فى حكمهم . فظل الظلام والفساد مخيِّمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا فى السنة آنفة الذكر . وكان معروفاً بنزعته الإصلاحية وبما قام به من خدمات عظيمة فى ولايته على بلغاريا . ولم يكد يستلم مقاليد الولاية فى العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة فى إدارة الحكم . فألغى نظام الالتزام وردَّ الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب . كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدَّ بها خطا للبرق . وأصلح نظام الموازين والنقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقى للعصر الحديث فى العراق . وقد ظل العثمانيون فى العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أى عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

٣

المجتمع

كان المجتمع فى بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوهما حواشيهما من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل فى هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحَسْبة ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف . ويُسْلك أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث فى عهد عضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذى ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدبر لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش فى رخاء بل فى ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ فى حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التى كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التى تجبى على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التى كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهيون ثم مَنْ خَلَفهم من السلاجقة والمسئولين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى بِرُمَّتها . وهذه الإقطاعات العسكرية هى التى كانت شائعة ، وإحدى اثنتين إما أن تكون إقطاع تمليك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة . وإما إقطاع يُسْتَغَلُّ طالما كان صاحبه حيا ، وكأنه كان منحة تُعْطَى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويُلْزَمُون بإصلاح القنوات التى تَمُرُّ بأرضهم . وطبيعى أن كانت هناك ضِياعٌ سلطانية للخليفة وللأمير البويهى وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراض موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضى هو الذى يشرف على إدارة الأراضى الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضى السواد الموقوفة[1] ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادَر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى[2] وزير معز الدولة البويهى . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويُرْوَى أنه فى سنة ٣٥١ توفِّى رجل اسمه دَعْلج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمسّ أى مسٍّ ما خلَّفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التى يُخْزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التى كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُنْفَق على القصر ومماليكه وحجَّابه وخدمه وحرسه وكانوا يُعَدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيوش . وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفى أعراسهم ، كما حدث فى زواج الخليفة الطائع لابنة بَخْتيار ، وكان صداقها مائة[3] ألف

---

(١) أبو شجاع ص ٧١ .

(٢) مسكويه ٦ / ٢٥٨ .

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر ببيروت) ١ / ٢٦٧ .

دينار . واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويُرْوَى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بنتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً فى موكب كبير كانت تُدَقّ فيـــــه الطبول والبوقات وتنثر الأموال على الرعية[١] . وبالمثل حين زُفَّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيِّنَتْ بغـــداد ، وقد حَمل جهازها ١٦٢ بعيراً و ٢٧ بغلاً[٢] سارت فى شوارع بغداد بينما جماهير الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبتهجين . وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأوانى الذهب والفضة ، ويُرْوَى أنه حدث حريق فى أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخْرج بعد إطفائه من تلك الأوانى ما تزيد قيمته على مائتى ألف دينار ، وسبقه حريق فى سنة ٦٠١ قبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار[٣] .

وكانت نساء الخلفاء وجواريهم يبالغن فى زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضىء كانت تزين نعالها باللآلئ الكبار[٤] ، فما بالنا بما كانت تتخذه وراء ذلك من الحلى والجواهر . ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته فى شهر للزراكشة والصاغة والبزّازين (تجار الملابس) والجوهريين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم[٥] . ويُرْوَى عن هذا الخليفة أنه نفح كبير حرسه علاء الدين الطيبرسى ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهداه إليه[٦] . ويقال إنه أُحْصيت فى عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التى وهبها الطيبرسى لمماليكه وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة[٧] . فقصرُ الخلافة بل كلُّ حواشى القصر كانوا يعيشون فى ترف شديد . وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصَبّ فى حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم . ويقال إن ميزانية الدولة بلغت فى عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير . وكان يُعْنَى ببناء القصور وعمارتها ، ويُرْوَى أن ميزانية الدولة فى عهد ملكشاه السلجوق بلغت عشرين مليوناً من الدنانير[٨] ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول فى قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ٩/٣٦ وانظر كتاب العامة البدرى فهد ص ٢١٣ .

(٢) المنتظم ٩/١٦٥ .

(٣) دول الإسلام للذهبى (طبع حيدر آباد) ٢/٨٠ .

(٤) انظر مضمار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تق الدين الأيونى ١٢٣ - وراجع تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى فهد (طبع بغداد) ص ٣٨٢ .

(٥) مضمار الحقائق ١٨٣ وبدرى فهد ص ٣٨٢ .

(٦) بدرى فهد ص ٢٥٢ .

(٧) بدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٨) المنتظم ٩/٧ .

وظل ذلك بقصور الخلفاء فى العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفا . ولا شك فى أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولى ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبِّر شئونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم . بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقا إلى بغداد شىء من النشاط فى عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك فى عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت فى هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات فى الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شَهير اسمها وإنها أصبحت كالطلل الدارس والأثر الطامس[1] فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ فى عهد بوسعيد الإيلخانى أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبى تمام . قائلاً كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بَغدادَ ناعيها فليبْكها لخراب الدَّهْر باكيها[2]

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذى أصابها مع غزو هولاكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقتها ، وظلت منزلاً للعلم والعلماء ، بفضل ما كان يجبيه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء . وكان الأخيرون خاصة يدبرون شئون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا فى الترف والنعيم ويلقانا فى أول العصر المهلبى وزير البويهيين ، وكان يشتهر بمآدبه وكثرة ما كان يقدِّم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان « إذا أراد أن يأكل شيئاً بمعلقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص ٢١٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية) ١/١٣٩ .

ثانية »[١] . وفى هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد فى الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة وإنما يؤكل بملاعق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذى غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه «ابتيع له فى ثلاثة أيام وَرْدٌ بألف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة فى بركة عظيمة كانت فى داره ، ولها فوّارات عجيبة يطرح الورد فى مائها وينفضه »[٢] وإذا كان يَشْتَرى من الورد وحده فى ثلاثة أيام بألف دينار كى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فماذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف . لابد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنسه التى كان يعقدها بقصره ليلتين فى كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : «كان يجتمع فيها عنده ندماؤه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسُّط فى القصف والخلاعة ، وهم القاضى أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذَّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعُقار وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووُضع فى يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قُطْرُبُلِّيًّا أو عُكبَريا ، فيغمس لحيته فيه ، بل يَنْقعها حتى تتشرب أكثره ويرشّ بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبَّغات ومخانق المنثور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء »[٣] .

وظل هذا الترف طويلاً فى مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه فى بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب ، ويقال إنه غُنِّى يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه[٤] وكأن الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغانى كما مر بنا فى العصر العباسى الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التى لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيون وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبى المطهر الأزدرى — فى حكايته الطريفة عن

---

(١) معجم الأدباء ٥/١٥٣ وانظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ٩ / ١٣٨

(٣) ابن خلكان ٣ / ٣٦٦ .

(٤) معجم الأدباء ١٧ / ١٠١ وما بعدها .

أبى القاسم البغدادى التى تقص حياة شيخ طفيلى بغدادى فى يوم ببغداد فى القرن الخامس للهجرة – ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بديباج الذهب المنسوج وكأنما نُسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشيت بالساج وزينت تعاريجها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادّ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير الهندية والديباج التُّسْتَرِىّ المقصَّب الذهبى . ثم يُفيض فى القول فى الأطعمة من كل صنف والأفواه والعطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيَّب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة ، واصفاً أطعمتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيِّب وماء الورد والتفاح وحبَّ الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعى أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يُرْفَعُ الطعام يأتى فراش متهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خلال سلطانى مطيَّب ، ويغسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القَزِّ وأنعم من الخزّ . ويطيل الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزيَّن به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمور وكئوسها ودِنانها مطنباً مطيلاً . ويذكر ما فى مجالس السَّراة من المغنين الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدحون فى القلوب نوراً[1]

وكانت المغنيات يغنين فى مجالس السلاطين والخلفاء من وراء ستارة ، أما فى مجالس السراة وعلية القوم والنوادى فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويطيل ابن أبى المطهر الأزدى فى الإشادة بمغنيات بغداد وَزمَّاراتها وطبَّالاتها وصَنَّاجاتها ورقَّاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضربن على العود قائلاً : تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجرى عليها غِلالةٌ جَرْىَ الماء ورداءُ قصبٍ مزين مرصَّع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفى عنقها سُبْحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجوارى يحملن ذيول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متنقِّبة لا يُرَى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتُلْقى بحديث كزهر الجنان أو صوب الغمام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى (نشر ميتز فى هايدلبرج) ص ٣٥ - ٤٦ .

النقاب وتتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وتجسّ أوتاره وتفتتح غناء – كما يقول أبو القاسم – أعذب من تيار الفرات وتُفَتِّته فى مجارى الحلق وتكسِّره فى مجارى النَّفَس . يقول : وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية ، ومقلة باكية ، وجَيْباً مشقوقاً ، وفؤاداً يطير خفوقاً[١] .

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبى القاسم لهذه الجارية المغنية ، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، ونظن ظنا أن هذا الازدهار ظل له طويلاً ، وغاية ما فى الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهانى كتابه الأغانى عن المغنين والمغنيات فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وفى كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى فى أوائل هذا العصر نص طويل[٢] يصور ازدهاراً عظيماً للغناء فى زمنه ومدى تأثر الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين ، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البَرْدانى يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى عَلْوة جارية ابن عَلُّوية ، وهى تغنّى بأبيات للسَّرِىّ يقول فيها :

بِالوَرْدِ فى وَجْنَتَيْكَ مَنْ لَطَمَكْ　　　ومَنْ سَقَاكَ الُمدام لِمْ ظَلَمكْ

ويسترسل أبو حيان فى وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد فى عصره ، من مثل ابن فَهْم ، وكان يَطْرب إذا اندفعتْ « نِهاية » جارية ابن السُّلَمِىَ بِشَدْوِها :

أستودعُ اللهَ فى بغدادَ لى قَمَراً　　　بالكَرْخ من فَلَكِ الأزْرارِ مَطْلَعُهُ

ودَّعتُه وبُودِّى لو يودِّعنى　　　صَفْوُ الحياة وأنى لا أُودِّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبى محمد على بن زريق وسَنُنْشِدُ منها أبياتاً أخرى فى الفصل الثالث . ولما سمعهما منها ضرب بنفسه الأرض وتمرّغ فى التراب وهاج وأزبَد وتعفّر شعره ، وهيهات من الرجال مَنْ يَضْبطه ويُمْسكه ومَنْ يَجْسُرُ على الدنوِّ منه ، فإنه يَعَضّ بنابه ، ويَخْمِش بظفره ، ويَرْكُل برجله ويخرِّق المرقَّعة (رداء الصوفية) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة ، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق . وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفى ، فتنقلب حماليق عيونهم ، ويسقطون مغشيا عليهم ، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد – كما يقول أبو حيان – ويقرءون فى آذانهم آية الكرسى والمعوِّذتين ، ويرقونهم رُقىً مختلفة ، حتى يفيقوا من سكرتهم ، منهم أبو الحسن الجرَّاحى قاضى الكَرْخ ، فإنه كان إذا سمع الجارية «شُعْلة» وهى تغنى أغنيتها :

لابدّ للمشتاقِ من ذكْرِ الوطَنْ　　　واليأسِ والسلوةِ من بعد الحزَنْ

(١) حكاية أبى القاسم ص ٥٠ وما بعدها.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٦٥–١٨٣ .

ابتلّت شيبته بالدموع ، مع شجن قد ثقب القلب وأوهن الروح وفتّت الصخر وأذاب الحديد ، يقول أبو حيان : «وهناك ترى - والله - أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدِّرة ، وشهيقهم قد علاَ رحمةً له ، ورقّةً عليه ، ومساعدةً لحاله . وهذه صورة إذا استولت على أهل المجلس وجدت لها عَدْوَى لا تُمْلَك ، وغاية لا تُدْرَكُ ، لأنه قلما يخلو إنسان من صَبْوَةٍ أو صَبابةٍ ، أو حسرةٍ على فائت ، أو فكرٍ فى متمنىً ، أو خوفٍ من قطيعة ، أو رجاءٍ لمنتظَرٍ ، أو حُزْنٍ على حال» . ويسوق أبو حيان لنا صوراً من طرب الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمَّى «خاطف» وهذا ابن حجاج يطرب على غناء قِنْوَةَ البصرية ، وهى جارته وعشيقته . ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بابن صُبْر القاضى كل مأخذ ، حين يستمع إلى «دُرَّة» جارية أبى بكر الجرّاحى وهى تغنىّ :

لستُ أَنْسىَ تلك الزيارةَ لما طرقَتْنا وأقبلتْ تَتَثَنَّى
كم ليالٍ بِتْنَا نَلَذُّ ونَلْهو ونُسَقَّى شرابَنا وتُغَنَّى
هجرتْنا فما إليها سبيلٌ غيرَ أنا نقول : كانتْ وكُنَّا

يقول أبو حيان : «وإذا بلغتْ . «كانت وكنا» رأيت الجَيْبَ مشقوقاً ، والذَّيْلَ مخروقاً ، والدمع منهملاً ، والبال منخذلاً ، ومكتوم السر فى الهوى بادياً ، ودليل العشق على صاحبه منادياً» . ويعرض علينا أبو حيان صوراً مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم غلام الحُصْرى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سَمْعون أكبر واعظ شهدته بغداد فى زمنه ، فإن الطرب كان يقيمه ويقعده حين يستمع إلى ابن بَهْلول ، وهو يزلزل الدنيا بصوته الناعم وغُنَّته الرخيمة وظرفه البارع ودماثته الحلوة . ويذكر أبو حيان جَارية كانت تنوح تسمَّى حَبابَه كانت فى النَّوْح واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها . يقول : ورأيت لها أختا يقال لها «صَبابة» كانت فى الحسن والجمال فوقها . . وزلزلت هذه بغداد فى وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان فى ختام هذا الفصل الطريف .

«ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين والأغانى من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لأطلت وأملت وزاحمت كل من صنّف كتاباً فى الأغانى والألحان . وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجماعة فى الكرخ - أربعمائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائةً وعشرين حرة يجمعن بين الحسن والحذق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزّته وحرسه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو ثَمِل (سكِرَ) فى حال ، وخلع العِذار فى هوى قد حالفه وأضناه » .

ولا ريب فى أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين ، وكم كنا نتمنى لو أن أبا حيان أطال وأملَّ وصنف فى أغانى عصره كتاباً ككتاب أبى الفرج الأصبهانى ، ولكنه لم يُعْنَ بذلك فخَسر الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف فى الأغانى والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهانى . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب فى الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخانى بوسعيد فى سفينة بدجلة يتنزَّه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان فى أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكرُه وطبوله ، وكان يتقدم الموكب الحجَّاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون فى مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى ينزل بوسعيد ، فإذا ركب عادت المجاميع إلى الطرب والغناء[1] .

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشىء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعمون به فى الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزيَّن بالأعلام ذات الألوان الزاهية فى عيدى الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج فى رحيلها وقدومها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتنزهات وسماع المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان فى السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتى بعده عيد السَّذَق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشْعَلُ النار فى السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، ويلى هذا العيد عيد النيروز فى أول الربيع ، ويبتدئ فى الحادى والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصارى ويخرجون فيها للمتنزهات والأديرة ، وكان لكل دير عِيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعانى كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التى كانت تُجبَى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

---

(١) ابن بطوطة ١/١٤٣ وما بعدها .

الطبيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم [١] ، ويذكر التنوخي أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم [٢] . والخبران من أخبار أوائل العصر في القرن الرابع الهجرى ، فما بالنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة ، وهذا هو السبب في كثرة العيَّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرَّغون في الترف والنَّعيم وهم محرومون يتجرَّعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا في شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق [٣] ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزَّبَد [٤] . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهبوها وعينوا عريفاً لهم في كل محلة [٥] . وأخذ ينتظم مع الزمن في صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث في فتنتهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونمضي في القرن السادس الهجرى فنجد فتنهم تشتعل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم في عهد السلطان مسعود السلجوقي (٥٢٧ – ٥٤٧ هـ) وينهبون بغداد مراراً . ومازالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كنا في عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) وجدناه في سنة ٥٧٨ يستدعي شيخاً من بينهم عُرف بأن له أتباعاً كثيرين ، فعرض عليه أن ينتظم معه ومع أتباعه في الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للفتن ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ في تنظيم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجاً ، وعمد إلى نشرها في الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام في سلكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغوري سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

---

(١) مسكويه ٢ / ١٩٨ .

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ٢ / ١٥٥ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ في المنتظم وابن الأثير وابن تغرى بردى .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٦٠ .

(٥) راجع في السنة المذكورة المنتظم وابن الأثير .

العادل الأيوبى وأبناؤه كما مرَّ بنا . وكان هذا عملاً جليلاً ، لا لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب ، بل لأنه وجَّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً فى حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين ، وقد تحولت إلى نظام عظيم ، كتب فيه العلماء كتباً ، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادى المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومنزلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على ألسنة الفتيان النبيلة [١] . غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التتار هى والعراق ، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعثمانيين ، وأخذت أحوال أهلها هى والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر ، لكثرة ما كان يفرض على الناس فى المدن والريف من الضرائب الفادحة .

ولم نتحدث عن أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئة واليهود ، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية ، وكانت لا تتجاوز ديناراً اللعامة ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء ، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطنى ، إذ لم يكن يؤديها إلا مَن يقدرون على حمل السلاح ، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات . وكانت الدولة وخاصة فى الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى فى الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيرا - كما مرَّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون فى مختلف الحقب ، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن ، فكان منهم الصَّباغون والخزَّازون وأمثالها كالأساكفة .

وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة ، وكان من أجناس مختلفة ، فمنه الإفريقى ومنه التركى الآسيوى ومنه الأوربى وخاصة الصقلبى والرومى . وكانت له سوق رائجة فى بغداد من قديم ، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النخاسين ، وكانت لهم حِيَل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعامة ، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها « شراء الرقيق وتقليب العبيد » وفيها يصور حِيَل النخاسين فى تحسين الجوارى وطرق خداعهم فى إزالة آثار الجدرى والوشم والنمش من أجسادهن وصبغهن بألوان تُخْفى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصبغ عيونهن بألوان تجعلها كحلاء أو زرقاء ، ويصور بعض مقاييس الحسن فى الجارية من أخمص قدمها إلى

---

(١) انظر فى الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التى كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب . وانظر الفتوة والخليفة الناصر للمستشرق الألمانى فرانزتيشنر فى كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

مفرق شعرها[١] وكانت المحظوظات منهن تُجْلَبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية[٢] ، وابنه المقتدى (٤٦٧ – ٤٨٧ هـ) كانت أمة جارية أرمنية[٣] ، وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ – ٥١٢ هـ) من الجوارى[٤] . وكان منهن كثيرات فى قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكن وصيفات لهن[٥] .

وكانت الجارية المغنية تباع بأغلى الأثمان ، وكان فى بغداد بعض نوادٍ بها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو[٦] . واشتهر كثيرات منهن باللطف والظرف والبديهة الحاضرة ونظم الشعر[٧] وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام والعصائب والمناديل ، وكان لذلك تأثير فى رقىّ الأذواق ببغداد من قديم .

وكان شرب الخمر معتاداً فى كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسَراة القوم ، على نحو ما مرَّ بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه «كان يجب أن يقضى أوقاته فى الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفِتاخ (العقبان)[٨] . ومرَّ حديثنا عن عضد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوقى منهمكاً فى اللذات والانعكاف على الخمور والراحات[٩] . ويكثر وصف الخمر على ألسنة الشعراء وفى حكاية أبى القاسم البغدادى وصف كثير لها فى غير موضع ، وفيه تُساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد فى القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان بغداد – إن لم يكن كل البلدان العربية – على مرِّ التاريخ .

وكان الصيد لهواً عاما للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواته ملكشاه السلجوقى ، ويقول ابن خلكان : «كان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدَّق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . . وصاد فى طريقه وحشاً كثيراً ، وبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء مما صاده[١٠]» . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

(١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التى نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات .
(٢) المنتظم ٨/٥٨ .
(٣) المنتظم ٨/٢٩١ و ٩/٢٠٠ .
(٤) المنتظم ٩/٨١ .
(٥) المنتظم ٨/٢٣٠ والمستجاد من فعلات الأجواد للتنوخى ٢٣ .
(٦) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى (طبع دمشق) ص ٩٧ .
(٧) نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨/٣١ .
(٨) مسكويه ٦/٣٨٦ .
(٩) ابن خلكان ٥/٢٠٢ .
(١٠) ابن خلكان ٥/٢٨٤ .

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمى بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يمرّن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولمعاصره الفتى عمر بن السفت مخمس طويل فى وصف قوس البندق وإحكام الصيد [١] .

واستمر من هواياتهم فى هذا العصر اللعب بالنَّرْد وكذلك اللعب بالشطرنج وفى حكاية أبى القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسلياتهم القديمة مهارشة الديكة ولُعْبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه فى البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمرنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان وبختم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلى للظهور بالمظهر الكريم فى حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يجثم على صدر بغداد حزن كئيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

٤

التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية فى إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهى نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية فى على بن أبى طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لايسمون الحاكم الأعلى للمسلمين فى رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو على الذى اختاره الرسول ﷺ فى اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلى بالإمامة بجوار غَديرخُمّ بين مكة والمدينة . فهو وصىُّ النبى وكل إمام بعده وصَىٌّ لسلفه ، عيَّنه بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهى . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بَثَّ علياً علوماً خصَّه بها ، وهى علوم تجعل له – فى عقيدتهم – قدسية وصفات روحية خاصة ،

(١) مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص ٧٥ .

وهى صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشيعة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرفت بالعراق لهذا العصر ، هى الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والنُّصَيْرية . والأولى [١] هى التى يدين بها جمهور الشيعة فى العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فعُرفتا فى بعض البيئات والمدن ، ولم تَعُماَّ فى العراق إنما التى عَمَّت الامامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغى أن نفصِّل القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة على وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨ فى كتابه الأصول من الجامع الكافى : « ليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومَنْ لا يفوِّض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله » والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية – فى عقيدتهم – الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر [٢] ويضفى الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم ، وهى صفات يعلو بها على المستوى البشرى للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجِّها ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكلُّ ما يجدّ يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيئة الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله [٣] . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاَّء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتراجمة وحيه وأركان توحيده وخزَّان معرفته . . أمْرُهم أمْرُ الله ، ونَهْيُهم نَهْيُه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته [٤] . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولو الأمر ليسوا هم – كما يدل ظاهر الآية – علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأئمتهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتُعَدّ هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية فى العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم – على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم – والله لا يختار لعباده

---

(١) انظر فى الإمامية الملل والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكلينى ص ١٠٥ و٣٦٨ وجولد تسيهر ص ١٨١ وفى مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر (طبع القاهرة) ص ٧٢ والكلينى ص ١٤٦ . ١٤٨

(٤) انظر المظفر ص ٧٤

فى رأيهم إلا المعصومين[١] .

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر ، ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، وهم – على الترتيب – على بن أبى طالب ، فابنه الحسن ، فأخوه الحسين ، فابنه على زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فابنه موسى الكاظم ، فابنه على الرضا ، فابنه محمد الجواد ، فابنه على الهادى ، فابنه الحسن العسكرى ، فابنه محمد المهدى المولود سنة ٢٥٦ للهجرة ، وقد اختفى عندما كان طفلاً . ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حى وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً ، ويعيد سنن الرسول ﷺ ويستردّ حقَّ أسرته فى الولاية على الأمة فى يوم موعود به من الله ، هو سر من الأسرار الإلهية . ويقولون إن هذا حقا مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حيا ، ولكنها – كما يعتقدون – معجزة ستُحَقَّق . إذ يعود إليهم هذا المهدى المنتظر الذى يحرِّر – فى عقيدتهم – العالم من مفاسده وشروره ، ويُشيع فى الناس العدالة . وهو بذلك حَىّ ، وكل ما فى الأمر أنه غائب خفى عن الأعين[٢] . وهو عندهم فى أثناء غيابه واختفائه « قائم الزمان » يسير بين الأحياء ولا يرونه ، ويرعى شئونهم ، ويدبر مصالحهم[٣] .

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة ، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقرُّوا بين البشر نواميس العدالة الإلهية ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت ، وكأنها بعث موقوت فى الدنيا ، وهى طبعاً غير التناسخ ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن ، أما الرجعة فمعاد جسمانى فى الدنيا بنفس الصورة والشخصية . ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام فى الذكر الحكيم : (وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَص وأُحْيِى المَوْتَى بإذن الله) وما جاء عن قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم ، وأيضاً عن صاحب القصة فى قوله تعالى : (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) . غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدى الذى سيأتى آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول ، ويقول الشيخ المظفر : « على كل حال الرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها ، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام[٤] » . وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

---

(١) انظر فى عصمة الإمام لدى الاثنى عشرية جولدتسيهر ص ١٨٨ .

(٢) انظر فى نظرية المهدى الكتب الشيعية السابقة وجولدتسيهر ص ١٩١ وما بعدها وراجع فى عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٠ .

(٣) انظر جولدتسيهر ص ١٩٦ .

(٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع فى عقيدة الرجعة لدى الاثنى عشرية جولدتسيهر ص ١٩١ .

الروايات المنسوبة إلى الأئمة فى البيئة الإمامية فهى أقوى عندهم من كل برهان لأنهم فى رأيهم معصومون منزهون عن الخطأ .

وتلتقى العقيدة الإمامية مع الاعتزال فى كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا بعلم ، وكذلك بقية صفاته ، ويروون عن جعفر الصادق : «العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور[1] » . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو منزه عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسما ولا عرضاً ولا جوهراً ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة فى تأويل الآيات القرآنية التى قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات فى مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة فى إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهى بين بين ، أو هى بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر .

وقد أخذ المذهب الإمامى الاثنا عشرى ينتشر فى العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر فى سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكَتَبَ بَعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فمحا الكتابةَ أهلُ السنة[2] . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء فى سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذى استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغْلَقَ الأسواق ويعطَّل البيع والشراء ولا يَذْبح القصَّابون ولا يَطْبخ الطبَّاخون وأصحابُ الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسوَّدات الوجوه مشقوقات الثياب وَيُدْرن فى بغداد ناثحات لاطمات وجوههن على الحسين[3] . وفى هذا اليوم يُزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها عليه مأتم كبير كمأتم بغداد ، ويقام أيضاً فى المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للناثحين ببغداد ، وتُتلى سيرة الحسين فى البيوت والنوادى وتنشد مراث كثيرة فيه وفى أبيه وفى الأئمة المستشهدين ، يصوِّر فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ . وبجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

---

(١) الفصول المهمة فى أصول الأئمة للعاملى (طبع النجف) ص ٥٣ وانظر جولدتسيهر ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا فى حوادث عام ٣٥١ .

(٣) المنتظم ٧ / ١٥ وابن الأثير وابن تغرى بردى فى حوادث عام ٣٥٢ .

وسرور فَرَضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدير خُمّ الذى يذهب الشيعة – كما أسلفنا – إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونَصْب القباب وتعليق الثياب ، وأُشعلت النيران ليلاً وضُربت الدبادب والبوقات [١] . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين بإزاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حِراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير [٢] .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حَيّ الشيعة الإمامية [٣] ، ويقول هلال الصابى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى [٤] ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة ، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الحِلّة ويقول إن أهلها لزمنه فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية [٥] ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحِلّة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكتساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كَرْبلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن «الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجَّاب والقَوَمة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبِّل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير» [٦] . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغطِّى الضريح ومئذنة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحضُّ العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أتيح لتلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

---

(١) ابن الأثير والمنتظم فى حوادث عام ٣٥٢ .

(٢) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ٣٧١ .

(٣) انظر مادة كرخ فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر المنتظم فى حوادث عام ٣٨٩ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ١ / ١٣٨ .

(٦) ابن بطوطة ١ / ١٣٩ .

وكان بجانب العقيدة الاثنى عشرية فى العراق عقيدتان أخريان شيعيتان ، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى ليتبرأ منها الشيعة الاثنا عشرية ، والثانية معتدلة غاية الاعتدال ، أما المتطرفة ففرقة النُّصَيْرية كان لها أتباع فى مدينتى عانة والحديثة ، وهم فى الحق مسلمون اسماً فحسب ، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عَدُّوا على بن أبى طالب وأبناءه آلهة وعبدوهم من دون الله ، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عَدّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه . وطبيعى ، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة على ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة ، ويقول جولد تسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة[١] . وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندسُّ بين الإمامية بعض النُّصيرية وبعض الشيعة الغالين أو بعبارة أدق الرافضة ، وخاصةً من يرفعون عليا إلى مرتبة رَبَّانية . ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد فى عام ٤٢٠ للهجرة يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى ﷺ فيقول : « وعلى أخيه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب مكلم الجمجمة ، ومحيى الأموات ، البشرى ، الإلهى ، مكلم فتية أصحاب الكهف[٢] » . وكأنه يؤمن بأن عليا صورة جديدة لعيسى عليه السلام ، اجتمع فيه اللاهـوت والناسوت مما يتيح له فى رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان . وهى نفس عقيدة النصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهيا وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه[٣] إلى غير ذلك من كفرٍ ما وراءه كفر .

وعلى عكس النصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال ، هى فرقة الزيدية التى نشأت فى الكوفة على يد زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، وقد ظل لها فى هذا العصر أنصار عديدون فى تلك المدينة ، وكانوا لا يَقْصُرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية ، بل يرونها حق كل علوى فاطمى ما دام له من الاستعداد الروحى ما يؤهله للإمامة ، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التى آمنت بها الإمامية وما يُطْوَى فيها من نظرية الرجعة وأيضا فكرة العصمة ، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطنى المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُضْفَى على الإمام ، فيكفى

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسهير الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/٨٢ .
ص ١٨٤ ، ٢٢١ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى بتحقيق محمد سيد كيلانى (نشر مكتبة مصطفى الحلبى) ١/١٨٨ وما بعدها .

(٢) المنتظم فى حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً ، ولكن دون تصور علم لدنّى يهبط عليه . واشترطوا فى الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونهوا عن ذم الصحابة وأبى بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا عليا بالخلافة ، وجَوَّزوا إمامة المفضول من غير ذرية على بن أبى طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً [١] .

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد فى هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها فى العصور السابقة ، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول فى أحاديثه النبوية إلى الزهد فى عَرَض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة فى الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين ينبذون وراء ظهورهم مباهج الحياة ويتجردون لعبادة ربهم . ونراهم فى هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامى يُعَدّون بالعشرات بل بالمئات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ فى طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينه النفس القانعة مع ما يُذْكَرُ من أن هذا الفقية أو ذاك اعتكف فى بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزى وابن الأثير وابن تغرى بردى سيراهم يذكرون فى وفيات السنوات أسماء كثرةٍ من الزهاد ، فمثلاً فى سنة ٣٤٨ توفى جعفر بن حرب وكان فى نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : (ألم يَأنِ للذين آمنو أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذكرِ الله ومانزل من الحق) فصاح : بلى والله قد آن ، ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفى نفس السنة توفّى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفْطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التى استفضلها . وفى سنة ٣٨٤ توفّى

(١) الشهرستانى ١ / ١٥٤ .

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لايستند إلى حائط ولا إلى وسادة أوغيرها . وكانوا يكرهون فى الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالا[١] ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله[٢] . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً مانقرأ عن هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان فى وجهه أثر صُفْرة من قيام الليل[٣] . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فينصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التى بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزى واعظ بغداد المشهور ، فأخذه الوَجْد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزى والناس من حوله أنه قد أعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر[٤] . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون فى الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة فى الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذى لا يريد للزاهد أن ينفصل عن المجتمع والحياة ، وقد رُوى أن جماعة من الصحابة كانوا فى سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه فى ركوبه مصلياً له فى نزوله فقال لهم « فمن كان يكفيه عَلَف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه[٥] » . فالزهد الإسلامى ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى[٦] . ونرى ابن الجوزى يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمضون الليل والنهار فى العبادة والنسك وقد نحلت أجسامهم وشحبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة[٧] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/١١٧ .

(٢) النجوم ٥/٥٧ .

(٣) النجوم ٥/٩٨ .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة (طبع بغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير لبدرى فهد ص ٣٩٧ .

(٥) أعلام النبوة للماوردى (طبع القاهرة) ص ١٥٣ وراجع طبقات ابن سعد ج٣ق١ ص ٢٨٧ وج ٤ق٢ ص ٩ .

(٦) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب المصرية) ٤/١٨ وروض الرياحين لليافعى (طبع القاهرة) ص ٣٨ .

(٧) صيد الخاطر لابن الجوزى (طبع القاهرة) ص ١٣٨ .

وكان طبيعيًّا أن يتحوَّل كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكِسْرة ومن الثياب بالخِرْقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تُبْنَى لهم الرُّباطات والخانقاهات فى العالم الإسلامى ، تَبْنيها الدولة أحياناً ، ويبنيها ذوواليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتى عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحْبَسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسْمَحُ بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيخوخة بحيث تُقْعده عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان فى الأربطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الخلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل مَنْ فيه من أتباعه . والمحور الأساسى للتصوف هو محبة الله محبة يفنى فيها الصوفى المحبُّ فى الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهىّ ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير فى هذه العقيدة . ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أنه بلغ من غلو الحلاَّج فى هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرِّح بفكرة الحلول من مثل قوله : «أنا الله وأنا الحق» مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقتله . غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الحلاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عنتاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغى أن يُظهِروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون بالملامتيَّة أى المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح .

وكان ذلك سبباً فى أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيعون من أفكار الحلول ومايتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الحنيف . وتفاقمت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورةُ أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . وسرعان ما ظهر أبو نصر السرَّاج الصوفى الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه «اللمع» وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفى وشطح صوفى يؤدى إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد

الرحمن السُّلَميّ صاحب طبقات الصوفية ، ولقَّنها بدوره تلميذه عبد الكريم القُشَيْرى المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رَأَّبَ بها هذا الصدع الذى حدث بين الفقهاء والمتصوفة . ودوَّنت الرسالة منذ عصره فى العالم الإسلامى ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه فى وئام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التى تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفُّون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميِّزون بين الحلال والحرام مدَّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالى حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشريعة وصلاً وثيقاً لم يصبه وَهنٌ بعده ، بحيث أصبح التصوف فى صورته العامة سُنِّياً . وحقا انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربى وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السنى على نحو ما رسمه الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » وهو فى النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتهجد والأدعية . ويبدأ الحديث فى النصف الثانى بما ينبغى من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحى الذى يتطلبه الصوفى وما ينبغى له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكر وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالى والقشيرى وأبى نصر السراج الطوسى فى القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السنى القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلبَ كثرةٍ من الناس فى العالم الإسلامى جميعه . والغزالى لا يضع أصوله فحسب ، بل يُعِدّ العدة لكى تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث فى الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفى وتلميذه أو مريده ، وقال إنه ينبغى أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشى على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية فى الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محيى الدين أبى محمد عبد القادر[1] الجيلانى مولداً الحسينى نسباً المتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد فى شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدِّثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر فى الجيلانى الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والنجوم الزاهرة ٥/٣٧١ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى (طبع لاهور) ٥/٣٨١ .

الناس بعد سنة ٥٢٠ وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لبَّى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَغْرى بَرْدى : «كان ممن جمع بين العلم والعمل أفتى ودرَّس ووعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان فى التحقيق وبيان فى الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم فى الشرق والغرب» . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغُنْية لطالبى طريق الحق ، وهو فيهما يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت فى مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى مناقب القطب الربانى سيدى محيى الدين أبى محمد عبد القادر الجيلانى ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التى ذاعت فى العالم الإسلامى الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربى الأصل أبى العباس أحمد[1] بن أبى الحسن على المعروف بالرفاعى «إمام وقته فى الزهد والصلاح والعبادة» وقد شاعت طريقته فى عصره وكثر أتباعه . ويُقال إن شخصاً زاره فى ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان «وكان متواضعاً مجرَّداً من الدنيا» . وكان مولده سنة ٥٠٠ ووفاته سنة ٥٧٨ . ومن قوله : «سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والاقتداء بسنَّة سيدى رسول الله ﷺ» . وله كتاب سماه «حالة أهل الحقيقة مع الله» حققه وقدم له محمد نجيب خياطة ، وهو مطبوع بحلب ، وقد بناه الرفاعى على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووَصْف المتصوفة أهلِ الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن وِرْدِه ، فقال : كان يصلى أربع ركعات بألف (قل هو الله أحَد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سُبْحانك إنى كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسى وأسرفت فى أمرى ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى ، وتُبْ علىَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، ياحىّ ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت» — ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية والنزول فى التنانير وهى تتضرَّم ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

---

(١) راجع فى الرفاعى مرآة الزمان ٨/ ٣٧٠ والشذرات (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٦/ ٢٣ : وابن خلكان ٤/ ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦/ ٩٢ وطبقات السبكى ١/ ١٧١ وطبقات الشعرانى ١/ ١٤٠ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزورى ، وشهاب الدين أبو حفص [١] عمر السُّهْرَوَرْدى البغدادى ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلانى ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه ينزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التى يقطعها المريد حتى يتهيأ لانتظامه فى طريقة شيخه ويصبح مُعَداً أو مهيَّأ لأن يخلع عليه « الخِرْقة » شعار الصوفية وهى ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته فى إرادة شيخه . ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلم منه الخرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه فى الطريقة . ويقول السهر وردى إن « المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد . . . ويتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال »[٢] . ويتحدث السهر وردى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقْضَى فى الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك ينبغى على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكى ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته[٣] . وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه فى المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن يتنشرا لا فى العراق فحسب بل أيضاً فى كل العالم الإسلامى .

ومنذ القرن الخامس الهجرى أخذ يشيع فى التصوف وبين المتصوفة ما سُمِّى بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية فى صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً ، ويقوم بين الصفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التى تدلع المحبة الإلهية فى القلوب ، وقد عَمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدهما من طرق صوفية . ولابُدَّ أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ فى الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجوِّلون كانوا يطوفون العالم الإسلامى ، وأخذت تظهر بينهم

---

(١) انظر فى ترجمته ابن خلكان ٣/٤٤٦ وعبر الذهبى ٥/١٢٩ وطبقات الشافعية ٨/٣٣٨ ومرآة الزمان ٨/٦٧٩ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨٤ .

(٢) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب العربى ببيروت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأ إلى عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردى .

(٣) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

فى القرن الثامن الهجرى وما بعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقْشَبَنْدية ، وقد رعاها تيمورلنك فى دولته ، والبكطاشية ، وقد نشأت فى جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهى تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتنقيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تتفرع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش الساكنين أو الجوالين أثر بعيد فى نشر الإسلام بشرقى إفريقيا وغربيها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم فى أن تظل للعالم الإسلامى وحدته على الرغم من توزعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم فى بث الروح الدينية فى نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة فى أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكتاتيب للصِّبْية يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبى لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمذانى ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريرى . وكان يستظهر أيضا بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحترى والمتنبى . وكان الناشئة يتحولون من الكتاتيب إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومَنْ يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد فى بغداد تحل محل التعليم الثانوى والجامعات فى عصرنا ، وبالمثل فى البصرة والموصل وغيرهما من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند فى المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يملى على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستمليا يردِّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحيانا ما ألَّفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد يعنُّ له أن يدخل فى القراءة الثانية شيئاً من التصحيح أو التهذيب على ما صنَّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يُرْوَى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المطرِّز من أنه أملى كتابه الياقوت فى اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيفا بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١- وبها نشره تلاميذه[1] . وكان جامع

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩
وراجع إنباه الرواة ٣/١٧٥ .

المنصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ نابغ يتمنى أن تكون له فيه حلقة ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن الخطيب البغدادى حافظ بغداد – المتوفى سنة ٤٦٣– من أنه حين حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدِّث بكتابه «تاريخ بغداد» والثانية أن يُملى على الطلاب بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدْفَن إذا مات عند قبر بشر الحافى . وتحققت له الأمنيات الثلاث [١] . وكان الأساتذة والشيوخ فى المساجد أحيانا لا يُمْلون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجرى بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية فى العصر قرون الشروح ، وقد تُشْرح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشى ملاحظات تسمَّى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجرى بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتُلْحَقُ بها مكتبات ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير سابوربن أردشير فى سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربى بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتبا كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثَّقة التى كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس [٢] . وأسس الشريف الرضى الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه [٣]

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بنى بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبِّر لحكم فى زمن ألْب أرْسلان السلجوقى عُنى ببناء طائفة من المدارس فى بلدان مختلفة فى العراق وإيران ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعى فى الفقه ومذهب الأشعرى فى علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها فى بغداد والموصل والبصرة [٤] وقف عليها أوقافا كثيرة ، وبنى فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكتبات نفيسة . وكان فى هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون – بجانب

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى (الطبعة الثانية بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى) ٤/٣٥ .

(٢) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار فى قصيدة مشهورة له وانظر شروح سقط الزند ص ١٢٣٩ .

(٣) ديوان الشريف الرضى طبعة سنة ١٣٠٧ ببيروت ص ٣ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى ٤/٣١٣ .

أساتذة علم الكلام والفقه – فى علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك يبنون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ بباب أبرز إحدى محال بغداد وأحيائها مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية[١] ، وأخذ بعض الموسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابتنى المستوفى الخوارزمى – وكان متعصبا لأبى حنيفة – المدرسة الكبيرة بباب الطاق[٢] وأخذت المدارس تتكاثر فى بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرقى «وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها . وأعظمها وأشهرها النظامية وهى التى ابتناها نظام الملك وقد جُدِّدت سنة أربع وخمسمائة . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويُجْرون منها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلَّد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم مَنْ تبع ذلك السَّنَن الصالح[٣] »

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان فى وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مرارا ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دَرَّس فى النظامية . وقل مثل ذلك فى نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُنِى بجوار النظامية الأخيرة فى الموصل تسع مدارس ، هى : القاهرية والأتابكية والعتيقة والنورية والعِزِّية والبَقْشية والعلائية والكمالية والبدرية[٤] . وبُنيت مدارس كثيرة فى المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها فى إربل ثلاثا هى المظفرية والقلعة والعقيلية[٥] . وبنى الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هى المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجى معروف كتابا ، عرض فيه أساتذتها ونشاطها العلمى وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقه وحده عشرون فقيها ، يتقاضى كل منهم اثنى عشر دينارا فى كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهريا . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهريا . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخَزَنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدَّم للشيوخ والطلاب يوميا جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٢٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٦٧ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

(٤) انظر ابن خلكان ١/١٠٨ ، ١٩٣ ، ٤/٤ ، ٢٥٣ ، ٥/٣١١ ، ٣١٣ .

(٥) ابن خلكان ١/١٠٨ ، ٧/٨٧ ، ٣٣٨

ما يقدم للطلاب من الحبر والورق والأقلام [١] . وعاد إلى هذه المدرسة ، أوقل الجامعة ، نشاطها بعد الغزو التتارى ، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله : « بها المذاهب الأربعة – يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية – ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب ، صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابساً ثياب السواد ، معتمًّا ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ، وفى داخل هذه المدرسة الحمَّام للطلبة ودار الوضوء [٢] .

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية فى بغداد خمدت خموداً تاما بعد الغزو التتارى غير صحيح ، يمكن أن يُصْدَقَ ذلك على العهد التتارى الوثنى أما منذ دخول غازان والتتار فى الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمى ، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها فى العصر العباسى والمعروف أن هولاكو دمَّر كثيرا من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس ، وعُنى غازان – كما أشرنا – وخلفاؤه الإيلخانيون بها .

ولاشك فى أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام فى العهدين التركمانى والعثمانى ، غير أن النشاط أخذ يدبُّ فيها أواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد فى نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية .

ولابد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمى بعد الغزو التتارى ، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء ، ويقول إنه سمع فيه على مُسنِد العراق – سراج الدين أبى حفص عمر القزوينى – جميع مسند الدرامى [٣] . وكانت الدراسة فى مساجد بغداد ومدارسها بالمجان ، بل كان الطلاب فى المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا . وربما كانت المساجد أهم من المدارس فى نشر العلم ، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائما لكل قاصد ، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا ، مما جعل العلم بحق شعبيا لجميع أفراد الشعب ، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم . وكثيرا ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره فى علم من العلوم ، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذى يريده حتى يصبح من أقطابه ، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة فى ابن خلكان وغيره .

---

(١) انظر تاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف ١ / ٥٧ ، ٧١–٨٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) ابن بطوطة ١ / ١٤١ .

(٣) ابن بطوطة ١ / ١٤٢ .

وعلى هذا النحو لم يكن العلم فى بغداد احتكارا لطبقة بعينها ، بل كان مباحا لجميع الناس ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة فى كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذُكر فيها أنه قال لشاب بغدادى فى تضاعيف حديث وجَّهه إليه : « قدمَنَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير . . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبَّرت جميع الأشياء وركبتها » . ولم تكن العامة من الرجال فقط هى التى تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضا الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد فى ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلّة العلماء فى مختلف العلوم والفنون وتُظْهر براعة فائقة فى ليال كثيرة ماتزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنهن يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادى وحمله أو أخذه صحيح البخارى عن كريمة المروزية [١] .

وطبيعى أن تنشط الوراقة فى هذا العصر الذى كان مكتظا بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نَسْخ الكتب والأجور التى كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتفلسف المتوفى سنة ٣٦٤ ويروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبرى [٢] ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته فى هذا النسخ ، مما جعل الصاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية [٣] . وكان للوراقين سوق معروفة فى بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون فى هذا العصر مقام أصحاب المطابع فى عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويجلدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها فى كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير فى كتابه « الفهرست » وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجما لأصحابها ، ولم يترك كتابا إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفا كثيرة . والكتاب طرفة من أروع الطرف ، وهو يموج

---

(١) السبكى ٤/٣٠ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ .

(٣) معجم الأدباء ١٥/٢٦ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية فى هذا العصر .

وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء فى كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهَّلت فيما بعد لتأليف كتب فى تراجم كل مجموعة على حدة ، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووُضعت كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن شخص فى بغداد – مددا متطاولة من هذا العصر الذى امتدَّ قرونا متعاقبة – إلا وهو يلمُّ بعلم أو بطائفة من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين فى عصرنا ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا فى كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهيأ ذلك لندوات كثيرة كانت تُعْقَدُ أحيانا فى قصور السلاطين والوزراء وعِلْية القوم ، وكثيرا ما دارت فى هذه الندوات مناظرات خصبة ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بختيار وما أثير فيه من مناظرات فى مسائل كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم[1] . ولعل مجلسا لم تحتدم فيه المناظرات كما احتدمت فى مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصَّ علينا منها أطرافا كثيرة أبو حيان فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعْرَضُ فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون فى كل ذلك محاورات بديعة . وكانت تثار مناظرات كثيرة فى المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين المتكلمين واللغويين . وبلغ من اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ، فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت فى سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسى ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسى وزملاؤه من الصلة بين الفلسفة والدين[2] . ومن الندوات المشهورة فى القرن الرابع ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى صاحب صِوان الحكمة المتوفى بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة الفارابى وامتاز بعقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان فى كتابه « المقابسات » كثيرا مما كان يدور فى ندوته من شعب الفكر فى الإلهيات والطبيعيات والنفس والروح والأخلاق . ونذهل حين نقرأ الحوار فى المسائل الكثيرة التى كانت تدار فى هذه الندوة وكذلك فى ندوة ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تَصْنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

(١) مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى (طبع دمشق) ص ١٣٩ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وما بعدها .

عجيبة ، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة فى أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

رأينا فى كتاب العصر العباسى الثانى كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحوَّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلى للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مهما فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقا واسعا ، ومَنْ يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطى أو طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة يبهره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية فى الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسى الأول لا يكتفى النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى فى كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجرَّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بنظرهم . وقد افتتح العصر العباسى الثانى بعالم رياضى عظيم هو الخوارزمى مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربى هو الكندى . ومضت الترجمة فى النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتى ثمارها حتى ظهر الفارابى الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثانى .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أَوْجَها فى القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيرونى فى إيران وابن الهيثم فى العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى [1] بن عدى النصرانى اليعقوبى المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة ، تتلمذ على الفارابى ومتَّى بن يونس ، ويقول القفطى : «إليه انتهت رياسة أهل المنطق فى زمانه» ويذكر له كتباً عدة ترجمها لأرسطاطاليس وشراحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدى «تخرج

(١) انظره فى صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (طبع طهران) ص ٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى (طبع القاهرة) ١/ ٣٧ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدوميلى (الترجمة العربية طبع القاهرة) ص ١٨٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٤/ ١٢٠

عليه كثير من المترجمين والمتفلسفة » مثل عيسى [١] بن على بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقا فى الترجمة فيما يعلم الأوائل ، ويقول القفطى : رأيت نسخته من السماع الطبيعى التى قرأها على يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق » . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى [٢] بن زُرْعة ، وكان نصرانيا يعقوبيا مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطى عنه : « أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجوِّدين » ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وينوه بما ينقله إلى العربية تنويها كبيرا ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن [٣] بن سُوار النصرانى المعروف بابن الخمَّار البغدادى وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية . وكان متفلسفاً وطبيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكنا فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطَّت به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف [٤] الرومى الشيرازى القَسّ ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس . وكان طبيباً حاذقاً .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم تبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائلَ هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعو له دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة -- كما وصفها أبو حيان - تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القُدْس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنَّته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غَسْلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفةُ اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميِّها وعمليِّها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها « رسائل إخوان الصفا

(١) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٦ والقفطى ص ٢٤٤ .

(٢) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ والفهرست ص ٣٨٣ والقفطى ص ٢٤٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٨ وبروكلمان ٤/١٢٢ .

(٣) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطى ص ١٦٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٢٨ وبروكلمان ٤/١٥٨ .

(٤) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع والمؤانسة ١/٣٧ والمقابسات لأبى حيان التوحيدى (طبع بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية وراجع القفطى ص ٣٣٧ وبروكلمان ٤/١٨٣ .

وخلان الوفا ، وكتموا أسماءهم وبثوها فى الوراقين[١] » . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفى هذه الرسائل هم زيد بن رفاعة وأبو سليمان المقدسى وأبو الحسن على بن هرون الريحانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم[٢] . ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعِدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسى هو الذى أخرجها وأعطاها صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقى السجستانى أكبر متفلسفة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا[٣] » . والمظنون أنه أضيفت إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة فى الرياضيات والمنطق و١٧ فى العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ فى الميتافيزيقا والإلهيات و١١ فى التصوف والتنجيم والسحر. وهى مغموسة فى الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسطاطاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها نُتَفٌ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد عَزَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبى سليمان المنطقى السجستانى فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردَّها عليه قائلاً : « تعبوا وما أغنوا . . وحاموا وما وَردوا » . ويردّ أبو سليمان على نظريتهم فى وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلاً سنلخصه فى الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعيات ومنطق وموسيقى[٤])

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة فى كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا فى هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدى المختفى أن العصابة التى اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطىء حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدى المختفى ، ولكنهم كانوا أكثر إيغالا فى التشيع إذ كانوا يعتنقون المذهب الإسماعيلى ، يدل على ذلك مثل قولهم فى أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيتِ الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبِّرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم . . إن هو إلا علم إلهى وتنزيل ربانى ، تنزل به

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٥ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٤ .
(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .
(٤) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته فى أرضه»[١] . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم فى طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقى السجستانى حين يقتبس نَصًّا من الرسائل لأبى سليمان المقدسى يقتبس له النص الذى رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم فى أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . والمرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . والمرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهى . والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهى مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عيانا . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم فى كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذاكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون فى العراق وسط أصحاب المذهب الإمامى الاثنى عشرى ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعى كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم فى بغداد ، إذ يحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لاحدهم ، وهو زيد بن رفاعة . وينقل مناقشة طويلة بين أبى سليمان المقدسى والحريرى فى وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هيأ لهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه ، وكان يتخذ أحيانا لنفسه منهم وزيرا أو نائبا ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة[٢] . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسى وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان فى بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هـــــذه الرسائل – كما مر بنا – إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة فى مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة فى بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبى سليمان[٣] المنطقى السجستانى ، الذى نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد فى شبابه ، ولزم يحيى بن عدى وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرعان

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٤/١٠٣ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ٤/١٤٢ .

(٣) انظر فى أبى سليمان المنطقى القفطى ص ٢٨٢ والإمتاع والمؤانسة فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وكذلك المقابسات ، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٢٧ والفهرست ص ٣٨٣ وبروكلمان ص ١٥١ ومقدمة عبد الرحمن بدوى لصوان الحكمة .

ما عُرف فضله وتألق نجمه ، وكان دميم الخلقة وبه وضَحٌ ظاهر فلزم داره ، وتحوَّلت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمثقفون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا مختلفى المشارب ، فمنهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف ، مثل الطبيب المجوسى المعروف بفيروز[١] وأبى إسحق[٢] الصابئ الكاتب وابن زرعه[٣] النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح النوشجانى وأبى محمد العروضى المتفلسفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل المنجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفا . يقول أبو حيان : « وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة[٤] » . وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعيات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلقى كل فيلسوف بدلوه ، ثم يُرَدّ الرأى النهائى إلى أبى سليمان ، فيسمعه الجميع خاشعين مُكْبرين ، وبلسانهم يقول له فيروز : « عَيْنُ الله عليك أيها السيد ، فوالله ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك ، ولا نظفر بقوت النفس إلا على لسانك ، ولا نعلم يقينا أنا لا نحسن شيئا إلا إذا فاتحناك ، ولا يجمل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك ، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتى بها على هذه الطلاوة والحسن ، أمتع الله الأرواح برؤيتك ، والعقول بهدايتك[٥] » . ولأبى حيان التوحيدى يَدٌ لا تجحد ، لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس « المقابسات » وهى تَعْنى مجالس أبى سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصرِّح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجها فى صورتها المكتوبة[٦] ، وينبغى أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً « بلُكْنة ناشئة من العجمة[٧] » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

---

(١) المقابسات (طبع بغداد) ص ٤٢٧ .

(٢) المقابسات ص ٢٧٢ .

(٣) المقابسات ص ٢٤٢ وهنا أيضا يذكر أن عيسى ابن على بن عيسى كان حاضراً .

(٤) المقابسات ص ٥٧ وقد توقف أبو حيان فى هذا الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليعرف بهم (انظر فهرسيهما) .

(٥) المقابسات ص ٤٢٩ .

(٦) انظر المقابستين : الثانية والرابعة .

(٧) الإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ .

آخر ، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطبيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يخرم حرفاً من كلام أبي سليمان ! [١] . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن على بن عيسى وأبي الحسن العامرى وغيرهما .

ومنتدى ثان ببغداد لم يكن عاما مثل المنتدى السابق ، فقد كان خاصا بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلا بداره ، هو ابن سَعْدان الذى وزر لصمصام الدولة فى سنة ٣٧٣ ولم يكد يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانتا سنتين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرْعة النصرانى المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبي الوفاء الرياضى الفلكى المهندس وبهرام بن أردشير المجوسى وابن عبيد وأبي بكر القومسى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه [٢] . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلا : «والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل [٣] . وكان أبو الوفاء قريبا من ابن سعدان فوصله بأبي حيان التوحيدى ، ليعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة فى عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسنا ، وأخذ يُلْقى عليه فى ليال متصلة أسئلة فى مختلف فروع الفكر واللغه والأدب ، ويتلقى من أبي حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث فى مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، ويروى له أحيانا أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة فى بغداد . وبحق يقول القفطى عن الكتاب إنه «كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص فى كل لُجَّة» [٤] .

ولم يَرْوِ أبو حيان فى الكتاب الذى يقع فى ثلاث مجلدات كل الليالى التى قضاها محاورا مناقشا فى منتدى ابن سعدان ، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبي الوفاء المهندس ، ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبي الوفاء فى

---

(١) قارن المقابسة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر فى هؤلاء الجلساء الصداقة والصديق لأبي حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وراجع النجوم الزاهرة ٤/١٢٥ .

(٣) الصداقة والصديق ص ٨٣ .

(٤) القفطى ص ٢٨٢ .

حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسوَّدات هذه الليالى ، حتى إذا رأى إهداءها لأبى الوفاء عُنى أحياناً بتقويم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام المنقوص ، ومع سبكها بناصع اللفظ[١] وما عُرف من ميله فى كتابته إلى الأزدواج .

وكان وراء هذين المنتديين الفلسفيين العلميين منتديات كثيرة فى دور العلماء والمتفلسفة مثل دار يحيى بن عدى وفى المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابور بن أردشير . ونذكر نفرا من الرياضيين والفلكيين فى القرن الرابع الهجرى لندل على النهضة العلمية حينئذ ، وأول من نقف عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم[٢] المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد الدولة يرعاه واشتهر بزيجه الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره وَيْجَن[٣] بن رُستم الكوهى وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء[٤] محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى صديق أبى حيان التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ فى وصف كتبه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع » . ويقول عنه ألدوميلى : « كان أحد المترجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو كذلك عالم أصيل رفيع المنزلة ، ويقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ، والمسائل الهندسية التى عالجها بخبرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين » .

وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبى على الحسن[٥] بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة ثلاثة وأربعين كتابا فى الفلسفة والعلم الطبيعى وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢ .

(٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .

(٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١ وبروكلمان ٢١٩/٤ وألدوميلى ص ٢١٢ .

(٤) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧ وابن خلكان ١٦٧/٥ والوافى بالوفيات للصفدى ١ / ٢٠٩ وتتمة البيهقى ٧٦ وبروكلمان ٤ / ٢٢٢ وألدوميلى ص ٢١١ ، ٢١٥ .

(٥) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميلى ص ٢٠٦ وما به من مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

والهندسة ، وهو يُعَدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه « المناظير» فى البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيرا عميقا فى كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديما إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره فى كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك ألدوميلى . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمى بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه فى النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبى أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسطاطاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس فى الطب . وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر . وكان يقتات من نَسْخه سنويًّا أقليدسَ والمجسطىَّ ، ويضيف إليهما القفطى كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسى إنشاء البيمارستانات فى بغداد ، ومن البيمارستانات المهمة التى أنشئت فى القرن الرابع الهجرى البيمارستان العضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه فى الجانب الغربى لبغداد وأنفق عليه أموالا عظيمة ، ويقول ابن خلكان : « ليس فى الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيَّن به أربعة وعشرين طبيبا رتَّبهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومى وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجرائحى وأبو يعقوب الأهوازى وابن مندويه »[١] .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية فى القرن الرابع اطردت فى القرنين التاليين إذ يلقانا بهما متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون فى كتابى القفطى وابن أبى أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله[٢] بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطى « فيلسوف فاضل . . اعتنى بشرح الكتب القديمة فى المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطاطاليس وبشرح كتب جالينوس فى الطب ، ويقال إنه بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بُطْلان[٣] النصرانى المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا فى الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقى الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، ونشبت بينهما مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

---

(١) انظر القفطى ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ . وراجع ابن خلكان ٥٤/٤ .

(٢) القفطى ص ٢٢٣ .

(٣) القفطى ص ٢٩٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥ وألدوميلى ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية فى عصر النهضة . ومن الأطباء النابهين بعده أبو الحسن سعيد[١] بن هبة الله طبيب الخليفتين المقتدى والمستظهر ، وكان لايزال على قيد الحياة فى سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفى سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير فى الطب صنفه للمقتدى ، سماه المغنى فى تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى[٢] بن جزْلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان . وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأنبه الأطباء فى القرن السادس هبة[٣] الله بن التلميذ النصرانى المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتفى ، ويقول ألدوميلى إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهى صفة تشمل أطباء العراق بعامة بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيمارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيمارستان ووصفه بقوله : إنه « على دجلة وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية »[٤] .

وتمضى الحركة العلمية والفلسفية فى نشاطها بالعراق إلى أن يكتسحه قُطْعان المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى . إذ قَوَّضوا صرحها فى بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنبه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثير الدين الأبهرى[٥] الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر فى علم الهيئة ورسالة فى الإسطرلاب وشرح لإيساغوجى وكتاب هداية الحكمة فى المنطق والطبيعيات والإلهيات . ويَضْعُف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ فى الضعف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، ويلقانا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبى القاسم محمد بن أحمد السماوى[٦] العراق الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة فى الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب فى زراعة الذهب ، وممن نلتقى بهم فى القرن التاسع الهجرى بدر

---

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٢ وألدوميلى ص ٢٤٢ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٣ والقفطى ٣٦٥ وألدوميلى ص ٢٤١ ، ٢٥٣ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ والقفطى ص ٣٤٠ وألدوميلى ص ٣٢١ .

(٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

(٥) راجع فيه ابن خلكان ٥ / ٣١٣ فى ترجمة كمال الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وبروكلمان (فى الطبعة الألمانية) ١ / ٤٦٤ .

(٦) انظر ألدوميلى ص ٣٠٨ .

الدين محمد سبط المارْديني [١] المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة فى الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل فى الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولابد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم فى السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحُكْم والسياسة ، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف فى السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للماوردى [٢] أبى الحسن على بن محمد البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيا ، وتولى القضاء فى بلدان كثيرة بالعراق ، وهو فى كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية فى النظم الإسلامية ، وبذلك يصبح الكتاب فى سياسة الحكم الإسلامى ، وهو يستهله بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة فى سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفىء والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر فى الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسى الإصطخرى [٣] الكرخى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ويبدو أنه عاش طويلاً فى بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخى ، وله كتاب جغرافى سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها وسُهوبها وجبالها ، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التى بثها أبو زيد البلخى فى كتابه المعروف بهذا الاسم . ولابن حوقل البغدادى [٤] معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخرى . وكان شيعيا إسماعيليا ، واستغله الفاطميون فى الدعوة لهم على مايظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزءامن الهند .

(١) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/٣٥٧ .

(٢) انظره فى ابن خلكان ٣/٢٨٢ والمنتظم ٨/١٩٩ وطبقات الشافعية ٥/٢٦٧ وتاريخ بغداد ١٢/١٠٢ ومعجم الأدباء ١٥/٥٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٣) انظره فى إصطخر بمعجم ياقوت وفى دائرة المعارف الإسلامية . وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ١/١٩٩ .

(٤) راجعه فى ألدوميلى ص ٢٢٧ وفى دائرة المعارف الإسلامية . وفى كراتشكوفسكى ١/٢٠٠ .

وأهم جغرافى ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموى البغدادى [١] المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو فى ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر فى مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لايترك كتابا فى المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكتف بتلك الكتب التى كوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها ، وألمَّ فى كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتابًا وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالها حتى عصره . وله أيضا فى الجغرافيا كتاب ثان بعنوان « المشترك وضعا المختلف صقعا » . ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار لعبد اللطيف [٢] البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوَّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وتُرجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبع مرارا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة فى المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالى أن نفصل بين مباحثهما ، إذ يكثر أن ينهض اللغوى بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوى بمباحث لغوية . ويلقانا ابن [٣] دُرُسْتَوَيه المتوفى سنة ٣٤٧ معنيا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن ناقيا والعكبرى وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادى بعدهما ذيلا . وتكثر العناية بكتاب لغوى ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافى [٤] الحسن بن عبد الله

---

(١) انظره فى النجوم الزاهرة ٦/٢٨٣ وشذرات الذهب ٥/١٢١ وابن خلكان ٦/١٢٧ ومرآة الجنان ٤/٥٩ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ١/٣٣٥ .

(٢) ترجم له ابن أبى أصيبعة فى طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها عن كتاب له ، تحدث فيه عن سيرته ، وقد لخصته هذه السيرة فى كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٩/٤٢٨ وإنباه الرواة ٢/١١٣ وابن خلكان ٣/٤٤ .

(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٧/٣٤١ ومعجم الأدباء ٨/١٤٥ وإنباه الرواة ١/٣١٣ ونزهة الألباء لابن الأنبارى (طبعة أبى الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ واللباب ١/٥٨٦ وشذرات الذهب ٣/٦٥ ومرآة الجنان ٢/٣٩٠ . وابن خلكان ٢/٧٨ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهده ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته ، منها مختصر يسمى المنخل لأبى القاسم الوزير المغربى المار ذكره ، ومنها تهذيب للخطيب التبريزى[١] يحيى بن على المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة لعلى[٢] بن حمزة البصرى المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بنزول المتنبى عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة، وهو فى كتابه يصحح الأغلاط التى وردت فى طائفة من كتب لغوية مهمة ، هى نوادر أبى زياد الأعرابى ، ونوادر أبى عمرو الشيبانى ، وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبى ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبى عليه من نقد بالفسطاط . وتكثر الكتابة فى الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جنى فى القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر فى العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جنى لديوان المتنبى مشهور وقد سماه الفَسْر ، ويعد التبريزى المذكور آنفا – وكان يدرس الأدب فى المدرسة النظامية – من أكثر شراح الشعر آثارا ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالمفضليات للمفضل الضبى ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حماسة أبى تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبى العلاء المعرى . وله شروح موجزة على لامية العرب للشَّنْفَرى ، وقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزى وضع شرحا مطولا لديوان أبى تمام فإن العكبرى أبا البقاء فى القرن السادس الهجرى وضع شرحا مطولا بدوره للمتنبى . وعُنى ابن المستوفى الإربلى[٣] المتوفى سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديوانى أبى تمام والمتنبى سماه النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام فى عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريرى مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها فى القرن السادس بالعراق شرح القاسم[٤] بن القاسم الواسطى ، وشرح العكبرى النحوى شارح المتنبى ، ولابن

(١) انظره فى معجم الأدباء ٧/٢٨٦ وبغية الوعاة والأنساب للسمعانى الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص ٣٧٢ والمنتظم ٩/١٦١ ومرآة الجنان ٣/١٧٣ والشذرات ٤/٥ وابن خلكان ٦/١٩١ ودمية القصر ١/٢٣٧ .

(٢) راجعه فى بغية الوعاة ومعجم الأدباء ١٣/٢٠٨ .

(٣) انظره فى ابن خلكان ٤/١٤٧ وبغية الوعاة والشذرات ٥/١٨٦ . وعبر الذهبى ٥/١٥٥ .

(٤) راجعه فى إنباه الرواة ٣/٣١ وقد ذكر القفطى أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبى اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المنصف لابن وكيع .

الخشاب [١] البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحث لغوى فى أغلاط الحريرى فى مقاماته ورد عليه ابن برى العالم المصرى اللغوى المتوفى سنة ٥٨٢ بمبحث لغوى دقيق انتصر فيه للحريرى ، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريرى نشر مكتبة ومطبعة الحلبى بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبى طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولابن الساعى [٢] على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريرى : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط فى خمس مجلدات . وقد عنى محمود [٣] بن أحمد الزنجانى المتوفَّى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهرى سماه «ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح» . ومنذ السيرافى تكثر الشروح لشواهد الشعر فى كتب النحو على غرار كتابه فى شرح شواهد سيبويه ، بل إننا نجد عبد القادر [٤] البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ يحوِّل شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، وبحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر فى مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب .ومما ذكره من كتب اللغة : الجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهرى والعباب للصَّاغانى والقاموس المحيط للفيروزابادى والياقوت للمطرِّز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنبارى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغير مؤلف والفروق لأبى هلال العسكرى وخلق الإنسان للزجاج والمعرَّب للجواليقى والمثلثات لابن السيد البطليوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطى .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب فى اللغة بأى بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربى واحد ، وكل ماينتجه بلد

---

(١) انظره فى معجم الأدباء ١٢/٤٧ وإنباه الرواة ٢/٩٩ وبغية الوعاة والمنتظم ١٠/٢٣٨ والنجوم الزاهرة ٦/٦٥ وابن خلكان ٣/١٠٢ .

(٢) انظر فيه تذكرة الحفاظ ٤ / ٢٥٠ وشذرات الذهب ٥ / ٣٤٣ ومقدمة مصطفى جواد لكتاب نساء الخلفاء (طبع دار المعارف) وما ذكره من مصادر .

(٣) انظره فى الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع بغداد) ص ٢٣٧ وطبقات الشافعية للسبكى ٨ / ٣٦٨ والنجوم الزاهرة ٧ / ٦٨ وتاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف .

(٤) انظره فى خلاصة الأثر للمحبى ٢/٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية فى كلمة البغدادى .

فى علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادى منهم من عاش فى أقصى الشرق من العالم العربى . ومنهم من عاش فى أقصى الغرب منه أو فى أواسطه . ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أى بلد إنتاجا مستقلا هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يموج بإنتاج البلدان الأخرى فى كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط . بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تشْرح شروحا عدة . نذكر من ذلك رَشْف الضَّرب فى شرح لامية العرب للشيخ عبد الله[1] السويدى المتوفى سنه ١١٧٤ للهجرة وشرح بانت سعاد للسيد[2] عبد الله الفخرى المتوفى سنه ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن[3] القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح فى رسائل مختلفة ، ولشهاب الدين الألوسى[4] المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريرى باسم كشف الطُّرَّة عن الغرة وللشيخ إبراهيم[5] الحيدرى المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبى تمام ومقامات الحريرى وسقط الزند لأبى العلاء . وكأن النشاط اللغوى لم يتوقف بالعراق فى حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب بحوثهم فى لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى ينقوّها من أوضار العامية التى أخذت تنتشر بقوة منذ مطالع العصر . ونجد القاضى أبا الحسن عليا المؤيدى يضع سنة ٤٢٠ كتاباً فى الأمثال البغدادية العامية[6] وأهم من ذلك كتاب الحريرى : « دُرّة الغواص فى أوهام الخواص » وهو فى أغلاط المثقفين . ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى[7] المتوفى سنة ٥٣٩ تكملة أو تتمة سماها « التكملة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المعرّب »

---

(١) راجعه فى المسك الأذفر فى نشر مزايا القرن ثانى عشر والثالث عشر لمحمود شكرى الألوسى (طبع بغداد) ص ٦٠ .

(٢) راجعه فى تاريخ الأدب العربى فى العراق للعزاوى ٢ : ٣٤ .

(٣) العزاوى ٢ : ٥٧ ومختصر المحبى ومحاضرة ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩ .

(٤) انظر فى المشهور أعلام العراق لمحمد بهجت الأثرى والأدب العربية فى القرن التاسع عشر للشيخو ١ : ٨٩ ونهضة العراق لمحمد مهدى البصير ٢١٩ ومقدمة تفسيره والعزاوى ٢ : ٥٢ وفى مواضع مختلفة .

(٥) العزاوى ٢ : ٥٨ .

(٦) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الترجمة العربية) ٥ : ١٦٠ وقد نشر ماسينيون كتابه فى القاهرة سنة ١٩١١ .

(٧) انظر ترجمته فى إنباه الرواة ٣ : ٣٣٥ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٠٥ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ١ : ٢٤٤ وابن خلكان ٥ : ٣٤٢ ومرآة الجنان ٣ : ٢٧١ وبغية الوعاة وشذرات الذهب ٤ : ١٢٧

وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية . ولم يؤلف فى موضوعه أكبر منه ، وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجرى [١] هبة الله بن على المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام ، وهو مطبوع فى حيدر آباد . وله كتاب الأمالى وهو أيضاً مطبوع فى حيدر آباد ، وهو أكثر تآليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون [٢] ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو فى الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنَّف على بن أبى الفرج البصرى فى القرن السابع الهجرى الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأُعدَّتْ للطبع . .

ولعل نشاط بغداد فى النحو لهذا العصر كان أكبر من نشاطها فى اللغة ، فقد استحدثت فيه المذهب النحوى البغدادى على نحو ماصورنا ذلك فى كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصرى والكوفى آراءهم . ويضيفون إلى ماينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوى بغدادى نلقاه فى القرن الرابع الهجرى هو ابن جنى [٣] المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيما ، فصنع فيه شرحا نفيسا لكتاب التصريف للمازنى سماه المنصف ، وهو فى ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحا وافيا ، وأضاف إليها كثيرا من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضا فى الصرف كتاب التصريف الملوكى ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء ، وفيه وضَع للصرف قضاياه الكلية ، وذكر فيه ماأسماه الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هى أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك فى معنى واحد ، فكلمة قول . ومتقلباتها : قلو ، ووقل ، وولق ، ولقو ، ولوق ، جميعها تفيد أوتعنى الخفة والحركة . وبجانب وَضْعه لأصول علم الصرف نراه فى النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعا ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعته لأستاذه

(١) نظره فى نزهة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدباء ١٩ / ٢٨٢وإنباه الرواة ٣ / ٣٥٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٦ / ٤٥ ومرآة الجنان ٣ / ٢٧٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٣٢ .

(٢) انظر بركلمان ٥ / ١٦٩ .

(٣) انظر فى ترجمة ابن جنى نزهة الألبا ص ٣٣٢ وتاريخ بغداد ١١ / ٣١١ ومعجم الأدباء ١٢ / ٨١ وإنباه الرواة ٢ / ٣٣٥ وابن خلكان ٣ / ٢٤٦ ويتيمة الدهر ١ / ١٠٨ ومرآة الجنان ٢ / ٤٤٥ والشذرات ٣ / ١٤٠ وروضات الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

أبى على الفارسى ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهبه النحوى ، وكل ذلك مصوَّر فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيبويه والرمَّانى وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنهما لا ينتظمان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعدادهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليلاته وتخريجاته النحوية .

ويُعنَى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، ويشرحه ابن جنى ، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبرى ، ويعنون بشرح اللمع فى النحو لابن جنى ، وممن شرحوه عمر بن ثابت الثمانينى [1] تلميذه ، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومن شراحه العكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنبارى [2] المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تتلمذ بدوره لأبى على الفارسى ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عنى بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألَّف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان ينتخب آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسى أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء العكبرى [3] الضرير ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبى على الفارسى وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى أبيات الإيضاح » و « تلخيص أبيات الشعر لأبى على الفارسى » وتلخيص التنبيه لابن جنى و « المنتخب من كتاب المحتسب فى

(١) راجع فى الثمانينى معجم الأدباء ١٦/٥٧ وابن خلكان ٣/٤٤٣ ونزهة الألباء ص ٣٥٠ ونكت الهميان ص ٢٢٠ والشذرات ٣/٢٦٩ .

(٢) انظر فى ابن الأنبارى إنباه الرواة ٢/١٦٩ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣/١٣٩ والسبكى ٧/١٥٥ ومرآة الجنان ٣/٤٠٨ والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثى (طبع بغداد) ص ٢٠٩ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٨ .

(٣) راجعه فى إنباه الرواة ٢/١١٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣/١٠٠ والشذرات ٥/٦٧ وابن الدبيثى ص ١٤٠ ونكت الهميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٩ .

شواذ القراءات » لابن جنى أيضا ، ومن كتبه « إملاء مامنّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن » . وله كتاب اللباب فى علل البناء والإعراب . وقد حققه بعض الطلاب وأعده للنشر . وله أيضاً إعراب مشكل الحديث . ذيَّل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزى . ومن كتبه المسائل الخلافية فى النحو وعُنى بنشره بعض المستشرقين . وقد صورنا فى كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعوِّل على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين . ومن نحاة بغداد فى القرن السابع الهجرى عز الدين عبد الوهاب[(١)] ابن إبراهيم الزنجانى وله كتاب باسم تصريف الزنجانى أوالعزى أومبادىء التصريف ، وقد طارت شهرته فى الآفاق وصُنعت له شروح وحواش كثيرة ، عدَّدها بروكلمان فى تاريخه ، ومنها طائفة كبيرة فى دار الكتب المصرية . وقد طُبع فى روما مع ترجمته إلى اللاتينية ، وطُبع فى الآستانة والقاهرة ودلهى بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوى فى لكنو . ومن نحاة القرن السابع أيضا جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أياز[(٢)] البغدادى المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو فى المدرسة المستنصرية ، وله كتاب القواعد فى النحو ، ولاتوجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ فى حياته ، وله أيضا المحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف فى النحو . ومن النحاة المهمين ببغداد بدر الدين[(٣)] الإربلى المتوفى سنه ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية . وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على مغنى اللبيب[(٤)] . ويَكْثُر الشارحون للألفية ولقَطْرابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثُر من يصنعون الحواشى . ونكتفى بذكر مثال هو إبراهيم الحيدرى المار ذكره فى النشاط اللغوى ، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطى وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجاربردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندى على حاشية عبد الغفور اللارى على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطى[(٥)] .

وكان للنشاط فى الدراسات البلاغية دوره فى العصر ، ومن خير [illegible] كتاب

---

(١) انظره فى [illegible] وعده للسيوطى وفى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/١٧٩ .

(٢) راجعه فى بغية الوعاة للسيوطى وبروكلمان ٥/١٨٥ والعزاوى ١/١٦١

(٣) هدية العارفين ٢/٥[illegible] والعزاوى [illegible] ١٢١ .

(٤) [illegible] الأذفر ص ٦٠ والعزاوى ٢/١٢٨ .

(٥) هدية العارفين ١/٤٢ والعزاوى ٢/١٤٢ .

النكت فى إعجاز القرآن للرمانى[١] شارح كتاب سيبويه ، كما أسلفنا ، وقد توفى سنة ٣٨٤ للهجرة ، ويهمنا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها فى ثلاث طبقات[٢] : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم فى البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هى الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان ، ويفصِّل القول فى كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسطاً تفريعاته . وللحاتمى[٣] أبى على محمد بن الحسن البغدادى المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب فى البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيق اعتمادا واسعا فى كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحى والتصدير والتسهيم والترصيع والتوشيح والمماثلة والمبالغة والالتفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلانى الذى سنتحدث عنه فى علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » ويهمنا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإردف ثم المماثلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة ، فالمساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإيغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتتميم ، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك[٤]. وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصناعتين فى كثير من مصطلحاته ، ونلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما فى مجازات القرآن ، والثانى فى المجازات النبوية ، وهو يعرض فى الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقا لترتيبها فى آياتها مبينا مافيها من استعارة أومجاز أوكناية . وبالمثل علَّق فى الكتاب الثانى على نحو ثلاثمائة وستين حديثا ، والكتابان بحث تطبيقى عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حُرِّرت حتى زمنه[٥] .

وعُنيت طائفة من البلاغيين بالكتابة فى بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبى عون المتوفى سنة ٣٢٢ وقد نشره عبد المعيد خان فى سلسلة جب التذكارية

(١) انظر فى على بن عيسى الرمانى تاريخ بغداد ١٢/١٦/ومعجم الأدباء ١٤/٧٣ وإنباه الرواة ٢/٢٩٤ والأنساب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ٣/١٠٩ .

(٢) انظر تحليل هذا الكتاب فى كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣ .

(٣) انظر فى الحاتمى تاريخ بغداد ٢/٢١٤ وإنباه الرواة ٣/١٠٣ والأنساب ١٤٨ وابن خلكان ٤/٣٦٢ ومعجم الأدباء ١٨/١٥٤ والوافى بالوفيات ٢/٣٤٣ والشذرات ٣/١٢٩ . واليتيمة ٣/١٠٣

(٤) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .

(٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

بلندن ، وهو فى التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب «الجمان فى تشبيهات القرآن» لابن ناقيا[١] البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ والعناية بالتشبيه قديمة نجدها فى كتابات الجاحظ وابن المعتز[٢] . وقد نُشر كتاب الجمان فى دمشق تحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة فى تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير فى القرآن ذكره ، ودائماً يذكر الأشعار التى اقتبسته ، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : «وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معانى القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً» .

ويُعنَى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة فى الجناس ، مثل شُمَيِّم[٣] الحلّىّ المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس فى التجنيس كما جاء فى معجم الأدباء ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس فى غرر التجنيس .

ولانلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بنى كتابه على مقدمة[٤] ومقالتين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعانى والبديع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التى لابد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعانى يتحدث فى أولها عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يُفْهَمَ البيت أفهاما كثيرة . وفى الفصل الثانى يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . وتحسُّ صلته فى هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات ومايداخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

---

(١) راجع فى عبد الله بن محمد بن ناقيا إنباه الرواة ٢/١٣٣ وابن خلكان ٣/٩٨ والجواهر المضية ١/٢٨٣ وميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ ولسان الميزان ٣/٣٨٤ والخريدة (قسم العراق) ١/١٤٢ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر فى على بن الحسن بن عنتر الملقب بشميم الحلى معجم الأدباء ١٣/٥٠ وإنباه الرواة ٢/٢٤٣ وبغية الوعاة والشذرات ٥/٤ وميزان الاعتدال ٢/٨٢ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ١/٢٨٣ وابن خلكان ٣/٣٣٩ .

(٤) راجع فى تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٣ .

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطْنب فى بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا فى وضوح بابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يتأثر به فى حديثه عن صفات الحسن فى الألفاظ المركبة مفصلا القول فى السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم مالايلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . وينتقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسرقات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض ، ولجَّ فى بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاقتباس ، وفتح فصلا للسرقات ، وختم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ونلتقى فى أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب فى علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخى [1] سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القُرَب فى صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفى سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ فى سنة وفاته ولا يُعْرَفُ موطنه . وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة فى مباحثه . وواضح من عنوان الكتاب [2] أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا فى ذلك ابن الأثير . وهو يفتح الكتاب ببحث منطق فى التصور والتصديق وفى القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض فى مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعانى ويبتدئ حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفى والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر فى كل ذلك بابن الأثير فى كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزوينى صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره فى مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته فى بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سنرجىء الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر فى التوخى بروكلمان ٥/١٨٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة (طبع إستانبول) ١/ ١٣٧ وكتابه نشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٦ .

وتُسهم العراق فى نظم القصائد المعروفة بالبديعيات . وعلى [١] بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه . فقد نظم قصيدة فى مديح بعض معاصريه وضمَّن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذى يُطْوى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة فى مديح الرسول ﷺ على شاكلة بردة البوصيرى مفتتحاً لها بقوله :

إن جئتَ سَلْعاً فسَلْ عن جيرة العَلَمِ واقْرَ السلامَ على عُرْبٍ بذِى سَلَمِ

وهى مائة وخمسة وأربعون بيتا من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسنا من محسنات البديع ، وهى تضم نحو مائة وخمسين محسنا ، إذ جعل للجناس فيها اثنى عشر لونا صورها فى الأبيات الخمسة الأولى ، وواضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَم وسلم . وقد سماها الكافية البديعية فى المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية . ويذكر فى مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتابا قبل تأليفه لبديعيته وأنه زاد على ماقرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صفى الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة ، ويستمر العلماء فى صنع هذه التلخيصات والشروح لافى أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً فى زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب فى الاستعارة ولمحمد أمين الخطيب العمرى بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدرى كتاب فى البديع ولشهاب الدين الألوسى أبى الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عصام .

وإذا تركنا النشاط البلاغى إلى النشاط النقدى وجدناه على أتمه فى مطالع هذا العصر ، وأول مايلقانا منه كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى [٢] الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب [٣] بالحديث عن مذهبين مختلفين فى فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبى تمام أصحاب المعانى والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحترى الذين يتمسكون بعمود الشعر العربى

---

(١) انظر فى ترجمة على بن عثمان كتاب فوات الوفيات (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٢/١١٨ والنجوم الزاهرة ٧/٢٣٦ .

(٢) انظر فى الآمدى معجم الأدباء ٨/٧٥ وإنباه الرواة ١/٢٨٥ وما به من مراجع وروضيات الجنات ٢١٩ .

(٣) راجع فى تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٨ .

وتقاليده مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه . ويمضى الآمدى فيصور جدلا بين أصحاب المذهبين فى فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أبى تمام وردود أصحاب البحترى عليهم ، ومن أطرف مااحتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدى بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائهما ، وهو يتحيز فى الموازنة للبحترى تحيزاً واضحا .

وكان يعاصره المرزبانى [1] محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراسانى الأصل بغدادى المولد والموطن ، وله كتاب الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لنقد اللغويين من القرن الثانى حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث ، متخللا ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقيه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبى نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبى تمام ، وقد دوَّن فيه رسالة ابن المعتز فى بيان محاسن شعر أبى تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطر بُلِّى المتوفى سنة ٣١٩ فى رسالته التى كتبها فى أخطاء أبى تمام ، وكذلك الآمدى فى موازنته السالفة . وفى رأينا أن هذه الرسالة هى التى دفعت الصولى للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبى تمام . وحينما يتحدث الآمدى عن أنصار أبى تمام إنما يريده . ونلتقى بناقد مهم للمتنبى سبق أن عرضنا له فى حديثنا عن النشاط البلاغى وهو أبو على الحاتمى البغدادى الذى تصدى للشاعر الكبير ينقده نقدا مجحفا فى كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيرا من حِكَمه إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبى على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفى الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمى فيه رسالة ثانية أوكتاب ثان هو الموضحة [2] وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبى ، ويقول إن معاركه نشبت بينه وبين المتنبى حين لقيه ، ويصور فى الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت فى عدة مجالس ؛ كان أولها فى الدار التى نزل فيها المتنبى ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمى الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيَّد فيه ، وهو

---

(١) انظر فى المرزبانى تاريخ بغداد ٣/١٣٥ ومعجم الأدباء ١٨/٢٦٨ وابن خلكان ٤/٣٥٤ والشذرات ٣/١١١ وميزان الاعتدال ٣/٦٧٢ والوافى بالوفيات ٤/٢٣ وعبر الذهبى ٣/٢٧ ولسان الميزان ٥/٢٣٦ .

(٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره فى بيروت .

يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعانى أبى تمام والبحترى . والتجنى على المتنبي واضح فى الكتاب ، فلم يكن يمسك فى يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه فى كتبهم ودراساتهم . ويُشْغَل كثيرون بالمتنبي فى جميع البلدان العربية ، وسنرى فى إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا فى العراق ابن الدهان [1] سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة فى سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أب تمام الطائى ، وعُنِى ببيان سرقاته من البحترى الطائى أيضاً ، ولذلك قد تسمى فى بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك فى الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعانى الطائية ، عنى فيها بالرد على ابن الدهان فى مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبى تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبى تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان فى مبحثه ، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبى تمام مثلما أخذ ، وأنه قد يَعُدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، وبتأمله يلاحَظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبى تمام والبحترى أبياتاً ليست لهم ، وأنه أطال مقدمة كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير فى الكتاب – شأنه فى كتاب المثل السائر– نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبى الحديد رسالة فى نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهى إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أى نقد آخر ، ورد عليه كثيرون منتصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجارى المتوفى سنة ٦٤٠ فى كتابه « نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر » .

ولصفى الدين الحلى المار ذكره فى البديعيات كتاب نفيس فى الأشعار العامية الشعبية سماه « العاطل الحالى والمرخص الغالى فى الأزجال والموالى » عرض فيه فنون الشعر العامى من الزجل والمواليا والقوما والكان وكان موضحا نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها ومايجوز فيها وما لايجوز . ويلاحِظ أنه سبقت الأزجال فى الأندلس قصائدُ عامية ذات قافية واحدة

(١) انظر فى ابن الدهان معجم الأدباء ٢١٩/١١ خلكان ٣٨٢/٢ والشذرات ٢٢٣/٤ .
ونكت الهميان ص ١٥٨ وإنباه الرواة ٤٧/٢ وابن

كقصائد « الشعر الفصيح » كانت تسمى بالقصائد الزجلية ، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافى على شاكلة الموشح . وهو يقوم فى ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصرى فى ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض صفى الدين الحلى لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوى ذاهبا إلى أنه لما قلد الأندلسيين فى موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر فى نظمه استخدام اللفظ العامى ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة — فى رأيه — من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردَّها الصفدى فى شرحه للامية العجم الذى سماه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم فى النقد بالعراق بعد كتاب العاطل الحالى ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى نشاط العراق فى روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هى قراءات الأئمة : نافع فى المدينة وعبد الله ابن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، وشاعت فى العالم الإسلامى إلى اليوم مدوَّنة بكتابه السبعة الذى مضى العلماء منذ عصره يتدارسونه[1] وألَّف كتابا ثانيا فى شواذ القراءات عنى بالتعليق عليه ابن جنى مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لاتقل عن القراءات السبع التى دوَّنها بكتابه قراءة أبى جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمى البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادى المتوفى سنة ٢٢٩ . وبضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشرا وتؤلف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هى قراءة ابن مُحَيْصِن المكى معاصر ابن كثير وقراءة الأعمش الكوفى وقراءة اليزيدى البصرى تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصرى . وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة . وتنشط العراق فى التأليف فيها ، تارة يؤلف العلماء فى السبع وتارة يؤلفون فى العشر أو فى الأربع عشرة . فمن ذلك كتاب الجامع فى القراءات العشر لعلى بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادى فى إحدى عشرة قراءة وقد توفى

(١) حققتُ ونشرت فى دار المعارف هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد فى القراءات العشر لأبى نصر البغدادى المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار فى القراءات العشر لابن شيطا البغدادى المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن على بن سوار البغدادى المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا فى القراءات العشر وكتاب المهذب فى القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الخياط البغدادى المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد فى العشر للواسطى المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح فى القراءات العشر لابن خيرون البغدادى المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج فى القراءات الثمان لسبط الخياط البغدادى المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية فى القراءات الست ، وكتاب المصباح فى القراءات العشر لأبى الكرم البغدادى المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكنز فى القراءات العشر لأبى محمد عبد الله الواسطى المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهى قصيدة فى القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورويها ، وكذلك لمعاصره أبى الحسن على الديوانى الواسطى المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة مماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزرى فى كتابه « النشر [1] فى القراءات العشر » وترجم لأصحابها فى كتابه غاية النهاية فى طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط فى التفسير الفقهى والاعتزالى والسنى والشيعى ، وقلما عنيت بالتفسير الصوفى ، وكأنما تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبى عبد الرحمن السلمى والقشيرى ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربى . وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهى ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص [2] أحمد بن على المتوفى سنة ٣٧٠ فى كتابه أحكام القرآن . وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيا [3] الهرّاسى المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إيرانى ، ولكنهما نزلا بغداد ، واستقرا فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم ، ثم أصبح مدرسا للفقه الحنفى وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفى فيها ، وأما الكيا الهراسى فقد درس فى نيسابور وعلم فى إحدى قراها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد حتى توفى ، وكان فى خدمته بها الشاعر الغزّى المشهور . وأُلفت فى أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين . وقد ذكرنا فى العصر

(١) انظر فى الكتب السالفة وأصحابها النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (طبع القاهرة) ٧٤/١ - ٩٥

(٢) راجع فى ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية رقم ١١ وبستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوى ١٢٦ و« النجوم الزاهرة » ١٣٨/٤ والفوائد البهية ص ٢٧

(٣) انظر فى الكيا الهراسى المنتظم ١٦٧/٩ وتبيين كذب المفترى ٢٨٨ والسبكى ٢٣١/٧ وعبر الذهبى ٨/٤ والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٢٨٦/٣

٨٤/١ وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلو بغا

العباسى الثانى تفسيرات المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ، ويستمر نشاط المعتزلة فى تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة فى أوائله ، ويلقانا فيه تفسير لعلى بن عيسى الرمانى المعتزلى ، ومر بنا أنه توفى سنة ٣٨٤ وكان يقول : تفسيرى بستان يُجتَنى منه ما يشتهى ، وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيرا ؟ فقال : وهل ترك لنا على بن عيسى شيئا[١] ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشرى سبيله وزاد عليه»[٢] . ومن هذا الاتجاه الاعتزالى كتاب التفسير الكبير لعبد السلام[٣] بن محمد القزوينى نزيل بغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعانى إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات فى سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفا فى مشهد أبى حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف فى تفسير القرآن .

ويظل التفسير السنى مزدهرا بعد تفسير الطبرى الذى عرضنا له فى العصر العباسى الثانى ، ومن التفسيرات السنية المهمة فى العصر تفسير النقاش[٤] البغدادى محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق فى القراءات والتفسير ، وقد سمى تفسيره شفاء الصدور ، وطوّف من مصر إلى ما وراء النهر فى لقاء المشايخ ولكنهم ضعّفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبله . ولأبى الحسن الماوردى إمام الشافعية فى عصره المتوفى كما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير . ويلقانا تفسير سنى لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو لأحمد[٥] بن محمد الغزالى أخى الإمام الغزالى مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠ . واشتهر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذى سماه «زاد المسير فى علم التفسير» . ومن أصحاب التفاسير السنية الرَّسْعَنى[٦] عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطى : «صنف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيده» . ومنهم علاء الدين على بن محمد البغدادى صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن[٧] المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو ملىء

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١١٥
(٢) النجوم الزاهرة ٤/١٦٨
(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة ٥/١٥٦ وتذكرة الحفاظ ٤/٨ ولسان الميزان ٤/١١ والسبكى ٥/١٢١ والشذرات ٣/٣٨٥ .
(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٢/٢٠١ ومعجم الأدباء ١٨/١٤٦ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٣/١١٥ وطبقات القراء لابن الجزرى ٢/١١٩ وميزان الاعتدال ٣/٥٢١ وابن خلكان ٤/٢٩٨ والسبكى ٣/١٤٥ .
(٥) انظره فى المنتظم ٩/٢٦٠ وميزان الاعتدال ١/١٥٠ وابن خلكان ١/٩٧ والسبكى ٦/٦٠ والشذرات ٤/٦٠ ومرآة الجنان ٣/٢٢٤ ولسان الميزان ١/٢٩٣ .
(٦) راجعه فى طبقات المفسرين للسيوطى رقم ٥٦
(٧) انظره فى طبقات المفسرين للداودى والدرر الكامنة ٣/١٧١

بالإسرائيليات . ومن خير التفاسير السنية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه فى القرن الماضى ، وهو كتاب « روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى » لشهاب الدين محمود الألوسى الذى مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م . وهو يعنى فى تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحديث النبوى . ويُعْنى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير فى القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى . وهو يخوض مثل الفخر فى مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عُنى عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى فى تفسيره ، وخاصة فى مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد فى مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يثيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى فى تفسيره . ومع أنه كان حنفياً . والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية ، نراه فى تفسيره أشعريا . وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى فى نصرته للمذهب الأشعرى . ويذكر ابن عربى مراراً فى تفسيره ، ويتضح تأثره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه فى كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغلغل فى معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْر مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتمادى فيها ، وكان حرياً أن يخلى تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تامًّا .

وقد ذكرنا فى العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر فى ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقا لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى [1] على بن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو فى جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وبتفسيره الذى سماه « حقائق التأويل فى متشابه التنزيل » وقد نشر منه فى بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين : أولهما البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل . وهو احتكام وصَلَ تفسيرَه بتفاسير المعتزلة ،

---

(١) انظره فى طبقات المفسرين للداودى ١/٣٨٥ مطبوع بالنجف .
والذريعة إلى تصانيف الشيعة لأغابزرك ٤/٣٠٢ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة . وتتردد فى التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبى على الجبّائى وعلى بن عيسى الرمّانى والقاضى عبد الجبار . واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى[١] فى كتابه « الأمالى » إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤولها على طريقة المعتزلة ، وفى الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعِدّان للتفسير بالرأى والعقل فى بيئة الإمامية ، واستضاء بعملها فى هذا الاتجاه الطوسى[٢] أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفى سنة ٤٦٠ واشتهر بتفسير للذكر الحكيم سماه « التبيان فى تفسير القرآن » وهو مطبوع بالنجف فى عشرة أجزاء ، وقد عُنى فى تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى فى تفسيره عن الصحابة من أمثال أبى بكر الصديق وعمر . وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبى ، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة فى عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبرى السنى هادياً له فى تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالى لابن بابويه القمى وأمالى ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة . وعلى ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضى عُنى بالتفسير العقلى وفسح للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلص فى تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها فى مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم فى الإمام وأنه معصوم وحجة الله فى أرضه وصاحب علم باطنى متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطَّبْرسى فى تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبحفّاظه طوال هذا العصر ، وأول من نلقاه من أعلامه البَزّاز محمد[٣] بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالى فى الحديث وهى مجموعة يمتاز سندها بقلة رواته ، وكان يعاصره الآجرى[٤] أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

---

(١) راجع فى الشريف المرتضى تاريخ بغداد ٤٠٢/١٢ وتتمة اليتيمة ٥٣/١ وابن خلكان ٣١٣/٣ ومعجم الأدباء ١٤٦/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٩/٢ وما به من مراجع

(٢) انظر فى الطوسى المنتظم ٢٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ٨٢/٥ ولسان الميزان ١٣٥/٥ وروضات الجنات ٥٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظره فى تذكرة الحفاظ ٩٦/٣ وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٢١ . وبروكلمان ٢٠٧/٣ .

(٤) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد ٢٠٣/٢ والسبكى ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩٢/٤ والشذرات ٣٥/٣ والمنتظم ٥٥/٧ والوافى ٣٧٣/٢ .

ويخلفها الدارقُطْنى [١] على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دار قطن ، وله كتاب السنن» وقد نُشر قديماً فى دهلى ، واشتهر الدارقطنى بأنه تعقب فى كتابه الاستدراكات وجوه الضعف فى بعض أحاديث رواها الشيخان : البخارى ومسلم ، وله كتاب فى الضعفاء والمتروكين من الرواة «وكتاب فى العلل ، وآخر فى غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذى [٢] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب فى رجال البخارى ، وجاء بعده اللالكائى [٣] هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب فى رجال الصحيحين وكتاب فى السنن ، وكان يعاصره البَرْقانى [٤] أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة فى الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخارى ومسلم . ثم يلقانا الخطيب [٥] البغدادى أحمد بن على بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان فى وقته حافظ المشرق الذى لا يدافَع ، وله مصنفات كثيرة فى الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونوه . وكان يعاصره ابن ماكولا [٦] المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشتبهة فى أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هو فى غاية الإفادة فى رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان . ومن محدِّثى القرن السادس ابن الجوزى عبد الرحمن ابن على المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات فى الحديث من أهمها كتابه «الموضوعات» فى أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعة . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن [٧] الأثير الجزرى الموصلى المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول فى أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية فى

---

(١) انظره فى تاريخ بغداد ١٢ / ٣٤ والمنتظم ٧ / ١٨٣ أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ١ / ٥٥٨ والسبكى ٣/٤٦٢ وتذكرة الحفاظ ٣/١٨٦ وابن خلكان ٣/٢٩٧ وعبر الذهبى ٣/٢٨ واللباب ١/٤٠٤ .

(٢) انظره فى تذكرة الحفاظ ٣/٢١٦ وتاريخ بغداد ٤/٤٣٤ وبروكلمان ٣/٢٢٨ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/٢٦٧ وتاريخ بغداد ١٤/٧٠

(٤) تذكرة الحفاظ ٣/٢٥٩ وتاريخ بغداد ٤/٣٧٣ والسبكى ٤/٤٧ والمنتظم ٨/٧٩ .

(٥) انظره فى تذكرة الحفاظ ٣/٣١٢ وتهذيب ابن عساكر ١/٣٩٨ ومعجم الأدباء ٤/١٣ والمنتظم ٨/٢٦٥ والعبر ٣/٢٥٣ والشذرات ٣/٣١١ والسبكى ٤/٢٩ وابن خلكان ١/٩٢ وكتاب الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد ومحدثها ليوسف العش .

(٦) راجعه فى تذكرة الحفاظ ٤/١ والمنتظم ٩/٥ ومعجم الأدباء ١٥/١٠٢ وابن خلكان ٣/٣٠٥ وعبر الذهبى ٣/٣١٧ والشذرات ٢/٣١٨ وفوات الوفيات ٢/١٨٥ .

(٧) انظره فى تذكرة الحفاظ ٤/١٨٥ وابن خلكان ٤/١٤١ ومعجم الأدباء ١٧/٧١ وإنباه الرواة ٣/٢٥٧ ومرآة الجنان ٤/١١ والسبكى ٨/٣٦٦ والعبر ٥/١٩ وروضات الجنات ٥٨٥ .

غريب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة [١] محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا فى مجلدين . وله كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد . وكان يعاصره ابن الدُّبَيْثِى وابن النجار وسنعرض لهما فى حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفُوطِىّ المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معهما . وجاء بعده صفى الدين الحسين [٢] بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرمانى شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقى الدين [٣] يحيى البغدادى المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيحى البخارى ومسلم .

وحتى الآن لم نعرض لكتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأمالى لابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمالى للمفيد [٤] محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماليه مطبوعة بالنجف ، وهى تشتمل على اثنين وأربعين مجلساً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودائماً كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المطهر [٥] الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحِلّة ، ولازم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية - كما يقول ابن حجر - فمهر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشريعة ، ردَّ عليه فيها ابن تيمية وأظهر - كما يقول ابن حجر - أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقه والفقهاء ، وأول مذهب فقهى نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حنفى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القدورى [٦] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

---

(١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ٤/١٩٧ والعبر ٥/١١٧ وابن خلكان ٤/٣٩٢ والشذرات ٥/١٣٢ .

(٢) انظره فى الدرر الكامنة ٢/١٣٩ والشذرات ١/١٦٣ .

(٣) راجعه فى الضوء اللامع ١٠/٢٥ والعزاوى ١/٦٧

(٤) انظره فى كتاب الرجال للنجاشى ٢٨٣ ومنهج المقال للاسترابادى ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣ وبروكلمان ٣/٣٤٩ .

(٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار الكتب الحديثة) ٢/١٥٨ والعزاوى ١/١٦٦ .

(٦) انظره فى تاريخ بغداد ٤/٣٧٧ وابن خلكان ١/٧٨ والعبر ٣/١٦٤ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر المضية ١/٩٣ والفوائد البهية للكنوى ١٧ وبروكلمان ٣/٢٦٩ .

يدرس إلى اليوم وقد طُبع طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الدبوسى [١] عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر فى الخلاف ، وهو مطبوع فى القاهرة ، ويقال إنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبى يوسف فى عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف فى بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفى فى العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التى بناها المستوفى الخوارزمى فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى للحنفية [٢] عند مشهد الإمام أبى حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى إيواناً فيه المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر [٣] الدين بن الساعاتى المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه فى مجلدين . ومنهم أبو البركات [٤] النسفى ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصنفات مختلفة فى الفقه الحنفى ، من أهمها الكنز وله شهرة كبيرة فى تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة ونلتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة فى الفقه الحنفى .

وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكى ، وأكثر من كانوا يعتنقون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكيا كبيراً بغداديا أو عراقيا مثل الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائى مالكيا مثله [٥] . وممن وفدوا على العراق أبو العباس المالكى أحمد [٦] بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب فى المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً فى أن يظل حيًّا بالعراق . ويظل له شيوخه وفقهاؤه .

وكان الفقه الشافعى أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكى والحنفى ، ومن أهم فقهائه أبو [٧] حامد المَرْوَرُّوذى أستاذ أبى حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقانا بعده فى بغداد أبو حامد الإسفرايينى [٨] المتوفى سنة ٤٠٦ وله فى

---

(١) راجع فى الدبوسى الفوائد البهية ٢٥ والجواهر المضية ٢/٢٥٢ وابن خلكان ٣/٤٨ وتاج التراجم رقم ١٠٧ وبروكلمان ٣/٢٧٣ .

(٢) ابن خلكان ٥/٤١٤ .

(٣) انظره فى تاج التراجم ص ٦ والجواهر المضية ١/٨٠ والفوائد البهية ١٦ . وبروكلمان ٦/٣٥٧ .

(٤) ستذكر مصادر ترجمته فى القسم الخاص بإيران

(٥) السبكى ٣/٣٦٨

(٦) المنتظم ٩/١٧٥

(٧) انظره فى السبكى ٣/١٢ وابن خلكان ١/٦٩ والعبر ٢/٣٢٦ والشذرات ٣/٤٠

(٨) راجعه فى السبكى ٤/٦١ وتاريخ بغداد ٤/٣٦٨ وابن خلكان ١/٧٢ والعبر ٣/٩٢ والشذرات ٣/١٧٨

المذهب التعليقة الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابهى فقهاء المذهب ببغداد المحَامِلِى [١] الضَّبِّى المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب فى الفقه الشافعى واختصره أبو زرْعة العراقى المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصرى زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ . ومر بنا حديث عن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درَّس المذهب فى البصرة وبغداد ، وله فى الفقه كتابان هما الحاوى والإقناع ونشر له فى العراق كتاب أدب القاضى فى مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً فى التفسير . ويزدهر المذهب الشافعى فى العراق منذ تأسيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين فى البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة . وجعل التدريس فيها خاصا بفقهاء الشافعية لا فى الفقه وحده بل فى مختلف العلوم ، وقد أسند تدريس المذهب فى نظامية بغداد لأبى إسحق الشيرازى أحد أئمته المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء فى المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقيا لا فى بغداد وحدها بل أيضاً فى البصرة والموصل . ويُعْنَى السبكى فى طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية فى العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفى بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشَّهْرزورى [٢] قاضى القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فَضْلان [٣] محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس [٤] الموصلى عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ . وله التعجيز : مختصر الوجيز والتنبيه فى اختصار التنبيه ومختصر المحصول فى أصول الفقه . ويقول السبكى : «كان آية فى القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته فى الفقه كتاب سماه « نهاية النفاسة » قلَّ أن رأيت مثله فى عذوبة منطقه وكثرة المعنى وصغر الحجم . وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدورى » أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعى ناشطا فى العراق بفضل مدارسه وفقهائه . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية فى ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلى كان أكثر المذاهب الفقهية أشياعاً وأنصاراً فى بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل ، وقد جعله موقفه من الدولة فى إنكار الفكرة القائلة

---

(١) انظره فى السبكى ٤٨/٤ وتاريخ بغداد ٣٧٢/٤ والعبر ١١٩/٣ والمنتظم ١٧/٨ وابن خلكان ٧٤/١ والشذرات ٢٠٢/٣ .

(٢) راجعه فى السبكى ١٨٥/٦ والعبر ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١١٢/٦

(٣) انظره فى السبكى ١٠٧/٨ والشذرات ١٤٦/٥ والعبر ١٢٦/٥

(٤) راجعه فى السبكى ١٩١/٨ والشذرات ٣٣٢/٥ ومرآة الجنان ١٧١/٤ وذيل مرآة الزمان ١٤/٣ .

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبياً ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكفي أن نمثّل بطائفة من فقهائه ، وممن يلقانا منهم في مطالع العصر ابن [١] بطة عبيد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن نابهيهم في القرن الخامس الشريف أبو [٢] جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة في عصره ، وله رءوس المسائل وشرح المذهب ، وجزء في أدب الفقه . ومنهم في القرن السادس أبو الخطاب محفوظ [٣] الكلوذاني المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية في الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل ، وكان يعاصره يحيى [٤] بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنّف مناقب الإمام أحمد بن حنبل في مجلد كبير ، وكان يعاصرهما أبو [٥] الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ ، وله في الفقه الحنبلي كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتي ، في عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جداً ، يقال إنه كان في مائتي مجلد ، وهو في الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالسه . وقال الحافظ الذهبي في تاريخه : لم يصنّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبي يَعْلَى الفرّاء [٦] المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة في الفقه والأصول ، منها المجموع في الفقه ، ورءوس المسائل ، والمفردات في الفقه ، وأيضاً المفردات في أصول الفقه . ونلتقي في أواخر القرن السادس بعلم حنبلي كبير هو ابن الجوزي . وظل الفقه الحنبلي مزدهراً في العراق طوال العصر ، ومن فقهائه ابن [٧] البرزالي الحنبلي المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفي [٨] الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه في المستنصرية . وممن درسوا فيها ابن العاقولي [٩] محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . وبجانب هذه المدرسة كان

(١) انظره في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٧١ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٤٦ .

(٢) راجعه في ديل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسي بدمشق) ١/ ٢٠

(٣) انظره في ابن رجب ١/ ١٤٣ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢١٢

(٤) راجعه في ابن رجب ١/ ١٥٤ وابن خلكان ٦/ ١٦٨ والشذرات ٤/ ٣٢ والعبر ٤/ ٢٥ ومرآة الجنان ٣/ ٢٠٢ .

(٥) انظره في ابن رجب ١/ ١٧١ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢١٩

(٦) راجعه في ابن رجب ١/ ٢١٢

(٧) الدرر الكامنة ٥/ ٣ والشذرات ٦/ ١١١ .

(٨) ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ٣/ ٣٢ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة وقال : أخذ عنه عمر بن علي معبد الحنابلة

(٩) نظره في الشذرات ٦/ ٣٥١ والدرر الكامنة ٤/ ٣١٤ ورجع ابن حجر في إنباء الغمر بأبناء العمر (طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/ ٥٠٤ حيث يقول إنه انتهت إليه رياسة المذهب الحنبلي ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً .

كثير من الحنابلة يدرسون فى جامع المنصور وفى بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهرى فى الفقه الذى تحدثنا عنه فى العصر العباسى الثانى لا يزال له أنصار فى القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأى فى الفقه ، وتبعه كثيرون فى المائتين الرابعة والخامسة فى الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إذاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرته ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدى[١] محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا نزال نسمع فى العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهرى حتى أوائل القرن السابع الهجرى ، إذ نجد من معتنقيه أبا سليمان[٢] الداودى الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبرى مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهيا يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهرى ، ومع ذلك نجد من أتباعه فى أواخر القرن الرابع الهجرى المعافى[٣] بن زكريا النهروانى المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان فى ترجمته : إنه كان للطبرى أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعافى المذكور . وعلى كل حال لم يعش هذا المذهب الفقهى طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهرى فى بغداد ، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل .

وكان الفقه الشيعى يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهان . فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول فى القرن الرابع الهجرى ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع[٤] الكافى فى فقه الزيدية لأبى عبد الله محمد بن على الحسنى المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدى هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذ استغرق الكوفةَ وبغداد المذهبُ الإمامى عند الشيعة ، وكأن نشاط الفقه الزيدى انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامى فيأخذ فى النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكلينى[٥] الرازى محمد بن يعقوب كتابه الكافى فى علم الدين ، وقد توفى ببغداد

(١) انظره فى ابن خلكان ٤/٢٨٢ وتذكرة الحفاظ ٤/١٧ والمنتظم ٩/٩٦ والصلة لابن بشكوال (طبع القاهرة) ٥٣٠ والوافى ٤/٣١٧ .

(٢) راجعه فى طبقات القراء ١/٢٧٨ .

(٣) انظره فى ابن خلكان ٥/٢٢١ وما به من مراجع

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (طبع دار المعارف) ٣/٣٣٤

(٥) راجعه فى الأنساب ٤٨٦ والرجال للنجاشى ٢٦٦ وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤة البحرين ليوسف البحرانى ٣١٤ وبروكلمان ٣/٣٣٩

سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن [١] بابويه القمى نزيل بغداد الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه فى تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقنعة فى أسس التشريع ، وهى مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسى فى تبريز : وللطوسى كما مر بنا فى الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهى ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً فى استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية ، وأحاديثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه فى الفقه « المبسوط » وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية فى مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذه الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله فى العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله فى عشرة أبواب ، وزاد عليه فى القرن الثامن المطهر الحلى المار ذكره بابا سماه الباب الحادى عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبى .

ومرَّ بنا فى العصر العباسى الثانى حديث مفصل عن الاعتزال وأئمته وانبثاق مذهب الأشعرى منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه فى هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية فى خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامى يعتنقونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أخص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية فى بغداد ، أما فى خراسان فقد اعتنقت كثرتهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدى السمرقندى المتوفى سنة ٣٣٣ وهو يقترب فى عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعرى معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار فى خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعرى يقول – كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى – إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريدها والله يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعرى فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدى ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعرى . ويروى السبكى أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشبيه [٢] أخذاً

---

(١) انظره عند النجاشى ٢٧٦ وفى لؤلؤة البحرين ٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وبروكلمان ٣/٣٤٣ ومابه من مراجع

(٢) السبكى ٣/٣٦٥ - ٣٧٤ وما بعدها .

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشرى ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلانى [١] محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحجة والبرهنة على آرائه [٢] . ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتمهيد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسْبَغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسْبَغ عليه ووافقه الباقلانى [٣] . وكان الأشعرى كما مر بنا آنفاً ينفى الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً ، بينما كان الماتريدى يجعله اختياراً ، ويفهم من كلام الباقلانى أنه يأخذ برأى الماتريدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكى : « ولإمام الحرمين والغزالى فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلانى والأشعرى ويدنو كل الدنو من الاعتزال » أو بعبارة أدق من رأى الماتريدى [٤] . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لابد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلانى ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : « يجب شكر المنعم عقلاً » [٥] إذ كان ينبغى أن يقولوا : يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويكفى أن نعد منهم أبا حامد الإسفرايينى وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالى ، وعدَّ منهم السبكى فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى [٦] . وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة فى

(١) راجع فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ وابن خلكان ٢٦٩/٤ والأنساب للسمعانى ٦١ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢١٧ والمنتظم ٢٦٥/٧ والوافى ١٧٧/٣ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧ والشذرات ١٦٨/٣ وترجمة القاضى عياض له الملحقة بكتابه « التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة » تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) مما كان يذهب إليه الباقلانى إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن خلدون : فصل علم الكلام) وانظر فى بقية آراء الباقلانى الملل والنحل للشهرستانى : الفصل الخاص بالأشعرية .

(٣) السبكى ٣ / ٣٨٤ .

(٤) السبكى ٣٨٦/٣ وانظر الملل والنحل للشهرستانى (تحقيق محمد سيد كيلانى نشر مكتبة مصطفى الحلبى) ٩٧/١

(٥) السبكى ٢٠٢/٣

(٦) السبكى ٣٦٨/٣ ومابعدها

عقيدتهم السنية ، وهى منبثة فى تراجم فقهائهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومرَّ بنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله إيضاح الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشيعة مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى – كما أسلفنا – كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتابا الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسى .

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ماهو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ماهو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وسنقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو[1] شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذيل له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم لابن[2] الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يبتدئ بأول الخليقة حتى آخر أيام المستضىء بالله العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم مَنْ قضى نحبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يُعْنَى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها السياسى والاجتماعى تصوراً بيِّناً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز[3] الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المنتظم ٩/٩٠ والخريدة قسم العراق ١/٧٧ والوافى ٣/٣ والسبكى ٤/١٣٦ وابن خلكان ٥/١٣٤ .

(٢) ترجم ابن الجوزى لنفسه فى سياق رسالة نصح فيها ابنه سماها : « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى مطبوعة ، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب وابن خلكان ٣/١٤٠ والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٩٧ والشذرات ٤/٣٢٩ وغير الذهبى ٤/٢٩٧ وكتابنا الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٣) راجعه فى ابن خلكان ٣/٣٤٨ وغير الذهبى ٥/١٢٠ والشذرات ٥/١٣٧ والسبكى ٨/٢٩٩ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨١ .

ابن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب فى التاريخ الإسلامى حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسْهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجرَّده من السند ، ودعاه ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد فى تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسِّه التاريخى الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدَّى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامى ، بل خدمة رائعة . وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهومطبوع . وخلفه سبط [1] ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» وهو كتاب ضخم كان يقع فى أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لمناكير الأخبار ، ويقول الذهبى إنه يترفض فى تاريخه وقد نشر منه بحيدر آباد قسمان من الجزء الثامن طُبعا بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبرى [2] المتوفى سنة ٦٨٥ كتبه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى [3] المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة فى السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى فى أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى فى تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنى على السجع ، وبذلك سنَّ مؤلفه أبو إسحق الصابئ المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بالتحليل التاريخى كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده العماد الأصبهانى كتاباً فى تاريخ السلاجقة يسميه نصْرة الفطرة وسنترجم له فى مصر . ويعنى ابن الساعى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدولة العباسية ويؤلف فى ذلك تاريخاً جامعا ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشر له الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه « نساء الخلفاء » ويمكن أن نلحق بهذه

---

(١) انظره فى ابن خلكان فى ترجمة جده ٣ / ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٩ والشذرات ٥ / ٢٦٦ والجواهر المضية ٢ / ٤٣٠ والفوائد البهية ٩٦ .

(٢) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه فى بيروت وبروكلمان ٦ / ١٤٩ .

(٣) انظر فيه العراوى ١ / ٢٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر .

الكتب الخاصة بالتاريخ السياسى كتاب الوزراء لهلال[١] بن المحسن الصابىء المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طُبعت منه قطعة فى مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر ، وهى حافلة بالأخبار السياسية والأجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسى ترجمة بهاء[٢] الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حِطّين وقد سماها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو موصلى تعلم فى بغداد وعين معيداً بها فى المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء فى بعض مدن الشام حتى توفى سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وعُنى بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها فى مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولابن النجار[٣] المؤرخ المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه فى ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدمياطى باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفى دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن[٤] الدُّبَيْثى المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعانى ترجم فيه للمتوفّين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبى انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثى نشر منه الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد . ولابن المستوفى المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبى تاريخ إربل .

وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزرى المار ذكره ، وهو معجم أيجدى لتراجمهم ، وهو مطبوع فى خمسة مجلدات . وله كتاب اللبـــاب مختصر كتاب الأنساب للسمعانى وهو مطبوع . وألف الدارقطنى كتاباً سماه « المختلف والمؤتلف » وقد جمع بينه الخطيب البغدادى

(١) راجعه فى تاريخ بغداد ١٤ / ٧٦ والمنتظم ١٧٦/٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٩ وابن خلكان ١٠١/٦ .

(٢) انظره فى ابن خلكان ٨٤/٧ وعبر الذهبى ١٣٢/٥ ومرآة الجنان ٨٢/٤ والشذرات ١٥٨/٥ والسبكى ٣٦٠/٨ .

(٣) راجعه فى تذكرة الحفاظ ٢١٢/٤ ومعجم الأدباء ٤٩/١٩ والشذرات ٢٢٦/٥ والسبكى ٩٨/٨ والفوات ٥٢٢/٢

(٤) انظره فى ابن خلكان ٣٩٤/٤ وعبر الذهبى ١٥٤/٥ والسبكى ٦١/٨ والوافى ١٠٢/٣ وطبقات القراء ١٤٥/٢ والشذرات ١٨٥/٥ ومرآة الجنان ٩٥/٤ .

وبين مشتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليهما وسمى كتابه « المؤتنف تكملة المختلف » . ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا – كما مر بنا – وزاد على هذا الكتاب زيادات فى كتاب مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلاً لم يقصِّر فيه . ولابن النجار كتب مختلفة فى الرجال ، منها : المؤتلف والمختلف ؛ والمتفق والمفترق فى نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنَّة الناظرين فى معرفة التابعين . وللزين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبى فى الرجال .

وهناك كتب كثيرة وُضعت فى تراجم العلماء والأدباء من كل صنف . ومن الكتب الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع ، ونتحدث الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع فى الفقهاء بعامة مثل كتاب أبى إسحق الشيرازى أول المدرسين فى نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم فى كتابه إلى فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهرى . وأول من وضع كتاباً فى طبقات الشافعية أبو حفص عمر المطوعى المتوفى سنة ٤٤٠ سماه « المُذْهب فى فقهاء المذهب » ، ووضع فيهم أبو النجيب السهروردى البغدادى المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيهم إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش [١] الموصلى المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر السبكى فى طبقات الشافعية . واهتم الحنابلة بالكتابة فى تراجم فقهائهم ، من ذلك كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى الفراء الذى مرَّ ذكره ، ووضع له ابن رجب [٢] البغدادى ذيلاً طويلاً فى مجلدين ، وقد توفى سنة ٧٩٥ . وعُنى الشيعة بالكتابة فى رجالهم ، وكتاب الرجال للنجاشى أحمد بن على المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

ووضع أحمد بن بختيار الواسطى المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً [٣] فى القضاة . ومما وضع فى اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى وكتاب نزهة الألباء لابن الأنبارى وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى المار ذكره وهو فى تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له فى طهران حققه الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان وأطبائهم وقسم خاص بالمشتغلين بالفلسفة فى الإسلام ، وهو كتاب نفيس .

ووُضعت فى الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء

---

(١) انظره فى السبكى ١٣١/٨ والشذرات ٢٦٧/٥ والعبر ٢٢١/٥

(٢) راجعه فى الدرر لابن حجر ٤٢٨/٢

(٣) انظره فى معجم الأدباء ٢٣١/٢ والسبكى ١٤/٦

للآمدى المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمرزبانى معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالى [١] الحظيرى المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً فى الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزى ويتيمة الدهر للثعالبى سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر فى ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده العماد الأصبهانى دائرة معارف كبرى فى شعراء العالم العربى سماها خريدة القصر وجريدة العصر . ويشتهر ابن الجوزى بكتابه فى الصوفية « صفة الصفوة » وهو مطبوع فى أربع مجلدات وله كتاب فى الأذكياء وكتاب فى الظرفاء وكتاب فى أخبار المغفلين . ولياقوت الحموى البغدادى المار ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع فى عشرين جزءاً ذكر فيه أُخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار [٢] الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب فى شعراء القرن السابع سماه « عقود الجمان فى شعراء الزمان . ولابن الفُوَطىّ المار ذكره [٣] المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة فى شعراء المائة السابعة ، وله معجم رتّبه حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ — ٤) ونشر القاسمى فى لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن [٤] خلكان الموصلى المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه « وفيات الأعيان » وهو غاية فى الدقة والتحرى .

---

(١) راجعه فى معجم الأدباء ١١ / ١٩٤ وابن خلكان ٢/٣٦٦ وخريدة القصر (قسم العراق) ٤/١/٢٨ .

(٢) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

(٣) انظره فى تذكرة الحفاظ ٤ / ٢٧٤ والدرر الكامنة ٢ / ٤٧٤ .

(٤) انظر فى ابن خلكان العبر ٥ / ٣٣٤ وفوات الوفيات ١ / ١٠٠ والسبكى ٨ / ٣٣ والشذرات ٥ / ٣٧١ ومرآة الجنان ٤ / ١٩٣ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٥٣ والوافى بالوفيات ٧ / ٣٠٨ وحسن المحاضرة للسيوطى (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ١ / ٥٥٥ والمدارس فى تاريخ المدارس للتميمى (طبع دمشق) ١ / ١٩١ وروضات الجنات ٨٧ وراجع ترجمته فى أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التى مرت بنا فى العصرين العباسى الأول والثانى حادة طوال القرن الرابع الهجرى ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكفى للدلالة على ذلك أن يبزغ فى مستهله المتنبى وفى أواخره الشريف الرضى ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم الثعالبى فى كتابة اليتيمة ثم فى تتمة اليتيمة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم فى العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هيأت له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمراء بنى بويه ولاتهم ووزرائهم للشعراء . فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم فى مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أدبية .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد رُوى أن معزَّ الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى [١] ، غير أن الجيل التالى له أكبَّ على الثقافة العربية والتمرين على نظم الشعر ، حتى لنجد صاحب اليتيمة يسلك فى الشعراء ابنه بَخْتيار ، غير أمراء آخرين من بيته [٢] . وكان وزراء بنى بويه يتنافسون فى جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادى شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزرائهم فى العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غيثا مدراراً للشعراء . فأكبُّوا على مجالسه يمدحونه ، ويفيض كتاب اليتيمة بمدائحه . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب اليتيمة لمدَّاحه باباً مستقلا عَرض فيه خمس عشرة مدحة لنابهيهم [٣] . وكان يرعى

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ٢٨/١

(٢) اليتيمة ٢١٦/٢

(٣) اليتيمة ١٢٤/٣

الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفى مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولابد أن نلاحظ أن الثعالبى فاته الوقوف عند بعض الشعراء ، فى عصر البويهيين مثل مُدْرك بن محمد الشيبانى ، وهو بدوى قدم بغداد فى شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها فى غلام نصرانى فى نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً[1] ، ومثل أبى الحسن محمد بن عمر الأنبارى ، وكان صديقاً للوزير ابن بقية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بمرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتتمتها موجه ثانية من الشعراء فى كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبى بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً فى الحديث عن بعض الشعراء . وفى الحق أن شعراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل فى عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية فى العصر السلجوقى ، لسبب طبيعى ، وهو أنها إنما ألمَّت بأوائله . ومرَّ بنا فى الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألْب أَرْسلان نظام الملك (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى فى مواضع كثيرة بعض مدائحه . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصْرة أهل العصر للحظيرى نُشر لسدَّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره وَمَن تقدمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحرى بنا أن نذكر صُرَّدُر (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد فى أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة فى ابن خلكان . وبالمثل ابن السرَّاج البغدادى (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥٠٠ وله ترجمة فى ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العماد الأصبهانى بكتابه الخريدة التى ترجم فيها لشعراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة . وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا فى الثغرة التى تحدثنا عنها آنفاً . والمنشور حتى الآن من قسم العراق فى الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهى تتناول فى العراق ، كما فى الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

---

(١) معجم الأدباء ١٣٥/١٩ وانظر تاريخ بغداد للخطيب ٢٧٣/١٢

القرن الخامس . والعماد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية تبتدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة فى بغداد والعراق . والعماد يفتتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) حتى المستضىء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضىء ، منشداً ما عرفه من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح ، ويُمْضى فى ذلك كله نحو مائتى صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيّص بَيْص ترجمة ضافية ، يَعْرض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف فى نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويُتْبعه فى المجلد الثانى بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم على بن أفلح وابن الهبَّارية وابن جَلَّينا . ونلتقى فى المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً ، لعل أهمهم الحَظِيرى والبَنْدنيجى ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحِلَّة والكوفة وهيت والأنبار .

وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد فى القسم الأول من هذا الكتاب فى تضاعيف حديثنا عن شعراء البدو ، وينتهى المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادى ، وهو ماجن من طراز ابن سُكَّرة وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع فى عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريرى ويحيى بن سعيد بن مارى النصرانى ، وله ستون مقامة حاكى فيها الحريرى ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد ، مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان لابن الشعَّار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسدَّ الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى فى العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصوَّرة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية والتيتمة ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التى تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرَّف على بعض الشعراء النابهين فى تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصبهانى ترجم لهما فى المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراق بالخريدة ، ومثلهما الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩ . وتلقانا فى النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدِىّ البغدادى الصوفى والحاجرى المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرْصَرِىّ وابن أبى الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكتسح التتار بغداد والعراق ، ويجف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شئ من نشاطه فى زمن المغول الإيلخانيين ، ويلقانا ابن رشيد البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التَّلَعْفَرى والواعظ الكوفى البغدادى المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونمضى إلى القرن الثامن ونلتقى بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر فى الدُّرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعرى كبير وسط الديباجى التى أخذت تطبق على الحياة الأدبية فى العراق ونقصد صفى الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحى الواسطى المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة فى الدرر الكامنة ، ومثله على بن الدَّردة المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقى بشاعر مهم فى زمن التركمان ، بين من ترجم لهم السخاوى فى كتابة « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرٌ نابه فى زمن العثمانيين سواء فى دورة حكمهم الأولى أو فى دورة المماليك . وحقا يوجد بعض شعراء عراقيين فى كتب التراجم مثل « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى وكتابة « نفحة الريحانة » ومثل « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى . وممن لمع اسمه فى الدورتين المذكورتين شهاب الدين الموسوى المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط . ومثله الشيخ محمد كاظم الأزرى المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه فى بومباى . وقد يكون من الطريف أن نفرا من الشعراء كانوا يقدِّمون لدواوينهم [١] ، ولكن على كل حال كانوا جميعا نظامين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيق لكلمة شعراء .

٢

رُبَاعِيَّات وتعقيدات وموشحات

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نهض به الشعراء من تجديد فى الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر فى القوافى [٢] ، ولعل أول ما شاع من صوره اللونُ

(١) راجع تاريخ الأدب العربى فى العراق لعباس العزاوى (طبع بغداد) ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ .

(٢) انظر فى ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ ومابعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتَّسع فى الشعر التعليمى منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذى سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطرى كل بيت مع تغيرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذى ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة فى موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه فى أرجوزة مزدوجة ، وتموج المكتبات العربية بهذه المزدوجات فى كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسمطات منذ فواتح العصر العباسى الأول ، وهى قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر فى جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسَّمَّط مشتق من السَّمْط ، وهو قلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور فى المسمَّط الشعرى سلكٌ يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى فى قافية الشطر الأخير . وقد مثَّلنا فى كتاب العصر العباسى الأول بمسمَّطين لأبى نواس يتألف الدور فى أحدهما من أربعة شطور وفى الثانى من خمسة . وتظل المسمطات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعُنى كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخفتها على اللسان ورشاقتها على نحو ما نجد فى هذه الأدوار من مسمَّط [1] أنشده العماد الأصبهانى فى الخريدة لأبى المعالى بن مسلم :

يارِيمُ كم تجنِّى ؟ لِمْ قد صددتَ عنَّا صِلْ عاشقاً معنَّى
بالوَصْلِ ما تَهَنَّا

السَّلْسَبِيلُ رِيقُ والشَّهْدُ والرَّحِيقُ والوَرْدُ والشَّقِيقُ
مِنْ وَجْنَتَيْهِ يُجْنَا

قد غيَّروا ولاموا من شَفَّه السَّقامُ ما ينفع الملامُ
مَنْ فى هواكَ جُنَّا

والدور فى هذا المسمط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذى تدور عليه ، ومثله المسمَّطات ذات الشطور الخمسة وتسمى المخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٣٠٩

والسبعة وتسمَّى المسدَّسات والمسبَّعات . وشاع فى الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل همزية البوصيرى وبُرْدته

وتظهر الرُّباعيَّات مع المسمَّطات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وحماد عجرد وأنها كثرت عند أبى نواس وأبى العتاهية ، وضربنا لها بعض الأمثلة ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلَّف بيتين ، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رُباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثانى والرابع فى القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً فى اليتيمة والدمية والخريدة ، وفى كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومرَّ بنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن على الشيبانى ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدورى فى العربية .

ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يَخُصُّون الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها فى جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرَكُونَ العرب فى استخدامها متخذين لها اسم « دوبيت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مُتَفاعلن فَعُولُنْ فَعْلُنْ » وهو الذى ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مستفعلن مستفعلن » . وتصور ذلك رسالتان[1] فريدتان فى عروض الدوبيت » نشرهما هلال ناجى ببغداد ، وهما لمالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت ، والثانية تعنى بالوزن الثانى ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجى أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس فى القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات من العرب على نحو ما هو معروف عن الخيام فى رباعياته ، وتلقانا فى الخريدة رباعيات كثيرة ، ويترجم العماد فيها لشاعر من موظفى الخلافة العباسية وعملها فى الستينيات من القرن السادس الهجرى ، يسمى أبا المحاسن[2] بن البوشَنْجى ، ويقول إنه كان لَهِجاً بنظم الرباعيات ، ويسوق له طائفة منها فى الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً :

ما أطيبَ ما زارَ بلا ميعادِ يَخْتَالُ كغُصْنِ بانةٍ مَيَّادِ

---

(١) انظر الرسالتين فى العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد .

(٢) انظر ترجمته فى الخريدة ٢ / ٢٥٧ .

ماطَلَّ ، ولابَلَّ غَليلَ الصَّادِى حتى قَرُبَ البَيْنُ ونادى الحادِى

فصاحبته زارته دون موعد ، مختالة بجمالها كغصن متمايل ، ويقول إنها ماطلّت وزارت ، ولابَلَّت غليله المتقد الظامئ للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادى الركب ، فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلّمت حتى ودّعت . ومن رُباعياته الخمرية قوله :

رَقَّتْ وصَفَتْ واسْتَرَقَتْ أَلْبَابَا راحٌ لَبِسَتْ من الضَّنا جِلْبابا
يا بَدْرُ أَدِرْ وعَدِّ عَمَّنْ يَابَى كأساً ، طُرِدَ الهمُّ بها فانْجابا

والرُّباعية فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تنتعش النفس ، كما يقول ، وتطرح عنها بؤس الحياة بما تَعُبُّ من دِنان الخمر وما تجد فى مجلسها من أنس وطرب . ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد الأصبهانى صاحب الخريدة ، ويستهلها بالرباعية التالية :

الوَرْدُ على خَدِّك مَنْ أَنْبَتَهُ والمسك على وَرْدك مَنْ فَتَّتَهُ
والقلب على نَأيك من ثبتهُ اجمعْ شَمْلاً هَوَاك قد شَتَّتَهُ

وهى رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين يجعل صاحبها الخد ورداً حقيقيا ، ويعود فيجعله ناشراً لأريج عطرٍ حوله ، وكأن مسكاً ذُرَّ عليه ونُثر ، ويعجب أن تنأى صاحبته وقلبه لا يزال فى صدره . وإن فؤاده ليتوزع فرقاً ، ويضرع لصاحبته أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يُرَدُّ إليه . ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزى نَيِّفت على عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفى ، فقد كان ابن الجوزى من كبار الوعاظ وكان سنى التصوف ، ومما أنشده :

الحِبُّ يقولُ لا تُشِعْ أسرارى والدمع يسيلُ هاتكا أستارى
والشوق يزيد ، لا على المقدار وَانارىَ ! من هذا الهوى وَانارى

فحبيبه يطلب إليه أن يكتم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً يبكى طالباً الوصال ، ملحاً فى طلبه وفى بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق يلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذى يُضْنى ويسقم والمحب يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية . ومما أنشده

ابن الجوزى فى تلك الرباعيات :

ما أصنع ؟ هكذا جرى المقدورُ　　الجَبْرُ لغيرى وأنا المكسورُ
مأسورُ هوًى متيَّمٌ مهجورُ　　هل يمكن أن يغيِّر المسْطورُ

والرباعية تفيض بيأس محب مهجور ، يقول ما أصنع والحِجاب يقوم بينى وبين محبوبى ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمتثل ويذعن ، وإنه ليأسى أسى عميقاً لنفسه ، فغيره يُجْبَرُ ويوصَلُ وهو يُحْرَمُ ويُبْعَدُ ويُكْسَرُ كزجاج مصدوع لا يُشْعَبُ ، وإنه لأسير هذا الهوى الذى يبرّح به والذى يتعثَّر فى شباكه ، قدرٌ أزلى كُتب عليه ، لا مفرَّ منه ولا مهرب . وابن الجوزى توفِّى سنة ٥٩٧ وتوفى العماد فى نفس السنة ، وفى كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت فى عصرهما وانتشرت انتشاراً واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجرى وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب فى الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب فى الغناء فحسب بل كانت تستعذب أيضاً فى أناشيد المتصوفة بحلقات الذكر ، وقد جمع كامل الشيبى طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدوبيت .

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذى صورناه بالتفصيل فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البديعية فى مذهب التصنيع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر . ومثلنا لذلك باستخدام المتنبى للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء فى هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبى الجوائز الواسطى [١] المتوفى سنة ٤٦٢ :

واحَزَنى مِنْ قولها　　خانَ عهودى ولَهــا
وحقِّ من صـيَّرنى　　وَقْفاً عليها ولها
ما خطرتْ بخاطرى　　إلا كسَتْنى وَلَهـا

ولها فى نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور فى نهاية البيت الثانى ثم جانس بينهما وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد فى نهاية البيت الثالث . وقد يقبل هذا الجناس المعقد فى تلك الأبيات لخفته ، غير أننا لا نكاد نمضى بعد

(١) انظر فى أبى الجوائز ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ بغداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والخريدة ٤/ ١/ ٣٤٣ والمنتظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ٢٣٨/١ .

صاحبه حتى نلتقى بالحسن[1] بن أسد الفارقى المتوفى سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظ العماد الأصبهانى وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها مختوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهى تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظنا أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوُّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً فى مثل قوله :

تُرَاك يا متلفَ جسمى ويا مُكْثِرَ إعلالى وأمراضى
من بعد ما أضْنَيْتَنِى ساخطا علىَّ فى حبك أم راضى

وواضح أن كلمتى « أم راضى » فى البيت الثانى تقابلان أو تجانسان كلمة « أمراضى » فى البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات فى نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم فى القوافى إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول العماد إنه كان يلتزم مالا يلزم فى قوافيه . وفى الحق أن أبا العلاء هو الذى فتح فى لزومياته لمثل هذه الكلف فى الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين فى البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريرى يستلهم صنيعه فى المقامة الحلبية قائلاً :

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثارُها واشكُرْ لمن أعطى ولو سِمْسِمَهْ
والمكرُ مهما اسطعْتَ لا تَأتِهِ لتقتنى السُّؤْدُدَ والمكرُمَهْ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو فى البيت الثانى جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليتها وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعيب وتعقيد فى التماس الجناس . ويخلف الحريرى يحيى بن سلامة الحَصْكَفى نزيل ميَّافارقين المتوفى سنة ٥٥٣ فنراه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله[2] :

أطِعِ الهوى فالعقلُ خازٍ خازمُ والجهلُ يُغْرِى وهْو هازٍ هازمُ

وخاز : قاهر . وهاز : ساخر . ويمضى فى القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر ، إذ حلت محلها

(١) راجع فى الحسن بن أسد الفارقى الخريدة (قسم الشام) ٢/٤١٦ ومعجم الأدباء ٨/٥٤ وإنباه الرواة ١/٢٢٩ .
(٢) الخريدة (قسم الشام) ٢/٥٠٨ .
١/٢٩٤ وشذرات الذهب ٣/٣٨ وفوات الوفيات

حاجة إلى التعقيد فى الشعر وتصعيب ممراته التى يسلكها الشاعر إلى صناعته .

وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صفى الدين الحلى وجدنا الشعراء دائماً يعقّدون فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء . وقد أكثروا من الاقتباس ، وحَسَنٌ أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم ، مما يعطل الحركة الوجدانية فى أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم فى هذا اللون أن نجد شاعراً يسمى الشيخ أحمد النجفى الحِلِّىّ المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائحه شطوراً من ألفية ابن مالك المشهورة فى النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر[١] .

ودفع المتنبى الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » فصورنا تصنعه لبعض مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية ولألفاظ اللغة الغريبة وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو العلاء يكثر فى لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء فى العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد فى الأساليب بما يُطْوَى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيوداً ، حتى يصعّب الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم فى السلوك إليه من أضيق الممرات والدروب .

وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية فى الشعر ، وكأن الشاعرية لم تعد تقاس بالأثر الوجدانى الذى يحدثه الكلام فى نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن أن يستحدثه الشاعر من عُقَد ، وربما كان الحريرى أهم من فتح هذه الأبواب . إذ نراه فى مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقْرَأ الأبيات طَرْداً وعكساً كما جاء فى المقامة المغربية من مثل قوله :

امْلُ جنابَ غاشمٍ مشاغبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقْرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أى اختلاف فى لفظ أو حرف ، ومن الغريب أن من جاءوا ابعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه « ما لا يستحيل بالانعكاس » . وتمرين هندسى ثان عرضه فى المقامة الشعرية ، وهى أبيات التزم فى داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّة إنها شَرَكُ الرَّدَى وقرارةُ الأكْدار

---

(١) عباس العزاوى ٢/٢٧٣

دارٌ متى ما أضحكتْ فى يومها   أبكتْ غدًا بُعْداً لها من دارِ

فإننا إذ اوقفنا عند الكلمة الدالية فى الشطر الثانى أصبح البيتان من مجزوء الكامل على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الَّدنيَّـ   ـة إنها شَرَك الرَّدَى
دارٌ متى ما أضحكتْ   فى يومها أبكتْ غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسى الذى لا يضيف معنى نجده فى مقامته التى سماها بالرَّقطاء يبتكر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :

مخلفٌ متلفٌ أغرُّ فريدٌ   نابهٌ فاضلٌ ذكىٌّ أنوفُ

ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل فى نفس المقامة ، وكرر ذلك فى المقامتين المرويَّة والبكرية . ونراه فى المقامة الحلبية يبتدع تمرينا شعرياً من طراز خَطِّىٌّ آخر ، هو طراز الحروف الخالية من النقط فى مثل قوله :

أعْدِدْ لحسَّادِك حَدَّ السِّلاحْ   وأوردِ الآمل وِرْدَ السَّماحْ

ولا يكتفى بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خَطِّيًّا ثانياً ، كل كلماته مؤلفة من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فَتَنَتْنِى فجنَّنَتْنِى (تَجَنِّى)   بتَجَنٍّ يفتَنُّ غِبَّ تَجَنِّى

وكأن هذين التمرينين الهندسيين فى تلك المقامة لم يُقْنعاه ، أو كأنه أحسَّ أنه من الممكن محاكاتهما فجاء بتمرين خطى ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متماثلة مثل :

زُيِّنَتْ زَيْنَبٌ بِقَدٍّ يَقُدُّ   وتلاه – وَيْلاه – نَهْدٌ يَهُدُّ

وواضح أن بين كل لفظين متواليين تجنيسا خطيًّا واضحا . وكل ذلك ليس شعراً وإنما هو تمارين أو لُعَبٌ هندسية[١] ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى الشعراء – وخاصة المتأخرين – ينظمون منها كثيراً . ومن تتمة هذه التمارين الهندسية فى العصر كثرة الألغاز والأحاجى فى الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك كتاب الإعجاز فى الأحاجى والألغاز للحظيرى وعنه ينقل العماد فى الخريدة[٢] ، ولا يلبث أن يترجم لشاعر شُغف بها هو الحكيم[٣] النيلى الطبيب ، ويذكر له طائفة من

---

(١) من هذه اللعب ماوراه العماد من قصائد أولها تاء وآخرها تاء أو أولها جيم وآخرها جيم أو أولها دال وآخرها دال انظر الخريدة (قسم العراق) ٧٤٩/٢/٤ وقسم الشام ٥٤٦/٢

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٤٧٥/٢/٤

(٣) نفس المصدر ص ٤٩٨ ومابعدها

ألغازه الشعرية فى العقل والرمّانة وكيزان الفَخّار والنّاى وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جِسْماً ... بلا رِجْلٍ فقِسْ فيما تقيسُ
يئنُّ أنينَ صَبٍّ مستهامٍ ... مشوقٍ قد نأى عنه أنيسُ
وليس بذى صَبابات فيَهْوَى ... ولكنَّ الهوى فيه حَبيسُ

غير ألغاز أخرى ذكرها العماد ، وألغازه طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء فى الحقب المتأخرة من التواريخ فى الشعر ، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمَّل مؤرخين للسنة التى نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العُرْس الذى هنَّأوا به أو للسنة التى وُلد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً نابهين ، وسنفرد لهم بعض الصحف التالية .

ومن أهم ما تمتاز به أقاليمنا فى العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها فى الأدب وفى العلم وحدة ، جعلت كل شاعر نابه فى إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر فى إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى . ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدها تظهر فى الأندلس ويضع لها قوانينها فى القرن السادس شاعر مصرى هو ابن سناء الملك ، ونراها على ألسنة الشعراء فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية ، ومن أمثلتها فى الخريدة موشحة[1] لشاعر موصلى هو التاج البلطى المتوفى سنة ٥٩٩ . ويلقانا فى القرن السابع وشاح عراق كبير ترجم له ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى باسم شهاب الدين الموصلى[2] أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها فى المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضى الفاضل عبد الرحيم ، تجرى على هذا النحو :

بى مَنْ حَوَى الحسنَ كلَّه ... وفاق غِيدَ الأكِلَّهْ[3]
بَدْرٌ تمامٍ مصوَّر ... ما فيه نَقْصُ الأهلَّهْ
فشعرُه لليالى ... وفَرْقُهُ للصباحْ
وجَفْنُهُ للنِّصالِ ... وقَدُّهُ للرِّماح
وريقُه للزُّلالِ ... وثَغْرُهُ للأقاحْ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢/٣٨٩

(٢) انظر ترجمته فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١/٢٥١

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة وهى الستر أولعلها جمع إكليل وهى عصابة تزدان بالجواهر

وقد بدأ موشحته بالقفل وتلاه بالدور ، ثم تتابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف ينتخب كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكى تتكامل رشاقة الموشح يحسن أن تكون الشطور فى الأدوار قصيرة وأن يَسْرى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تَغْرى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظَفَّر الأعمى المصرى :

كَـلِّلى يا سُحْبُ تِيجانَ الرُّبَى بالحُلى

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن مخطىء وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلى فى هذه الصورة :

جَلِّلى ياراحُ كأسى ولها كَلِّلى
بالحُلى سِوارَها ثم ُ لها خَلْخِلى
من غُرَرْ حَبابِك المنظوم مثل الدُّرّ
بالخَمَرْ كأنه الياقوتُ فوق الجَمْرِ
والزَّهَرْ فى الرَّوْضِ أمثالُ النجومِ الزُّهْرِ

ومهارته واضحة فى انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها فى الَجَرْس والنغمة ، ويحق يصف ابن تَغْرى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائق . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفى الدين الحلى ، ونلتقى فى ديوانه باثنتى عشرة موشحة منها ست فى مديح الملوك والأمراء وخمس فى الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط فى موشحاته درجة أو درجات عن الموصلى وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله فى فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بقى الأندلسى المشهور فى موشحة بديعة له :

صاحبَ السيفِ الصقيل المحلَّى جَرِّدِ اللَّحْظَ وألْقِ السِّلاحا
لك ياربَّ العيونِ القواتـــــلْ
ما كفى عن حمل سيفٍ وذابِــل (١)
أعيُنٌ تبــدو لديها المقــاتـــل
ما سرى فى جَفْنها الحسنُ إلا أوثقتْ منا قلوباً جِراحا

وربما كانت المعارضة هى التى جعلته يتفوق فى هذه المرشحة ، كما جعلته يصفِّى لفظه تصفية،شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسبيل ، وخاصة فى هذا المطلع البديع .

(١) الذابل : الرمح

٣

شعراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من تلقاهم من عشرات الشعراء – إلا مَنْ ندر – عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، وينبغى أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع مَنْ يذهبون إلى أن هذا الشعر كان فى مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهى فكرة مخطئة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلى وهم يتغنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأمجاد الحربية لقبائلهم ومثاليتهم الخلقية الكريمة ، مُذْكين بذلك الحماسة فى نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم أو بعبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشعاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدَّثون عن العدل أو العدالة التى لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم فى الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجَّلوا مجدنا الحربى فيها ليدفعوا الشباب إلى سَلِّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحقهم محقا . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يجد فيها الشباب القدوة الحسنة فى العمل المجيد وفى الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصوِّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلَّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصْبَ عيون الشباب شعارات تعبِّر عن آمال الأمة التى حققوها والأخرى التى تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون فى تصويرهم كأنما يريدون أن يحملوهم على النهج الصحيح الذى تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم فى صورهم الحقيقية ، بل يصوروهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح فى العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفى الحق أن البويهيين ووزراءهم – كما مرَّ بنا – بعثوا فى هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

ابن عبد الله السَّلامى وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم البَّغاء وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نُباتة المعروف باسم ابن نباتة السعدى . والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السَّلامى بكَرْخ بغداد [١] وتوفى سنة ٣٩٣ وله مديح رائع فى عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طَوَى عَرْضَ البَسيطة جاعلٌ قُصَارى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزمى فى الظلام وصارمى ثلاثةَ أشباهٍ كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرتُ آمالى بمَلْكٍ هو الوَرى ودارٍ هى الدنيا ويومٍ هو الدهرُ

وأبو الفرج البَّغاء [٢] من نَصيبين فى الموصل ، توفى سنة ٣٩٨ وذكر له الثعالبى طائفة من أشعاره كان يُتَغَنَّى بها فى عصره . وله مدائح مختلفة فى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لا غَيْثُ نُعْماهُ فى الوَرَى خُلَّبُ الـ ـبَرْقِ ولا وِرْدُ جُودِهِ وَشَلُ [٣]
جاد إلى أن لم يُبْقِ نائِلُهُ مالاً ولم يَبْقَ للوَرَى أملُ

وابنُ نباتة السَّعْدى [٤] من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفى سنة ٤٠٥ وهو من مدَّاح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف فى إحداها نار السَّذق ، وكان عيدا مشهورا للنار عند الفرس فى الإسلام كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وله فى سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة فى وصف فرس أغر محجل أهداه إليه ، وفيها يقول :

نختالُ منه على أغرَّ محجَّلٍ ماءُ الدياجى قَطْرَةٌ من مائِهِ
فكأنما لَطَمَ الصباحُ جبينَهُ فاقتصَّ منه فخاضَ فى أحْشائِهِ

وهو تعليل بديع لبياض الغُرَّة والساقين معاً ، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الدياجى قطرة من سواده ، وله فى سيف الدولة بيته المشهور :

لم يُبْقِ جودُك لى شيئاً أؤمِّلُهُ تركتَنى أصحبُ الدنيا بلا أمَلِ

وكان يحذو حذو المتنبى فى كثرة الفخر والحماسة والشكوى من الدهر والزمن ، وايضاً كان يحاكيه فى نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة السلامى اليتيمة ٣٩٥/٢ . وابن خلكان ١٩٩/٣ و١٢٤/٣ وابن خلكان ٤٠٣/٤ وتاريخ بغداد ٣٣٥/٢ والمنتظم ٢٢٥/٧ والوافى ٣١٧/٣

(٢) راجع فى ترجمة البغاء اليتيمة ٢٣٦/١ وتاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ والشذرات ١٥٢/٣

(٣) وشل : ضحل

(٤) انظر فى ترجمة ابن نباتة السعدى اليتيمة ٣٧٩/٢ وتاريخ بغداد ٤٦٦/١٠ وابن خلكان ١٩٠/٣ وعبر الذهبى ٩١/٣ والشذرات ١٧٥/٣ .

ومَنْ لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِهِ تنوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحِدُ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهى بين شعراء التشيع هما الشريف الرضى ومهيار . ولا يلقانا فى الذمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس : على [1] بن الحسن الرئيس أبى منصور المشهور بلقبه صُرَّدُرّ المتوفى سنة ٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة . وديوانه يموج بالمدائح البديعة ، ومن قوله فى الخليفة القائم :

كأنَّ رسولَ الله ألْقَى رداءَه من « القائم » الهادى على جَبَلٍ راسى
زمانُ الوَرَى فى ظلِّهِ وجَنَابِهِ كأيام تشريقٍ وليلاتِ أعراسِ
هو المصطفى التَّقْوَى متاعاً لنفسهِ بجوهرها حالٍ بِسُنْدسها كاسِ
من الخلفاء الرافعين بناءهم بأطول أعْمارٍ وأثبتِ آساسِ

وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة ، وقد جعل زمان الناس فى أيام القائم أعراسا وأيام تشريق وهى أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع فيها من عدل وأمن . وله فى فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حين تولى الوزارة سنة ٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان فى ترجمة ابن جهير ، وسننشد بعض غزلها فى حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أعدتَ إلى جسْم الوزارة رُوحَهُ وما كان يُرْجَى بَعْثُها ونُشُورها

وهى قصيدة بديعة ، ولايقل عنها إبداعا قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهير حين أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قد رجع الحقُّ إلى نِصابهِ وأنت من كل الوَرَى أولى بهِ
ماكنتَ إلا السيفَ سلَّتْه يَدٌ ثم أعـــادتْه إلى قِـرَابـهِ
أكرمْ بها وزارةً ما سلَّمتْ ما استُودِعَتْ إلا إلى أربابهِ
مشوقةً إليك مذ فارقتَها شوقَ أخى الشيبِ إلى شبابه

وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأختها رائعة . ويموج كتاب الخريدة بشعراء كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحَيْصَ [2] بَيْصَ أبا الفوارس سعد بن محمد التميمى

(١) انظر فى صرُّدُرّ المنتظم ٨/٢٨١ وابن خلكان ٣/٣٨٥ ، ٥/١٢٩ وعبر الذهبى ٣/٢٥٩ والشذرات ٣/٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٥/٩٤ .

(٢) راجع ترجمة الحيص بيص فى الخريدة (قسم العراق) ١/٢٠٢ ومعجم الأدباء ١١/١٩٩ والمنتظم ١٠/٢٨٨ وابن خلكان ٢/٣٦٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبع مكتبة الحياة بيروت) ، ص ٣٨٠ والسبكى ٧/٩١ وقد نشر ديوانه ببغداد .

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرف باسم الحَيْص بَيْص لأنه رأى الناس يوما فى حركة شديدة فقال : ما للناس فى حَيْص بَيْص ، فلصقت به الكلمة لقبا له ، وهو يشغل فى المجلد الأول من القسم العراق فى الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكثم ابن صيفى الحكيم الجاهلى ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله فى أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع فى نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف فى الافتخار والمديح ، ويذكر له ثلاثة أبيات هنأ بها الخليفة المستضىء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نُعْطَى إماما نَعِيش به فأعطانا نَجِيًّا
بَلَغْنا فوق ما كنا نرجِّى هنيًّا يا بنى الدنيا هَنِيًّا
وقد كُشف الظلامُ بمستضىءٍ غَدَا بالناس كلِّهم حَفِيًّا

وسُرَّ المستضىء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلعة ودارا ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ولعل فى ذلك مايدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضئ الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأله ديوانا خاصا وسمى الشعراء المدونة أسماؤهم فيه باسم شعراء الديوان [١] ، وأكبر الظن أنه كان يُجْرى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولىَّ خليفة وحين يُقْبل عيد أو يُولَدُ ولد أو يُخْتَنُ ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألمَّ به. وبالمثل كان للوزراء وذوى البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سِبْط ابن التَّعاويذى ، وسنترجم له . ويقال إن محيى الدين بن الجوزى كان ينظم فى كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر [٢] ، فما بالنا بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتمسون المناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشاتانى [٣] الموصلى المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

---

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعى تحقيق د . مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ وراجع الجامع المختصر لابن الساعى (طبع بغداد) ٦٩/٩ ، ١٥٣ ، والوافى ١٠١/٢ و٣٧٩/٤ .

(٢) ذيل مرآة الزمان لليونينى (طبع حيدر آباد) ٣٣٧/١

(٣) انظر فى ترجمة الشاتانى الخريدة (قسم الشام) ٣٦١/٢ وابن خلكان ١١٣/٢ وتهذيب ابن عساكر ١٧٧/٤ والسبكى ٦١/٧

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصَّفْرا فسِرْ وافتح الدنيا فأنت بها أحْرَى

ونوَّه صاحب النجوم الزاهرة بابن الشِّحْنة الموصلى أبى حفص عمر بن محمد لمدحة قافية له فى صلاح الدين [١] . ومن مداحه بالموصل أيضا ابن الدهان [٢] أبوالفرج عبد الله ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ . وقد نشر ديوانه ببغداد أخيرا ، وقصد مصر زمن الوزير الفاطمى طلائع بن رُزِّيك وأنشده فى مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه فكافأه عليها بجائزة سَنِيَّة وفى تخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لانلتُ وصلكِ إن كان الذى زعموا ولاسَقَى ظَمَئى جودُ ابنِ رُزِّيكا
القاتلُ الألف يلقاهم فَيغْلبهم والواهبُ الألف تلقاه فيُغْنيكا

وتمضى فى القرن السابع الهجرى ، فتلتقى براجح [٣] الحِلِّى المتوفى سنة ٦٢٧ وتهنئةٍ أنشدها الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ وردَّهم مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه فى دَحْرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى ، وإلى ذلك يشير راجح فى قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تهلَّل وَجْهُ الدهر بعد قُطوبهِ وأصبح وَجْهُ الشِّرْك بالظلم أسودَا
أعبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَه وموسى جميعا يَخْدمون محمدَا

وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان فى خدمة أخيهما الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفَّى الخليفة الناصر ، ويخلفه ابنه الظاهر لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ وقد نظم فيه مجموعة من المدائح طبعت باسم المستنصريات ، وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضا مجد الدين النشابى [٤] أسعد بن إبراهيم الإربلى المتوفى سنة ٦٥٧ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

وَرِثَ النبوةَ طاهراً عن طاهرٍ إرْثاً يُنزِّهُ عن مقالة مُفْتَرى
وإذا رأى الراءون نُورَ جلالهِ لم تَلْقَ غير مهلِّلٍ ومُكَبِّر

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٥٨

(٢) راجع ترجمته فى الخريدة (قسم الشام) ٢/٢٧٩ وابن خلكان ٣/٥٧ والسبكى ٧/١٢٠ وتهذيب ابن عساكر ٧/٢٩٢ والشذرات ٤/٢٧٠

(٣) انظر ترجمة راجح وشعره فى ابن خلكان ٤/٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٤٢ ، ٢٧٣ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١ / ٣١٨ والشذرات ٥ / ١٢٣ .

(٤) راجعه فى فوات الوفيات ١ / ١٧ وقد روى له موالیا وانظره فى ذيل مرآة الزمان ١/١١١ – ١٢٣ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى (طبعة الهند) ٥ / ١٠٢ .

ويكثر مثل هذا الغلو فى المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأئمتهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً ألغى ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونمضى فى القرن السابع فنلتقى بفخر الدين مظفر بن الطرَّاح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة فى علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد [١] . وكان يعاصره ابن نعيم الحلى ، وله ديوان [٢] سماه « شرف المزية فى المدائح العزِّية » مدح به صدر الحِلَّة عز الدين أبا محمد حسن بن الحسين الأسدى الحلى ، ويكفى القرن الثامن فخرا ظهور صفى الدين الحلى فيه . ومر بنا فى فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى فى العصر العثمانى الأول واسم محمد كاظم الأزرى فى العهد العثمانى الأوسط أو عهد المماليك ، ولهما ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح فى العصر : المتنبى ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفى الدين الحلى .

المتنبى [٣]

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُعْفىٍّ المذحجية اليمنية ، ولد سنة ٣٠٣ بحى كِنْدة فى الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندى . أما أمه فكانت هَمْدانية ، فهو يمنى أبا و أما . وذكر بعض خصومه وهجَّائيه أن أباه كان سَقَّاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

(١) العزاوى ١ / ٣١٦ .

(٢) العزاوى ١ / ٣١٧ .

(٣) انظر فى ترجمة المتنبى اليتيمة للثعالبى ١/١١٠ وتاريخ بغداد ٢/١٠٢ ونزهة الألبا لابن الأنبارى (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ص ٢٩٤ والأنساب للسمعانى ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١/١٢٠ . وألفت قديما كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحاتمى (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الحاتمية فيما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد والواضح فى مشكلات شعر المتنبى للاصفهانى (طبع تونس) والفتح الوهبى على مشكلات المتنبى لابن جنى تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبى الفتح لابن فورجه تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى للبديعى (طبع دار المعارف) وذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبى لطه حسن والمتنبى لمحمود محمد شاكر وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكتابنا فصول فى الشعر ونقده : ماكتب فيه بعنوان العروبة فى شعر المتنبى وكتاب بلاشير عن أبى الطيب المتنبى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جنى وبينه وبين المتنبى مراجعات كثيرة وشرحه نفيس ، ومن شروحه شرح العكبرى وشرح الواحدى وهما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

« عَبْدان » . ولم يُعِر ابن خلكان هذه الدعوى اهتماما ، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذّ وحَسَداً . وكل شيء فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف ، ويَبْعُدُ أن ينتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سَقّاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكّرة ، وهو فى نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصِّبْية : ما أحسن وَفْرتك وشَعْرك ، وفوجئ الصَّبىُّ بردّه :

لاتَحْسُنُ الوَفْرَةُ حتى تُرَى منشورةَ الضَّفْرَيْنِ يوم القِتالْ
على فتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّها من كل وافى السِّبال

فالوفرة - أو الشعر المجتمع على الرأس - لايحسن منظره إلا يوم القتال حين تشعَّث ذوائبه على رأس فتى باسل يَعْتقل صعدة أو رمحا يُعِلُّها أو يرويها من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جمال حسى أو متاع مادى فى الحياة ، مما جعله ينصرف عن الخمر بل ينهى عن احتسائها ، أما ما قيل من حبه للُعْبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب والعراك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويَسْبوا النساء ، ويفرُّ الناس منها جزعا وفزعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المتنبى نحو عامين أو ثلاثة يتردد فى القبائل ويتغذّى بلغتها ، وتتغذّى فتوته الجامحة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة فى مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل كان أبوه لايزال حيا أو أنه توفّى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعا . وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا فى ديوانه ، بينما نجده يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلاً :

ولو لم تكونى بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباك الضَّخْمَ كَوْنُك لى أُمَّا

وفى تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه فى باكورة حياته وأن جدته هى التى قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقى شيئا من ظلال الشك على نسبه ، لأنه لم يذكر فى شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأدنين ، وجعله ذلك يبغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرا من شعراء العرب لم يذكروا فى أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس فى ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيعة ، بل إننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سوَّدتْنى عامرٌ عن وِراثةٍ أَبَى اللهُ أن أسمو بِأُمٍّ ولا أبِ

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر ببأسه وأعماله المجيدة ، بالضبط كما قال المتنبى :

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفوا بى وبنفسى فخرتُ لا بجدودى
وبهم فخرُ كلِّ من نطق الضَّا دَ وعَوْذُ الجانى وَغَوْثُ الطَّرِيدِ

على أن المتنبى يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبى وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبه غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبى كان عربيا صميما وأن العرب لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبى هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعاً ، وشدَّ فى وسطه منطقة وسيفاً ، وفى إحدى يديه رمح مصوَّب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والنزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصياحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصيح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ مَنْ حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهرٌ ناسُه نامٌ صِغارٌ وإن كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عُسْرا .

وستتضح شخصية المتنبى حين نتابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سِنِّه ، ويُكبُّ عَلى كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى لحما ودما ، وتستأثر

به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان البادية ، وأفادته صقلا فى لغته ووقوفا على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صقلا فى فتوته وإحساسه بعروبته ، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات فى عصره ، واقترض منها فى شعره صيغا من النحو الكوفى الشاذ ومن الغرائب اللغويةومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته . وكل ذلك فصّلنا الحديث عنه فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة فى سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن على الأوراجىّ ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمى ولا أحداً من ذوى السلطان ، وكأنما وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُفْعَم صدره بمشاعر العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه :

إلى أى حينٍ أنت فى زِى مُحْرِمِ ... وحتى متى فى شِقْوَةٍ وإلى كَمِ ؟
وإلا تَمُتْ تحت السيوف مكــرَّماً ... تَمُتْ وتُقاسِ الذلَّ غيرَ مكــرَّمِ
فَثِبْ واثقاً فى الله وثبةَ ماجدٍ ... يَرَى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

وهو يستحثُّ نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زِىَّ المحرمين بالحج ، يريد زِىَّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازلة لا تُبقى منهم ولا تَذَرُ . وييئس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولِّى وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب فى طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يرعون للعرب حُرْمة ولا عهدا ولا ذمة ، ويصيح فى قومه :

وإنما الناسُ بالملوك وما ... تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عــهودٌ لهم ولا ذِمَــمُ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذَلِّين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العَسْف والقهر . و يمضى فى دعوته وثورته فى بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك . ويحسُّ فى أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلا وتخاذلا وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدَرة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها :

ما مُقامى بأرض نَخْلَةَ إلا كمُقَام المسيحِ بين اليهودِ
عِشْ عزيزا أَوْ مُتْ وأنت كريمٌ بين طَعْنِ القَنا وخَفْق البنودِ
واطلبِ العِزَّ فى لَظَى ودَعِ الذُ لَّ ولو كان فى جنان الخلودِ
أنا تِرْبُ النَّدا وربُّ القوافى وسِهامُ العِدا وغيظُ الحسودِ
أنا فى أمةٍ تداركها اللّـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه فى القصيدة بالمسيح وبالنبى صالح سببا فى أن يتّهمه بعض معاصريه بادعائه النبوة ، وبالغوا فزعموا أنه ادَّعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فِقَرِ منه ، وكل ذلك غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين . أما لقبه المتنبى فهو الذى لقب نفسه به ، أو لعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة . وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مَرِّ التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربى الحرَّ ليفضِّل العز فى الجحيم على الذل فى الفراديس . ويترك قرية نَخْلة إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لايزال فى العشرين من عمره . ويقضى لؤلؤ والى حمص من قِبَل الإخشيد على ثورته ويَزُجّ به فى غياهب السجن . ويظل به نحو سنتين ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته فى مديح ولاة البلدان الشامية ، وخاصة بدر بن عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه المتنبى أمنيته فى فارس عربى ، فمدحه ونوّه بفروسيته فى تصويره الرائع لفتكه بأسد ، مستهلا له بقوله :

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لمنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقولا

يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد ببأسه ومضائه . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستنهضا هِمم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل يروقُ دفيناً جودةُ الكفَنِ

وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ما لجُـــرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نعى جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميميته التى يقول فيها مفاخرا بقومه وأهله :

وإنى لمن قومٍ كأن نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظْما
فلا عَبَرَتْ بى ساعَةٌ لا تُعِزُّنى ولا صَحِبَتْنى مهجةٌ تَقْبَلُ الظُّلْما

وهما بيتان رائعان يصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب فى شعر المتنبى جعله محبَّبا لكل عربى ، إذ تتوهج أشعاره بخصال العربى الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنايا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجمان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وبهذه النفس العاتية كان المتنبى ينظم شعره منذ سال على لسانه فى الكُتَّاب معبرا عن الروح العربية التى لا تُقْهَرُ ، مهما نزل بها من الكوارث والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يَهْدر ويزمجر ويزْأر ، ولا يجد سميعا ولا مجيبا . وتحدِّثه نفسه فى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدِّم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمدانى ، وكان أميرا لحلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعا لها من يد الإخشيديين ؛ فقدَّم المتنبى مدائحه إلى واليه على أنطاكية أبى العشائر الحمدانى ابن عمه ، فأجزل له فى العطاء . ومضى فى مديحه ، ويَقْدُم سيف الدولة إلى أنطاكية فى جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين . فيمدحه المتنبى ، ويُعْجَبُ كل منهما بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حَلَب وينزل عنده ، ويقول الرواة إن المتنبى اشترط عليه أن لا يقبِّل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدائحه إلا قاعدا ، ويجيبه سيف الدولة إلى شرطيه ، ولعل فيهما ما يشير إلى شعور المتنبى بالعزة والكرامة شأنَ العربى الأصيل . ويظل المتنبى عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا فى أميره ، تؤلف ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربى ، لا من حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقرَّ حينئذ فى نفسه أنه لقى أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذى يمزِّق جموع الروم شرَّ ممزَّق فى الشمال ، وغداً يمزِّق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين فى بغداد ، ويردّ للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة بحق بطلا مغوارا وشجاعا مقداما ، حَطَم جيوش الروم مراراً واستنقذ منهم غير ثغرٍ وحصن ، وكان المتنبى يصحبه فى غزواته ، حتى إذا عاد معه أنشده بحلب ما نظمه فى بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحَدَث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يستردّه ويعيد بناءه ، وأعدَّ جيشا جرَّاراً

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهُزموا هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأُسر منهم آلاف ، وُضعت فى أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبَنَى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المتنبى الموقعة فى ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجا بقوله :

وقفتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ كأنك فى جَفْن الرَّدَى وهْو نائِمُ
تمُرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُك باسِمُ
ضممتَ جناحيهم على القلب ضَمَّةً تموتُ الخوافى تحتَها والقوادِمُ
بضربٍ أتَى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وَصَارَ إلى اللَّبَّاتِ والنصرُ قادمُ
نَثَرْتَهُمُ فوق الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهِمُ

وهو يصور سيف الدولة فى المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرءوس تتطاير والأشلاء تتناثر ، والموت يحدق من كل جانب ، وكأنه فى جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها مهابة . وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولا ورعبا ، ولم يلبث أن لفَّ جناحى جيشهم على القلب لفَّةً سريعة وحطم رءوسهم حطما إلى اللبَّات والنحور . وولوا الأدبار مندحرين وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيدب كما تُنْثَرُ الدراهم على العروس ابتهاجا ، وكأنه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم . والمتنبى لا يبارَى فى وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسمع فى قصائده السيفية قعقعة السلاح ، وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة فى ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختص المتنبى بالإبداع فى مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظَنّ أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا » . وتوفِّيت فى نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أمُّ سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة ، وفيها يقول بيتيه المشهورين :

رمانى الدهرُ بالأرْزاءِ حتى فؤادى فى غِشاءٍ من نِبالِ
فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ تكسَّرتِ النِّصالُ على النصالِ

ونَفِس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة – وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى الشاعر – منزلته ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسَّ المتنبى بكيدهم ، وأن سيف الدولة يُرهف سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتابا مُرًّا بمثل قوله :

يا أعدلَ الناسِ إلا فى معاملتى فِيمَ الخِصامُ وأنت الخصمُ والحكَمُ
إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قَدروا أنْ لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظلون يحسدون الأديب ، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبى ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبى ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلن ذلك فى غير قصيدة من مثل قوله :

مالى أكتِّمُ حُبًّا قد بَرَى جَسدى وتدَّعى حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ

ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع ، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله :

أعلَىَ المالك ما يُبْنَى على الأَسَلِ والطَّعْنُ عند مُحِبِّيهِنَّ كالقُبَلِ

ويصمم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقى فيها بأصحاب كافور وأوليائه ، فيغُرونه بلقائه فى الفسطاط وأنه لابد أن سيقيمه واليا على « صيداء » أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأنما زَيَّنَتْ نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة فى إقامة الدولة العربية المنشودة . وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وما رغبتى فى عَسْجَدٍ أستفيدُه ولكنها فى مَفْخرٍ أستجِدُّهُ

ويلوِّح فى غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فيتقدم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته فى الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هى فى ظاهرها ثناء ولكنها فى باطنها هجاء مُرٌّ من مثل قوله :

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَنْ بات حاسدا لمن بات فى نَعْمائه يتقلَّبُ

والبيت يمكن أن يُحْمل على من يُسْبَغُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسْدِى إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانيها دناءة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبى استذلَّ نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمى الحبشى ، وهو الذى طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تخلَّى عن مسئوليته الأدبية . وليس هناك تخل من المتنبى ولا ما يشبه التخلى ، فقد مدح كافورا فى سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ماطله ، سلَّ عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهى لا تضعف ولا تهرم ، مهما تقدمت بالمتنبى السن ومهما اشتعل عذاره شيبا ، بل لكأن شعرات شيبه البيضاء حراب مشرعة لنزال أعدائه ، حراب إن

ورائها نفس تزجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرا رائعا فى قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول :

وفى الجسم نفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ ولو أنَّ ما فى الوجه منه حِرَابُ
لها ظُفُرٌ إن كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ونابٌ إذا لم يبق فى الفم نابُ

فاليأس المرير الذى ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار . وفى أواخر مقامه بمصر ألمَّت به حُمَّى ، فوصف نزولها به فى الظلام ومبيتها فى عظامه وأثرها فى جسمه وصفا رائعا ، ولها يقول بيته البديع :

أبِنْتَ الدَّهرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ

وعرَّض فى القصيدة برحيله ، فقد أحسَّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل ، وهو يرمى كافورا بشُواظ من هجائه على نحو ما نرى فى داليته ، وقد مزّق فيها أديمه تمزيقا بمثل قوله :

لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعَصا معَهُ إن العبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ

وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها فى الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل فى ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطيا يوما . ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد وينزلها فى سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الحاتمى - بإيعاز من الوزير المهلبى - ينقد بعض أشعاره ، وتكون فى ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد فى سنة ثلاث وخمسين مترددا إليه آملا فى زيارته ويقدم عليه فى « أرَّجان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا فى وصفه :

عربىٌّ لسانُهُ فلسفىٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

ففخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويمرُّ ببستان يسمى « شِعْبَ بَوَّان » ويروعه جماله ، غير أنه مع روعته كدَّر نفسه أن لا يرى أثراً للعروبة فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله :

مَغانى الشِّعْبِ طِيباً فى المغانى بمنزلة الرَّبيع من الزمانِ
ولكنَّ الفتى العربىَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

وأروع مدائحه فى عضد الدولة هائيته ، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات فى الشام ، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسِّمه فى فتاة عربية شامية خلبت لبه ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كلُّ جريحٍ تُرْجَى سَلامتُهُ إلا فؤاداً دهتْه عَيْناها
فى بلدٍ تُضْرَبُ الحِجالُ بهِ على حِسانٍ وَلَسْنَ أشباها
فيهنَّ مَنْ تَقْطُرُ السيوفُ دماً إذا لسانُ المحبِّ سَمَّاها

إنهن عربيات دونهن الموت الزُّؤام . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه ، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفى طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه فى أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبى جهل فى بعض الشذاذ من قطاع الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلمانه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقرى : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الاساسية التى تغنى بها المتنبى ، وهى المديح والهجاء والفخر والرثاء ، وأروع مدائحه كما قدمنا ما نظمه فى سيف الدولة وتصوير معاركه ، وهجاؤه ينبثُّ فى مدائحه ونقصد هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :

فى كل أرضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ تُرْعَى بعَبْدٍ كأنهم غَنَمُ
يَسْتَحْشِنُ الخَزَّ حين يَلْبَسُهُ وكان يُبْرَى بِظُفْرِه القَلَمْ

والبيت الثانى يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا - كما يقول - عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة . وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون فى النعيم ، يلبسون الإستبرق بل يستخشنونه . ويملئون ديار العرب بَغْياً وظلما . ومرت بنا أبيات أخرى فى هجائهم ، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر فى شعر المتنبى ، وهو طبيعى لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول :

أمثلى تأخذُ النكباتُ منه ويجزعُ من ملاقاة الحمامِ
ولو برز الزمانُ إلىَّ شخصا لخضَّب شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسامى

وفى ديوانه مراث مختلفة ، ولكن أهمها مرثيته فى جدته والأخرى التى نظمها فى أم سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليهما ، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير فى الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُدَفِّن بعضُنا بَعْضًا وتَمْشى أواخرُنا على هامِ الأوالى

وفى رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد فى ملتى واعتقادى » . وتَسْرِى فيه روح تشاؤم جعلته ثائرا على الزمن والدهر والناس ، وهى روح تحبِّب أشعاره إلى قارئه ، من مثل قوله :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعَناهُمْ من شأنِهِ ما عَنانا
وتولَّوا بغُصَّةٍ كلُّهم منـ ـه وإنْ سَرَّ بعضَهم أحيانا

وتكثر فى شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ مايدور من خواطر فى أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها فى شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه ، ولكن من المؤكد أن حِكَمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فيما مرَّ من الحديث . وإله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات لجاهلن الفطرى وفى ذلك يقول :

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطْرِيَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ
أَفْدِى ظِباء فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبى الفذة ويرد عنها جملة التُّهم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته ، وهو قد فرَّ مع أبيه من وجه القرامطة حَدَثاً ورحل بسببهم عن الكوفة فى باكورة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطى ، ويُلْقَى ظل من الشك على عروبته ، مع أن العروبة لم تجد من يَفْضُله لتختاره تُرْجُماناً لها أروع ما يكون الترجمان .

سِبْط [1] ابن التعاويذى .

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مول لبنى المظفَّر واسمه نُشْتَكِين ، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله ، وقد وُلد لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ ويبدو أنه توفى وابنه لا يزال صغيراً ، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكتَّاب ، ثم بحلقات العلماء

(١) انظر فى ترجمة سبط ابن التعاويذى معجم الأدباء ١٨/٢٣٥ وابن خلكان ٤/٤٦٦ ونكت الهميان ص ٢٥٩ والوافى بالوفيات ٤/١١ وعبر الذهبى ٤/٢٥٣ والشذرات ٤/٢٨١ والنجوم الزاهرة ٦/١٠٥ وسبط ابن التعاويذى : حياته وشعره لنورى شاكر الألوسى (طبع بغداد) وديوانه طبع قديما بالقاهرة فى مطبعة المقتطف بتحقيق مرجليوث .

فى المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موهبته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ، فقد عُنى به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير ، وكان لهم شأن كبير فى الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فألحقوه بدواوين الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجعلته وظيفته فى هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بنى المظفر ، وله مدائح فى الخلفاء وفى غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فَصلَهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التميمى المعروف بابن البلدى لعهد الخليفة المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) إذ نراه يهجوه هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكَّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداد جِدْ عن بلدةٍ للجور فيها زَخْرَةٌ وعُبَابُ
إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد سُدَّتْ على الرَّاجى بها الأبوابُ
بادتْ وأهلوها معاً فبيوتُهم ببقاء مولانا الوزير خَرَابُ
وارَتهمُ الأجْداثُ أحياءً تُها لُ جنادلٌ من فوقهم وترابُ

ونراه فى قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدى ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فُصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذى أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذى قد توفى ورثاه مرثية جيدة ، استهلها بقوله :

لكلِّ ما طال به الدهرُ أمَدْ لا والداً يُبْقى الرَّدَى ولا وَلَدْ

وليس فى الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل فى ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفَّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) أن ينقل راتبه فى الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده . ويجيبه إلى ملتمسه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجَدِّد له راتباً خاصًّا به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويُكْثر حينئذ من نَدْب بصره بمثل قوله :

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جِنايةٍ يُعَدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ
يُرَوِّعهُ عند الصباح انتباهُه فطُوبَى له لو طالَ وامتدَّ نَوْمه

ولم يعش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كفِّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول ابن خلكان ، ورتبه فى أربعة فصول ، وكل ما نظمه بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول فى مدائح الخلفاء ، والفصل الثانى فى مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول فى مقدمته ، والفصل الثالث فى مدائح بنى المظفر ، يقول : « لأننى نشأت فيهم ، وصحبتهم أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم ، فنظمت فيهم جُلَّ شعرى ، وأنفقت معهم طائفة من عمرى » والفصل الرابع متنوعات من مراث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر فى الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أنْ يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها فى لحظة عارضة فى حياته . وقد نوَّه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً : « كان شاعر وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتى سنة مَنْ يضاهيه » .

وأول خليفة مدحه سِبْط ابن التعاويذى الخليفة المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) وليس لأبيه المقتفى ذكر فى الديوان ، وليس له فى المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولى المستضىء (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحَظ فى هذه المدائح ، هى أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التى يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستضىء وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بنى العباس ، واقْرَأ هذا الاستهلال لمدحة لسِبْط ابن التعاويذى فى المستضىء :

لك النَّهْىُ بعد اللهِ فى الخلق والأمرُ ... وفى يدك المبسوطة النفعُ والضُّرُّ
وطاعَتُك الإيمانُ بالله والهُدَى ... وعِصيانُك الإلحادُ فى الدين والكفْر
ولولاك ما صحَّتْ عقيدةُ مؤمنٍ ... تَقِيٍّ ولم يُقْبَلْ دعاةٌ ولا نَذْرُ
مُرِ الدهرَ يفعلْ ما تشاء فإنه ... بأمرك يَجْرى فى تصرُّفه الدهر

والغلوُّ واضح فى البيتين الأخيرين ، بل فى الأبيات كلها ، حتى ليجعله يصرِّف الدهر كما يشاء . ويمضى فى القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبى وإمام هدى عمَّ عدله الرعية ، وقد نطقت بفضله آى الذكر الحكيم يقصد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهرَكم تطهيراً) . ودائماً يردِّد فى مدائحه له أنه جارعلى سُنن الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سَيُعَدُّ يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر فى مديحه للناصر خطوات أكثر غلوًّا على شاكلة قوله :

أنت الإمامُ المهديُّ ليس لنا إمامُ حَقٍّ سِواكَ يُنْتَظَرُ
يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن فى يده النَّفْعُ بعدُ والضَّرر
ومَنْ له الليلُ والنهار وما كَرَّا عليه والشمسُ والقمر
والبَرُّ والبَحْرُ والشواهقُ والْـ غُرُّ الغَوادِى والنَّجْمُ والشَّجر

ولو لم نعرف اسم الممدوح لظنناه إماماً شيعيا فهو المهدى الذى تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفاسده وشروره ، وهو صاحب العصر والزمان الذى يختفى عن الأعين ومع ذلك يرعى أمور رعيته ويدبِّر شئونها ، بل إنه ليدبر الكون كله بليله ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسمائه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنته وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يملُّ من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله فى أرضه على عباده ، ويقتبس الشاعر هذه الفكرة فى مدحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللهِ أنت والسَّبَبُ المَمْـ ـدودُ ما بينه وبين الناسِ

ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسْلَكَ سِبْط ابن التعاويذى بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسى ، متعصب لخلفاء بنى العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة فى شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، ولذلك كنت أشك فى أنه نظم مرثية الحسين .

أرقتُ لِلَمْعِ بَرْقٍ حاجِرىُّ تألَّقَ كاليَمانى المَشْرَفىِّ

ويغلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان فى زمن مبكر .

وحين كاد العماد الأصبهانى يعمل فى دواوين الخلافة ببغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العماد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يراسله ، ويقول ياقوت إن العماد ذكر فى ترجمته بعض ما كان بينهما من مراسلات ، وفى ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العماد يطلب منه فَرْوة . ويبدو أن العماد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضى من جهة ثانية ، وفى ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتى ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنية ، لعل أهمها النونية ، وفيها يقول :

قادَ الجيادَ معاقلاً وإن اكتفى بمعاقلٍ من رأيهِ وحُصونِ
سَهِرتْ جفُونُ عِداه خيفةَ ماجدٍ خُلِقَتْ صَوارِمُه بغيرِ جفُونِ

لو أن لِلَّيْثِ الهِزَبْرِ سُطَاه لم يلجأ إلى غابٍ له وعَرِينِ

وغزله فى مفتتح هذه المدحة رائع ، وله فى القاضى الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة ، إذ يقول :

ناءٍ عن الأحْياء فى بَرْزَخٍ منقطعٌ من بَيْنِهم ذِكْرِى
ليلُ حِجابٍ لا أرى فَجْرَهُ يا مَنْ رأى ليلاً بلا فجر

وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد وفّاه ابن خلكان حقه من الثناء ، ونحس عنده كأن نبعاً سائغاً شرابه يتدفق عذباً عذوبة حلوة .

صفىّ[1] الدِّين الحِلِّى

هو عبد العزيز بن سَرايا الحِلِّى الطائى ، ولد بالحِلّة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأسرة على شىء من اليسار وسعة الحال ، فكان طبيعيا أن تُلْحقه بكتّاب يتعلم فيه القراءة وحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار . وكان الغلمان من لداته يتدرَّبون على ركوب الخيل فحاكاهم فى هذا التدرب . وأحسَّ فى نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر ، فأكبَّ على حفظ نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية ، مما جعله فيما بعد يُعْنى بتضمين كثير من هذه النصوص فى شعره وبعض موشحاته . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة ، إذ يقول فى المقدمة التى صنعها لديوانه : « إنى كنت قبل أن أشبّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعى الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً » . وهو يقصد بالعلوم علوم العربية وعلوم البيان والمعانى والبديع ، ونراه فيما بعد يؤلف فى الجناس كتاباً سماه « الدر النفيس فى أجناس التجنيس » . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه ألّف قصيدة بديعية هى مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسِّناً من محسنات البديع . ومن مؤلفاته كتاب الأوزان المستحدثة مثل الدوبيت وغيره ، وأيضاً كتاب العاطل الحالى ، وهو — كما مرَّ بنا — فى فنون الأشعار العامية . ويصرح فى مقدمة ديوانه بأنه لم يفكر فى بدء حياته أن يمدح أحداً أو يهجو أحداً ، بل لقد كان يرى أن يبتعد بأشعاره عن هذين الجدولين ، وجعله ذلك لا ينظم إلا فى موضوعين هما مدح الرسول ﷺ وآله ، والفخر بآبائه . ولم يكد

---

(١) انظر فى ترجمة صفى الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٤٧٩/٢ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥٧٩/١ والبدر الطالع للشوكانى ٣٥٨/١ والنجوم الزاهرة ١٠ / ٢٣٨ وكتاب شعر صفى الدين الحلى للدكتور جواد احمد علوش (طبع بغداد) . وديوانه طبع فى القرن الماضى طبعتين : طبعة فى دمشق وطبعة فى بيروت وكلتاهما مليئة بالأخطاء وفى دار الكتب المصرية منه أربع مخطوطات

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاظمت الحزازات والثارات بين عشيرته أو أسرته وبعض الأسر أو العشائر فى الحِلَّة ، وقُتل خاله ، وبكاه فى غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحِلَّة ، ولم يكتف بالبعد عنها فى بغداد ، فقد أبعد فى ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين فى الموصل من آل أُرتُق أصحابها وأحسن لقاءه واستقباله ملكها المنصورُ نجم الدين غازى بن أُرتُق ، وهو يشيد به وبعطاياه وعطايا ابنه الملك الصالح فى مقدمته للديوان ، وفى استقبال المنصور له يقول :

لاقَيْتَنَا مَلْقَى الكريم لضيفهِ وضَمَمْتنا ضَمَّ الكَمِىِّ لسيفهِ

وقد أنزله فى دار فخمة نوَّه بها فى شعره ، وظل يصحبه فى حِلِّه وترحاله ونزهاته . وفيه نظم مدائح كثيرة فى الأعياد وفى بعض انتصاراته . ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلا سماه « دُرر النُّحور فى مدائح الملك المنصور » وهو ملحق بديوانه المطبوع فى دمشق ، ويحتوى على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ فى كل بيت منها ، ويختمه بنفس الحرف ، وفى إحداها يقول :

رَبُّ النَّوال ومحمودُ الخصالِ ومِقْـ ـدامُ النِّزال وأمنُ الخائف الحذرِ
راعى الأنام بعينٍ غير راقدةٍ قد وُكِّلتْ فى أمور الملك بالسَّهرِ
راضٍ مع السخط يُبْدِى عزمَ منتقمٍ للمذنبين ويعفو عَفْوَ مقتدرِ
راحاتُه مُذْ نَشَا فى الملك قد عاهدَتْ يومَ النَّدى والرَّدَى بالنفع والضَّررِ

ولا ريب فى أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمى الذى يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتوفَّى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته ، ويظل له راتبه الذى كان يأخذه فى عهد أبيه ، ويصحبه فى نزهاته وخروجه للصيد ، ويتخذه أنيساً له فى مجالس شرابه . ونراه فى أواخر العقد الثانى من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً فى ظلال الدولة الأرتقية يفكر فى زيارة الشام بحجة رغبته فى التجارة ، وكانت تجارته الدارَّة شعره ، فنزل بحماة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل ، وفى أثناء مقامه عندهما يُرسل بمدائحه إلى الملك الصالح . ويفكر فى قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرام فى سنة ٧٢٣ ويزور قبر الرسول ﷺ ، ويفكر فى العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدباء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمدح الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جَلابِبا

واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر فى معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أَسْبَلْنَ من فوق النُّهود ذَوائبا فجعلن حبَّاتِ القلوب ذَوائبا

والجناس فى كلمتى ذوائب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الذوبان ، والجناس كثير فى شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً . ويمضى فى مديح الناصر قائلاً :

النـاصرُ الملك الذى خضعتْ له صِيدُ الملوك مشارقاً ومغاربا
لم تَخْلُ أرضٌ من ثَناه وإنْ خلتْ من ذكره مُلِئَتْ قَنًا وقَواضِبا
تُرْجَى مواهبه ويُرهَبُ بَطْشُه مثل الزمانِ مسالما ومحاربا
فإذا سَطا ملأَ القلوبَ مهابةً وإذا سَخا ملأَ العيونَ مواهبا

ولم يفتتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل . وكأنما سِحْرُ الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملأ عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصف الجمال الهاجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلَعَ الربيعُ على غُصون البانِ حُلَلاً فواضِلُها على الكُثْبانِ
والظِّلُّ يَسْرِقُ فى الخمائل خَطْوَه والغُصْنُ يَخْطِرُ خَطْرَةَ النَّشْوان
وكأنما الأغصانُ سوقُ رواقصٍ قد قُيِّدتْ بسلاسل الرَّيْحانِ
والشمسُ تنظر من خلال فُروعها نحو الحدائقِ نظرةَ الغَيْرانِ
والطَّلْعُ فى خَلَل الكِمامِ كأنَّه حُلَلٌ تفتَّقُ عن نُحور غوانى

وصفىُّ الدين يحيل الطبيعة المصرية نَشْوَى بما يتراءى له فيها من غناء ورقص وغوانٍ وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضى محفوفاً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إذا اكتحلَ الملوكُ بنورهِ خرُّوا لهيبتهِ إلى الأذْقانِ
شاهدتُه فشهدتُ لُقْمانَ الحِجَى ونظرتُ كِسْرَى العَدْلِ فى الإيوان
وافى وقد عاد السماحُ وأهلُهُ مَوْتَى فكان له المسيحَ الثانى
لا عيبَ فى نُعماه إلا أنَّهـا يَسْلو الغريبُ بها عن الأوطان

ويُشيد بإنعام الناصر عليه فى مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته فى أن يجمع شعره فى ديوان ويبوبه ويرتبه . ولبىّ صفى الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله فى اثنى عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب فى الفخر والحماسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثى والغزل والخمريات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحاض . وكأنما أُريد لديوان صفىّ الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع فى عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفى الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعيا إماميا ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته فى بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِغَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة ، يقول فى مديح على :

إمامٌ له عَقْدُ يَوْمِ الغَدِيرِ بنصِّ النبىِّ وأقْوالِهِ

وذكرُ صفىِّ الدين لهذا العهد لايثْبِتُ أنه شيعى إمامى ، إذ لا نجد فى شعره شيئاً من عقيدة الإمامية ، ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده فى نفس باب مديحه للرسول ولعلى يبرئ نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :

ولائى لآل المصطفى عَقْدُ مذهبى وقلبىَ من حُبِّ الصَّبابة مُفْعَمُ
وما أنا ممن يستَجيزُ بحبِّهم مَسَبَّةَ أقوامٍ عليهم تقدَّموا
ولكننى أُعْطِى الفريقين حَقَّهم وربِّى بحال الأفضليَّة أعْلَمُ

والبيتان الثانى والثالث يخرجانه من العقيدة الإمامية التى تُضْفى على علىٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد فى غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقا يصححون خلافة أبى بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن علياً أفضل منهما وأنه تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وإذن فصفى الدين لا إمامى ولا زيدى ، ومن قوله :

قيل لى : تعشق الصحابةَ طُرًّا أم تفَرَّدْتَ منهمُ بفريقِ
فإلى من تَميلُ ؟ قلتُ إلى الأرْ بع لا سيَّما إلى الفاروقِ

ويكفى أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من على ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد الغَدير فى بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً فى حداثته ، وخاصة أنه نشأ فى الحِلَّة ، وهى بيئة قديمة من بيئات التشيع ، وهو نفسه يقول فى مقدمة الديوان إن شعره فى الرسول وآله نظمه فى باكورة حياته .

وفى الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، ففيه اثنتا عشرة موشَّحة وفيه ثلاثة مسمَّطات وسبعة مخمَّسات وبعض رُباعيات كقوله :

لا تحسبْ زورةَ الكَرَى أجفانى من بعدك من شواهدِ السُّلوانِ
ما أرسلتِ الرُّقاد إلا شَرَكاً تصطاد بهِ شواردَ الغِزْلان

وتكثر فى شعره المحسنات البديعية ، وخاصة الجناس بجميع صوره الممكنة ، ومر بنا أن له كتاباً مستقلا فيه ، وفى شعره كل ألوانه : التام والناقص والمقلوب والملفق . وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلْ سَلْسَلَ الريقِ لِمْ لَمْ يَرْوِ حَرَّ ظما بل بَلْبَلَ القلب لما زاد آلاما

وواضح أن حرفى « سَلْ » كُرِّرا ثلاث مرات فى الشطر الأول وكرِّر حرفا « بل » فى الشطر الثانى ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامى الشطرين فى قصيدة على هذه الصورة :

شديدُ البأس ذو أمرٍ مطاعٍ مُضاربُ كلِّ قَرْمٍ أو مطاعنْ

ومضى فى القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة فى آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمين فى قصائده ، بحيث يصبح له فى القصيدة شطر ولبعض السابقين من مثل امرئ القيس والمتنبى وغيرهما شطرثان . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريرى فى نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصغّرة ، إلى غير ذلك من هذه التمرينات الهندسية التى لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفىُّ الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كى تخمد شاعريتهم وتجف ينابيعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافاتٍ رائعة إلى الشعر العربى .

٤

شعراء المراثى والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وُجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مراثى مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفى

بالإشارة إلى بعض المراثى البديعة ، فمن ذلك مرثية أبى الحسن محمد بن عمر الأنبارى الصوفى الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتله عضد الدولة البويهى وصَلبه فى بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله[١] :

عُلوٌّ فى الحياة وفى المماتِ ... لحقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأنَّ الناسَ حولك حينِ قاموا ... وُقودُ نَداك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خَطيباً ... وكلُّهمُ قيامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يَدَيْك نَحْوهمَ احتفاءً ... كمدِّهما إليهم بالهِبـــاتِ

ويشبِّه صلبه بصلب زيد بن على زين العابدين فى أواخر العصر الأموى ، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التى طالما رَدَّها عن الناس ثأرت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم عُلاه جعلوا الجَّوقبره كما جعلوا أكفانَه غبارَ الرياح ، ويستنزل عليه أو يستمطر شآبيب الرحمة والرضوان . ويكثر فى العصر رثاء الشعراء ، وفى مقدمتهم المتنبى ، وفى كتاب الدمية للباخرزى مراث مختلفة له ، وممن رثاه أبو القاسم المظفَّر بن على الطَّبَسى ، وفيه يقول[٢] :

لا رَعَى اللهُ سِرْبَ هذا الزمانِ ... إذ دَهانا فى مثل ذاك اللِّسانِ
ما رأى الناسُ ثانىَ المتنبِّى ... أىُّ ثانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزمانِ
كان من نفسه الكبيرةِ فى جَيْـ ... ـشٍ وفى كِبْرياءِ ذى سُلْطانِ
هو فى شعره نبىٌّ ولكنْ ... ظهرتْ مُعْجزاتُه فى المعانى

وكان الشريف الرضى يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى أبا إسحق الصابئ بقصيدته الدالية مفتتحا لها بقوله :

أرأيتَ مَنْ حَملوا على الأعوادِ ... أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النَّادِى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفاً من سلالة الرسول ورثى صابئاً ، فقال : إنما رثيتُ فضله . وتوفى الرضى فرثاه مهيار بلامية تأثر فى مطلعها بمطلع داليته آنفة الذكر إذ يقول :

حملوك لو علموا من المحمولُ ... فارتاضَ معتاصٌ وخفَّ ثقيلُ

وهذا باب يطول . ونكتفى بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المراثى لأشخاص رثاءُ بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكاها الشعراء بكاء حارًّا ، بكوا أهلها الذين سُفكت

(١) انظر النجوم الزاهرة ٤/١٣٠ وابن خلكان (٢) ابن خلكان ١ / ١٢٤ وانظر الدمية ١ / ١٠٥ ، ١٢٠/٥ ، ١٠٧ ، ٣١٦ .

دماؤهم وقُتِّلوا تقتيلا ، وبكوا تاريخها ومدنيتها وماكان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى مرثية الشيخ تقى الدين التنوخى لها ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفى الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات بطائفة من مراثيه فى ترجمته للخليفة المستعصم ، وفى إحداها يقول [١] :

أين الذين عهدتُهم ولعزِّهم ذُلاً تَخِرُّ معاقدُ التِّيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهمُ يبكى الهُدَى وشعائرُ الإيمانِ
لما رأيتُ الدارَ بعد فراقهم أضحتْ معطّلةً من السكّانِ
مازلتُ أبكيهم وألثِمُ وحشةً لجاهلم مُسْتهدِمَ الأركانِ

وكان لهذه النكبة صداها المدوى فى جميع البلدان العربية وفى إيران ، حتى لنرى الشيخ سعدى الشيرازى وغيره من شعرائها يندبونها ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل الهجاء كان أكثر ذيوعاً وانتشاراً من الرثاء ، ومرَّ بنا أن المتنبى هجا كثيراً الأعاجم كما هجا كافوراً الإخشيدى ، وتلقانا فى اليتيمة والدمية والخريدة أهاج كثيرة ، بل يلقانا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على الهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصرى المعروف باسم ابن [٢] لَنْكك المتوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصَّر به جهده عن بلوغ الغاية أو المنزلة التى يأملها لنفسه ، فسلَّ لسانه على معاصريه من الشعراء حتى المتنبى فإنه هجاه ، وهو الذى زعم أنه ابن سَقَّاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت فى ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبا رياش ، وفيه يقول :

على القُبْحِ الفظيع أبو رياشٍ يُعاشرُنا بأخلاقٍ ملاحِ
يُبيح أكفَّنا أبدا قَفاهُ فَنصْفَعُه على جهة المزاحِ

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشفَّى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار الهجائين فى العصر ابن الهبَّارية المتوفى سنة ٥٠٤ وسنترجم له فى غير هذا الموضع ، وقد ذكر العماد فى الخريدة أن له قصيدة [٣] فى هجو أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ – ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٥٠٠ . وفوات الوفيات ١/٥٤ وشعر ابن لنكك البصرى بتحقيق زهير غازى زاهد (طبع البصرة)

(٢) انظر فى ابن لنكك اليتيمة ٢/٣٤٨ وتاريخ بغداد ٣/٢٩٩ ومعجم الأدباء ٧/٧٨ والوافى بالوفيات ١/١٥٦

(٣) الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٨١ .

لى مأتمٌ من سوء فِعْلهمِ ولهم بحسن مدائحى عُرْسُ
ولقد غرستُ المدحَ عندهمُ طمعا فحَنْظَلَ ذلك الغَرْسُ

ويمْضى فى ثَلْبهم واحداً واحداً أقبح ثلب وأشنعه . وعلى شاكلة هـــذه القصيدة سينية[1] الشريف أبى نزار عبد الله بن محمد الكوفى ذمَّ فيها سادات بنى عمه من الكوفة والحِلَّة . ومرَّ بنا تعرض سِبْط ابن التعاويذى للوزير ابن البلدى ، وفيه يقول ابن لنكك :

يبدو لراجيه على وَجْهِهِ غِلْظةُ ليثٍ بالشَّرَى مُخْدَرِ[2]
لو أنها بالأرض ما أخْصَبَتْ أو بالسَّحاب الجَوْنِ لم يُمْطِرِ

وفى ديوان صفى الدين الحلى باب للهجاء كما أسلفنا ، وإنما نمثل فقط ببعض النصوص .

وطبيعى أن تكثر فى العصر الشـــكوى من الزمـــان ، ونكاد نلتقى بها بعـــد المتنبى على لسان كل شاعر ، ولا يختلف اثنان فى أن أروع قصيدة فى الشكوى من الدهر وتصاريفه قيلت فى العصر قصيدة أبى محمد[3] على بن زريق الكاتب الكوفى وهو من شعراء اليتيمة ، ويقال إنه ألمت به أيام عسيرة ، فرأى الارتحال إلى الغرب ، وارتحل تاركاً وراءه فى بغداد زوجة كان صَبًّا بها مغرماً ، غير أن الأيام لم تسعفه ، ويبالغ بعض الرواة فيزعمون أنه ظل راحلا حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمرائها ، فلم يعطه ماكان يتمناه ، فبكى أمله الضائع فى هذه القصيدة ، وفيها يقول مخاطباً زوجه وباكياً نفسه :

لا تَعْذليه فإن العَـــذْلَ يُولِعهُ قد قلتِ حقًّا ولكنْ ليس يَسْمَعُهُ
فاستَعْملى الرِّفْقَ فى تأنيبهِ بدلاً من عُنْفه فهْو مُضْنَى القلب موجَعُهُ
تأبى المطالبُ إلا أن تكلِّفَـــهُ للرِّزقِ سَعْياً ولكنْ ليس يجمعه
والحرصُ فى المرء – والأرزاقُ قدقُسِمَتْ – بَغْىٌ ألا إن بَغْى المَرْءِ يَصْرَعُه
أعطيتُ مُلْكاً فلم أحسِنْ سياستَهُ وكلُّ من لا يسوسُ الملكَ يَخْلَعُهُ

ويصوِّر فى القصيدة لوعة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال فى حل وترحال وراء الرزق ، وهو يلمع له كسراب يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً . والقصيدة كلها شكوى وأنين ولوعة ممضة . وسنقف قليلاً عند شاعرين من شعراء الهجاء ، أحدهما من شعراء اليتيمة والثانى من شعراء الخريدة ، وهما السرى الرفَّاء الموصلى وابن القطَّان البغدادى .

---

(١) الخريدة ٤ / ١ / ٢٦٢ .
(٢) الشَّرَى : الغيل . مخدر : فى خدره أو غيله .
(٣) انظر فى ابن زريق اليتيمة ٢/٣٧٦ وابن خلكان ٥/٣٣٨ ويسميه محمدا . وراجع بروكلمان ٢/٦٦ .

السَّرِيّ[1] الرَّفَّاء

هو أبو الحسن السرىّ بن أحمد الكندى الموصلى ، وُلد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبيا للرَّفَّائين ، فكان يَرْفو ويطرِّز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة فى صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رَفَّاء فى باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويجيده . ويبدو أنه أخذ يُكِبّ على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسى المشهورين من أمثال أبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى والمتنبى ، يدل على ذلك بوضوح الفصلُ الذى عقده الثعالبى لسرقاته . وكأنه أحسَّ أنه إنما خُلق لكى يكون شاعراً لا لكى يكون رفَّاء ، ولم تكن حرفته تدرُّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قد كانتِ الإبرةُ فيما مضَى صائنةً وَجْهى وأشعارى
فأصبح الرِّزْقُ بها ضيِّقًا كأنه من ثُقْبها جارِى

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرَّفْو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كُشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نَسْخه .

وكان معه فى الموصل فتيان أخوان ينظمان الشعر ويجيدانه ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسنان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كشاجم ، ليزيد حجمه وينفُق سوقه من جهة ، وليشنِّع عليهما بأنهما يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تخمد أبدا . ويسمع بما ينثره سيف الدولة الحمدانى فى حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فيشدّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بحضرته ، فاشتهر وطلع سعده بعد الأفول ، وبَعُدَ صيته بعد الخمول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله فى تصوير فرار الروم بين يديه ومَقْتلتِه فيهم مقتلةً عظيمة :

تركتَهم بين مصبوغٍ تَرَائِبُهُ من الدماء ومخضوبٍ ذَوَائِبُهُ
فحائدٌ وشهابُ الرُّمح لاحِقُهُ وهاربٌ وذُبابُ السيفِ طالِبُهُ

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفى سيف الدولة انتقل السَّرِىُّ إلى بغداد ومدح

---

(١) انظر فى ترجمة السرى الرفاء اليتيمة ١١٧/٢ الأدباء ١٨٢/١١ وابن خلكان ٣٥٩/٢ والنجوم الزاهرة وتاريخ بغداد ١٩٤/٩ والأنساب للسمعانى ٢٥٥ ومعجم ٦٧/٤ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ،إذ نفق شعره وراج وسار فى الآفاق ، وتهاداه الأدباء فى خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته فى نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الدُّرَّة وكتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب . وقد أنشد الثعالبى من شعره فى اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومديحه ولهوه ومجونه ورَبيعياته وأوصافه وغزلياته وما يتغنَّى به من أشعاره . ويسوق له الثعالبى طائفة من أهاجيه فى الخالديين مدعياً عليهما أنهما يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أفى كلِّ يومٍ للغبيَّيْن غارةٌ ... تروِّع ألفاظى المحجَّلة الغُرَّا
فهلاَّ أبا عثمان مهلا فإنما ... يَغار على الأشعار مَنْ عَشِقَ الشِّعْرا
لأطفأتما تلك النجومَ بأسرها ... ودنَّسْتما تلك المطارفَ والأُزْرا
فوَيْحكما هَلاَّ بشطرٍ قنعتما ... وأبقيتما لى من محاسنه شَطْرا

ويكثر من اتهام الخالديين بتلك السرقة ، ويردد ذلك فى مدائحه وأنهما يبيعان أشعاره فى العراق ، وليتهما يبيعانها لمن يستحقها ، فإنهما يبيعانها بثمن بخس لكل من لقياه ، غير مقدرَيْن لقيمتها ، ولا واعيَيْن لقدرها ، ويزعم أن غارتهما على شعره غارة عامة للمديح وغير المديح ، يقول :

ذئبان لو ظَفِرا بالشِّعْر فى حرمٍ ... لمزَّقاه بأنيابٍ وأظفارِ
باعا عرائس شعرى بالعراق فلا ... تبعدْ سباياه من عُونٍ وأبكارِ
وما رأى الناس سَبْياً مثل سَبْيهما ... بيعتْ نَفيستهُ ظلما بدينارِ
والله ما مدَحا حيًّا ولا رثَيا ... مَيْتا ولا افتخرا إلا بأشعارى

ولا يزال يصف هذا السَّبْى الشعرى من عُون أو ثيبات وأبكار ، وكيف أن من هذا السبى جَرْحى لم تُضرب بحد سيف ، وأسرى لم تحمل على ظهور خيل . ويبكى تعبه فى نظم أشعاره ويشبهها بالرياض ويصور إشفاقها على أنفسها من هذين اللصين وسيوفها التى تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبى فصلاً لأهاجيه لابن العصب الملحى الشاعر وكان يتعصب للخالديين عليه ، وهو فى هجائه له يقذع إقذاعاً شديداً زاعماً مشاهدة أهل الرِّيَب فى منزله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يعيش فى منزل إنما يعيش فى حانة ، يقول فى وصف دعوة دعاه فيها ساخراً :

وطاف الشَّيْخُ بالدَّنِّ إلى ... أن نَزفَ الدَّنَّا
فأدْنى كدرَ العيشِ ... بها لا كان ما أدْنى

مُدامٌ تجلب الهمَّ ولا تَطْرده عنّا
فلا النفسُ بها سُرَّتْ ولا القلبُ لها حنّا

وهى سخرية قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والنهتك واطراح الحشمة فى صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سبًّا يؤذى النفوس . وفى رأينا أن هجاءه ينزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة فى فنى المديح والغزل ، وكان يتغنّى بشعره فى بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بنفسى مَنْ أجودُ له بنفسى وَيَبْخلُ بالتحية والسلامِ
وحَتْفى كامنٌ فى مُقْلتَيهِ كُمونَ الموتِ فى حَدِّ الحسام

والصورة فى البيت الثانى بديعة . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت فى بغداد سنة ٣٦٠ وقيل سنة ٣٦٢ وقيل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له فى أخريات حياته .

ابن القَطَّان[1] البغدادى

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على دراسة الحديث النبوى فى نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأتقنها ، حتى عُدَّ من أطباء بغداد ، وكان كثير النوادر ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان غاية فى المجون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضى القضاة الزينبى بقصيدة كافية أولها :

يا أخى الشَّرْطُ أملَكُ لستُ للقَلْبِ أتْركُ

وهى طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها الألسنة ، فبلغ ذلك القاضى الزينبى ، فأحضر ابن القطان وصفعه وحبسه مدة ، ثم ردَّ إليه حريته . وكان يعرف كيف يخز فى هجائه وَخْزَ الإبر ، من مثل قوله فى الوزير أنوشروان ذامًّا له بالتواضع :

هذا تَواضعُك المشهورُ عن ضَعَةٍ فصرتَ من أجله بالكِبْرِ تُتَّهَمُ
قعدتَ عن أملِ الرَّاجى وقمتَ له فذا وثوبٌ على الطلاَّب لا لهمُ

(١) انظر فى ترجمة ابن القطان المنتظم ١٠/٢٠٧ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٦/٥٣ ولسان الميزان ٦/١٨٩ ومرآة الجنان ٣/٣١٥ والخريدة (قسم العراق) ٢ / ٢٧٠ وفوات الوفيات ٢ / ٦١٧ .

ويكثر مثل هذا الوخز ومايحمل من سخرية فى هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية فى الهجاء ، إذ لم يكن يعمد إلى السب والشتم ، إنما يعمد إلى سموم تفتك بمن تسلَّط عليه كقوله فى ابن المرخَّم قاضى القضاة ببغداد :

يا ابن المرخَّم صرتَ فينا قاضياً . خَرِفَ الزمانُ تُراه أم جُنَّ الفَلَكْ
إن كنتَ تحكمُ بالنجوم فربما أمَّا بشَرْعِ محمدٍ من أين لَكْ

وهو يُعَدُّ فى الهجاء وهزء ما بعده هزء بقاضى القضاة فى عصره . وله قصيدة طويلة فى هجاء كتَّاب الديوان لزمنه ، وكان بينهم عباسيون ، فتعرض لأحدهم يغمزه فى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جَدِّه ، قائلاً :

نسبٌ إلى العباس ليس نظيرُهُ فى الضَّعْف غَيْرَ الباقِلاء الأخضرِ

وضعف عود الباقلاء الأخضر معروف . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وأنت تَنْهَى الناسَ عن غِيبَةٍ فى مثلهـا تَأْمُرُ بالرَّدِّ
إما بتخويفٍ من النار أو بنوعِ تشـويقٍ إلى الخُلْدِ
وبعد ذا تفعلُ بى هكذا زِنْهارُ من سالوسك السَّرْدِ
وهذه العجمةُ مِنْ عندك اقْـتبسْتُها ما هيَ من عِنْدِى
ارجعْ إلى اللهِ ودَعْنى ولا تَرْمِ بِسَهْمِ الطَّيْشِ من بُعْدِ

فهو ينهى الناس عن الغيبة ويغتابه ، مع أنه كثيراً ما يلوِّح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس . والشطر الثانى فى البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمى ، وكلمة زنهار كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام المعسول البارد . وهو يستغيث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخراً إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمى اللسان لا تكاد تفصح فى البيان ، ويناديه هازئا به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر فى القصيدة الألفاظ والعبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخريات لاذعة بمن حوله ، كقوله فى وزير كان يستثقل وزارته وظلَّه :

يا معشر الناسِ النفيرَ النفيرْ قد جلس الهِرْدَبُّ فوق السَّرِيرْ
وصار فينا آمراً ناهيـاً وكنت أرجو أنه لا يَصير
فكلما قلتُ قَذًى يَنْجلى عنا وظلمةٌ قليلٍ تُنير

فتحتُ عيني فإذا الدولةُ الـ ـدولةُ والشيخُ الوزيرُ الوزيرْ

والهردب : العجوز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، ويراها غُمَّة على صدر الأمة لا تنجلي ، ويفتح عينه في كل يوم أو في كل صباح فيراها جاثمة لا تريم . ولعله كان يريد القاضي الزينبي الذي زَجَّ به في السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنئته ، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقَصَ . فلما رآه الزينبي يرقص أسرَّ إلى بعض خواصه : قبَّح الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في أمثالها : « ارقص للقرد في زمانه » . وبحق ما قاله الزينبي إذ نراه يقول في هجائه لبعض الرؤساء :

كلُّ من صفَّقَ الزما نُ لـه قمتُ أرقصُ

وكان بينه وبين الحَيْصَ بَيْصَ الشاعر بُغْض ومهاترة ، وكانا يصطلحان وقتاً ثم يعودان إلى ما كانا فيه من التنابذ والتهاجي تماجنا وتظرفا ودعابة ، فمن ذلك أن الحَيْص بَيْص خرج ليلة من دار الوزير الزينبي ، فنبح عليه جَرْوُ كلبةٍ . وكان متقلداً سيفاً ، فوكزه بعقب السيف ، فمات . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابي قتل أخوه ابناً له ، فقُدِّم إليه ليثأر منه وكان بيده سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات في ورقة وعلَّقها في عنق كلبة لها جِراء ، ورتَّب معها مَنْ طردها هي وجِراءها أو أولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة ، فأُخِذت الورقةُ من عنقها ، وعُرضت على الوزير ، فإذا فيها :

يا أهل بغدادَ إن الحَيْصَ بَيْصَ أتى بفعلةٍ أكسبتْه الخِزْيَ في البَلَدِ
هو الجبانُ الذي أبدى شجاعتَهُ على جُرَيٍّ ضعيفِ البَطش والجلَدِ
فأنشدتْ أمُّه من بعد ما احتسبتْ : دَمُ الأُبَيْلقِ عند الواحد الصَّمدِ
« أقول للنفس تأساةً وتعزيةً إحدى يديّ أصابتْني ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي »

وجَلْبُ ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ، فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخرية بالحيص بيص ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها إن أخي الحَيْص بَيْص الذي موقعه مني موقع إحدى يدي جنَى عليَّ سهوا وخطأ لا عمداً ولا قَصْداً لسوء ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعوَّض عن

فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسلسلاً إليه من تضمين البيتين فى مقطوعته ، فضلاً عما صوَّره به من الجبن والهلع إزاء جَرْوٍ مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت فى ابن القطان دعابة وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه فى يوم حر شديد فى شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : فى مطبخ سيدى النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طبيخ فى رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . ومازال يُطْرف البغداديين بنوادره حتى توفِّى عن سن عالية ببغداد فى عيد الفطر سنة ٥٥٨

٥

شعراء التشيع

مر بنا فى الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية أخذ يعم فى العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب ينتشر فى عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون فى موضوعين أساسيين هما : مناقب على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركى قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خَيْبر ، مضيفين إلى ذلك كلَّ مايُرْوَى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد فى سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثانى فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عامًّا فى كَرْبَلاء وبغداد ، وهيأ لذلك أن حاكم بغداد البويهى معز الدولة ألزم الناس – كما أسلفنا – فى سنة ٣٥٢ بغلق الأسواق فى يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القِباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل فى كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين فى أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ ندبهم فيها شكل هذا المأتم الكبير. على كل حال أعدَّت هذه المآتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسيا فى شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بذكرى مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية فى العصر ،

إنما حسبنا أن نشير إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطَّفِّ (كَرْبلاء) لجواد شُبَّر المطبوع فى بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثانى الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيرى كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية ، وفى مقدمتهم الزاهى [١] الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد فى بيان مناقب الإمام على بن أبى طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الخلق بَدْءًا وآخراً ... وألقيتُ رَحْلى فى حِماهم مُجاورا
أئمةُ حَقٍّ خاتَمُ الرُّسْلِ جَدُّهم ... ووالدهم من كان للحقِّ ناصرا

ومضى يذكر الأئمة الاثنى عشر واحداً واحداً مشيداً بهم إلى أن انتهى إلى مهديِّهم ، ويبكيهم ، ويمنى نفسه بظهور المهدى قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذى لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت فى السَّرِىِّ الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطفِّ قصيدة موجودة فى ديوانه يمدح فيها آل البيت ويبكى الحسين قائلاً :

كأنَّ أحشاءنا من ذِكْره أبداً ... تُطْوَى على الجَمْرِ أو تُحْشَى السَّكاكينا

ومثله أبو بكر محمد الخالدى الموصلى ، ومرَّ بنا أنه كانت بينه وبين السَّرِىِّ منازعة فى الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعيا إماميا مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطف ، ونرى الثعالبى فى اليتيمة ينشد له قطعة فى ندب الحسين يقول فيها [٢] :

عفَّرتمُ بالثَّرى جَبِينَ فتىً ... جبريلُ بعدَ النبىِّ ماسحُهُ
سيَّان عند الأنام كلِّهمِ ... خاذلُهُ منكمُ وذابحُهُ

وهو يُسَوِّى فى الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنايتهم واحدة فى رأيه . وكان طبيعيا أن تتكون مع هذا الندب والنواح فى بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النَّاحة ، ينوحون على الحسين فى يوم عاشوراء وغيره من الأيام [٣] ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى أحمد المزوِّق ، وكان يجد أكبر

---

(١) انظر فى ترجمة الزاهى اليتيمة ١/٢٣٣ وابن خلكان ٣/٣٧١ والنجوم الزاهرة ٤/٦٣ وتاريخ بغداد ١١ / ٣٥٠ والمنتظم ٧ / ٥٩ وأدب الطف ٢ / ٥٠ .

(٢) اليتيمة ٢/١٨٧

(٣) فى نشوار المحاضرة للتنوخى (طبعة هندية) بتحقيق مرجليوث ١/٢١٩ أن رجلا يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خُلْب كانا من الناحة على الحسين ، ومما كانا ينوحان به قصيدة لشاعر كوفى أولها :

أيها العَيْنان فيضا ... واستهلَّا لا تغيضا

مدد لنواحِه فى شعر الناشئ[1] الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦ ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله فى أهل البيت قصائد كثيرة ، ويقول ياقوت : «كان يعتقد الإمامية ويناظر عليها بأجود عبارة واستنفد عمره فى مديح أهل البيت حتى عُرف بهم» وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه الأشعار كان يناح بها فى مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المزوّق وغيره ، ويُروى أنه ناح يوماً فى أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشئ الأصغر ، وفيها يقول :

بنى أحمدٍ قلبى لكم يتقطَّعُ ... بمثل مصابى فيكمُ ليس يُسْمَعُ
عجبتُ لكم تَفْنُون قتلاً بسيفكم ... ويَسْطو عليكم مَنْ لكم كان يَخْضَعُ
كأنَّ رسولَ اللهِ أوصى بقتلكم ... فأجسامُكم فى كل أرضٍ توزَّعُ
فما بُقْعَةٌ فى الأرض شرقاً ومغرباً ... وليس لكم فيها قتيلٌ ومَصْرَعُ

وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشئ قصيدة باثية يدعو فيها للأخذ بثأر الحسين كان النامس ينوحون بها فى أيامه ببغداد وفى مشهد الحسين بكربلاء ، وفيها يقول :

متى تأخذون الثأرَ ممن تألَّبوا ... عليكم وَشبُّوا الحربَ وهْىَ ضُروبُ
شهيدٌ توزَّعْنَ الصوارمُ جسمَه ... فخرَّ بأرض الطَّفِّ وهْو تَريبُ
قتيلٌ على نَهْرِ الفُراتِ على ظَمَا ... تطوف به الأعداءُ وهْو غَريبُ

وأرض الطف : كربلاء . وتريب : معفّر بالتراب . والناشئ الأصغر يشير إلى سفك دم الحسين بكربلاء ، ويمضى فيشيد بالأئمة الأولين : على والحسن والحسين الذين حَوَوا - فى رأيه - علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حَوَوْا علمَ ما قد كان أو هو كائنٌ ... وكلَّ رشادٍ يبتغيه طلوبُ
وقد حفظتْ غَيْبَ العلوم صدورُهم ... فما الغيبُ عن تلك الصدور يغيبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن التعاويذى ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين فى القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم صفات أئمة الشيعة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية باثية للحسين ، إن صح أنها له كما مرَّ بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

(١) انظر فى الناشئ الأصغر اليتيمة ٢٣٢/١ ومعجم الأدباء ٢٨٠/١٣ وابن خلكان ٣٦٩/٣ ولسان الميزان ٢٣٨/٤

لعظم المحنة فيه . ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعى فى فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبه ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفى بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنبه شعراء العراق بعد المتنبى ، وهم الشريف الرضى ومهيار وابن أبى الحديد .

الشريف الرضى [1]

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبى أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوى ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المنزلة عند خلفاء بنى العباس والبويهيين ، وتولى نقابة الطالبيين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولا الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثمُ ولد له الشريف الرضى سنة ٣٥٩ ولما شبَّا كانا ينوبان عن أبيهما فى النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر فى المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصابىء عهدا بذلك . وكانت تربط الشريف الرضى بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقْبض على الخليفة فى سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعفى والد الشريف الرضى من وظائفه فى سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضى تلك الوظائف جميعا سنة ٣٨٨ وأبوه حى .

وقد تتلمذ الشريف لعلماء عصره فى بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبى على الفارسى وابن جنى والمرزبانى فى اللغة والنحو ، والقاضى عبد الجبار فى الاعتزال ، والشيخ المفيد فى الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يَتْرك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها ، يدل على ذلك كتابه فى التفسير الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع والذى سماه حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ، وبالمثل أقبل على كتب الحديث النبوى يَنْهَلُ منها ، على نحو ما يتضح فى كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذى جمع خطب الإمام على فى الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا فى كتابنا « العصر الإسلامى » لما داخله من وضع .

---

(١) انظر فى ترجمة الشريف الرضى اليتيمة ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والذمية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ وإنباه الرواة ١١٤/٣ والمنتظم ٢٧٩/٧ والوافى بالوفيات ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشذرات ١٨٢/٣ ومرآة الجنان ١٨/٣ وروضات الجنات ص ٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ وراجع فيه عبقرية الشريف الرضى لزكى مبارك والشّريف الرضى لإحسان عباس . والديوان مطبوع طبعات مختلفة فى بمباى والقاهرة وبيروت .

وكان ذكيا ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس . ويُرْوَى أنه أُحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافى النحوى وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو ، وقعد معه يوماً فى حلقته - كما يقول مترجموه - فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمرا » فما علامة النصب فى عمرو ؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص) . فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق فى عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبى ، ويمضى مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلَّى مع مَحْتده الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبيين : من مضى منهم ومن غَبر ، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق ، وسيشهد بما أجريه من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القِدْح ، الممتنع عن القَدْح ، الذى يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جَناها ، ويبعد مداها » . ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه » . وقد توفى ببغداد ودفن فى الكرخ سنة ٤٠٦ وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاته نُقل إلى مشهد الحسين فى كربلاء .

ويدل شعر الشريف الرضى على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبى فقد أكبَّ عليه يقرؤه المرة والمرات ، محبًّا له متعاطفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه مايستحقه ، وكان المتنبى كما مرَّ بنا يريد أن يكوِّن دولة عربية . والدهر يناهضه ، وكان الرضى يشعر فى أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين . وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر - مثل مديح المتنبى - بالفخر والشكوى من الأيام التى لا تنيله مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عطفاً أميرَ المؤمنين فإننا فى دَوْحةِ العَلْياء لا نتفرَّقُ
ما بيننا يومَ الفَخار تفاوتٌ أبداً كِلانا فى المعالى مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ ميَّزتْك فإننى أنا عاطلٌ منها وأنت مطوَّق

وظل شعوره بأحقيته فى الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطْبع - كما طُبعت أشعار المتنبى - بالتذمر من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلم به شيء من يأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبى فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة ، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُرَبَّى به

الشباب ، إذ يدلع فى أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى فى هذه الأبيات من قصيدة :

لغير العُلا منى القِلَى والتجنُّبُ ... ولولا العُلا ما كنت فى الحبِّ أرغبُ
وإن تَكُ سِنِّى ما تطاول باعُها ... فلى من وراء المَجْدِ قلبٌ مُدَرَّبُ
وحسبىَ أنى فى الأعادى مبغَّضٌ ... وأنى إلى غُرِّ المعالى محبَّبُ
وللحِلْم أوقاتٌ وللجهل مثلُها ... ولكنَّ أوقاتى إلى الحلم أقرب[1]
ولا أعرف الفَحْشاء إلا بوصفِها ... ولا أنطق العَوْرَاءَ والقلبُ مُغْضَبُ[2]

وتموج أشعاره بمثل هذا الفخر الذى يُضْرم جذوةَ النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعاً إلى النهوض بجلائل الأعمال . وجامعة ثالثة تجمعه بالمتنبى هى استشعار البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربى أصيل ، نفس إحساس المتنبى الذى دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيبه ، كذلك صنع صنيعه الرضىُّ . فهو دائم التغزل بالبدويات ، دائم الافتتان بهن والتغنى بجمالهن وحسنهن الطبيعى ، وله فى ذلك أشعار بديعة من مثل قوله :

يا ظَبْيَةَ البانِ تَرْعَى فى خَمَائلِهِ ... لِيَهْنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مَرْعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربِهِ ... وليس يُرْويك إلا مَدْمَعُ الباكى
سَهْمٌ أصاب ورامِيه بذى سَلَمٍ ... مَنْ بالعراق لقد أبعدتِ مَرْماكِ[3]
حكتْ لِحاظُكِ ما فى الرِّيم مِن مُلَحٍ ... يومَ اللِّقاء فكان الفَضْلُ للحاكى
أنتِ النعيمُ لقلبى والجحيمُ له ... فما أمرَّكِ فى قلبى وأحْلاكِ

وهو نسيب رقيق كنسيب العذريين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يبثُّ فيه يأسه من آماله فى الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللائى يتعثر فى شباك هواهن ، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبِّه . وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد فى الشريف الرضىِّ ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لرثائه جده الحسين ، وفى الديوان مراث كثيرة لأم الرضىِّ وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأبى إسحق الصابئ ، وله فى جده الحسين خمس مراث ، وهو يتسع أحياناً فى بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتفى بأن نعرض أهمها فى رأينا ، وهى آخر مراثيه لجده ، وأعتقد أنه أراد بها النُّواح عليه وأن ينشدها النَّاحةُ فى بغداد وكَرْبلاء ، وهو يستهلها بقوله :

---

(١) الجهل هنا : الغضب
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة
(٣) ذوسلم : موضع بالحجاز . والسلم : شجر من العضاه .

كَرْبَلا لازلتِ كَرْباً وبَلا ما لَقِى عندكِ آلُ المصطفىَ

ويصوِّر الموقعة وما سال فيها من دماء طاهرة ودموع جارية ، والنساء اللائى كن مع الحسين يمسحن الرمل عن نحرْه الملطَّخ بالدماء ، ولم تلبث الوحوش أن طعمت من أشلاء القتلى أرجلاً طالما قامت إلى الصلاة وأيْماناً طالما رُفِعَتْ إلى السماء ووجوها طالما تَبَتَّلَتْ إلى الله ، وينشد :

يا رسولَ الله لو عاينتَهم وهمُ ما بين قَتْلَى وسِبَا
لرأتْ عيناكَ منهم منظراً لِلْحَشَا شَجْواً وللعيْن قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا أمَّةَ الطُّغْيانِ والبَغْى جَزَا
غارسٌ لم يأْلُ فى الغَرْسِ لهم فأذاقوا أهلَهُ مُرَّ الجَنَا
جَزَرُوا – جَزْرَ الأضاحِى – نَسْلَهُ ثم ساقوا أهْلَهُ سَوْقَ الإما[1]

وهو يصوِّر رَكْب الحسين ، أما الرجال فسُفِكت دماؤهم الذكية ، وأما النساء فسِيقوا سبيَّات محمولات على ظهور الإبل دون مهاد أو كساء يَسْتَرحن عليه ، فيا للظلم وياللقسوة ، وهن مشعَّثات الشعور مكشوفات الوجوه والأعناق يهتفن باسم رسول الله ، ولا من يُشْفِق عليهن أو يرحم . ويقول الرضى : أهكذا يكون جزاء رسول الله فى سبطه وآله ؟ يَغْرِس وتُفْتَحُ لدينه الحنيف الأرض ولا يذوق أهله سوى الحنظل ، بل إنهم لَيُذْبَحُون ذبح الأضاحى ، يُذْبح الرجال ، وتساق النساء سَبِيَّات ، ويتجه الرضى إلى جده الحسين منشداً :

يا قتيلاً قوَّض الدهرُ بهِ عَمَدَ الدينِ وأعلامَ الهُدى
قتلوه بعد علمٍ منهمُ أنه خامسُ أصحاب الكِسا[2]
مرهقا يدعو ولاغَوْثَ له بأبٍ بَرٍّ وجَدٍّ مُصْطفى
وبـأمٍّ رَفَع الله لهـا عَلَماً ما بين نِسْوان الوَرَى
مَيِّتٌ تبكى لـه فاطمـةٌ وأبوها وعلىٌّ ذو العُـلا
لو رسولُ الله يَحْيا بعـده قَعَدَ اليومَ عليه لِلْعَـزَا

والقصيدة كلها لوعات وأنات على هذا النحو ، وعُنى الرضى برصف كلماتها بحيث لا تعلو على أفهام العامة ، ولتكون صالحة لكى يردِّدها الناحة . وجعلت هذه السهولة

(١) الأضاحى : ذبائح عيد الأضحى . الإما : الإماء .

(٢) يشير إلى حديث ترويه الشيعة الإمامية : يقولون إن الرسول ﷺ ألقى كساء عليه وعلى السيدة فاطمة الزهراء وعلىٌّ وابنيه الحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عِتْرتى وأهل بيتى ، وبذلك سموا أصحاب الكِساء .

فى ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى ، وليست من الانتحال فى قليل ولا كثير ، إذ هى سهولة مقصودة لتخف على ألسنة الناحة والناس .

مِهْيار [1]

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْهِ الدَّيْلمىّ الفارسى الأصل ، وُلد على ما يظهر حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة ويغلب أن يكون ميلاده بعدها بقليل ، وليس لدينا معلومات دقيقة عن مسقط رأسه ونشأته ، فهل وُلد ببغداد وبها نشأ ، وكان بها مجوس كثيرون ، أو وُلد فى بلاد الدَّيلم ، وهاجر منها وحده أو مع أبيه ؟ . وأغلب الظن أنه وُلد ببغداد وتربَّى بها وتثقف . ولا نعرف من كانوا أساتذته وتخرَّج على أيديهم ، ويبدو أنه كان فيه ذكاء حادٌّ جعله يحسن العربية سريعاً . ويُرْوَى أنه كان يسكن فى الكرخ مستقرّ شيعة بغداد الإمامية ، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكى يدرس عقيدتهم ، حتى إذا أسلم انتظم فى سلكها .

ونظن ظنا أنه كان يحضر قبل اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية فى زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يُلْقى دروسه فى الكَرْخ . ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظنا أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة فى ديوانه ، ونراه يذكر فضل أبى العباس الضبى عليه فى إرشاده وهدايته إلى الإسلام ، إذ يقول فى إحدى مدائحه له :

هو المُنْقذى من شِرْك قومى وباعثى ... على الرُّشْد أن أُصْفِى هوايَ محمَّدا
وأترُكَ بيتَ النارِ يبكى شَرارُه ... علىَّ دما إذ صار بيتىَ مسجدا

والمظنون أنه زار أبا العباس الضبى حين كان وزيراً بمدينة الرَّىّ . على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضى . ولكن ليس من الضرورى أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً . ويقال إن الرضى أعانه فى أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة ، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط ، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه ، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب .

وإذا كنا ترددنا فى أن يكون إسلامه على يد الرضى فى سنة ٣٩٤ فما لا يقبل شكا أنه

---

(١) انظر فى ترجمة مهيار تاريخ بغداد ١٣ / ٢٧٦ والذمية ١ / ٢٨٤ والمنتظم ٨/٩٤ وابن خلكان ٥/٣٥٩ وعبر الذهبى ٣ / ١٦٧ والشذرات ٣ / ٢٤٢ والنجوم الزاهرة ٥ / ٢٦ والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٥٥ .

هو الذى رعاه أديبا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، فمضى معه يثقِّفه ويدرِّبه ، حتى خرَّجه شاعراً بارعاً . والرضىُّ بذلك يُعَدُّ استاذه الفنى ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسيج يلاحَظُ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غراره . وجهة ثانية لعلها أهم هى تمثُّلُ اتجاهاته الشعرية ، ونقصد اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والنزوع إلى التبدِّى أو النسيب والغزل بالبدويات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى ، بل يقف حجر عَثْرة دون أمانيه .

وكان الرضى يفخر بمحتده الشريف وعروبته العريقة ، فبماذا يفخر مهيار ؟ لقد اتجه بفخره فى بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعوبيا ذميماً ، على نحو ما يلقانا فى مثل قوله :

أُعْجِبَتْ بى بين نادى قَوْمِها ... أمُّ سَعْدٍ فضتْ تسألُ بِى
قَوْمىَ استولَوْا على الدهرِ فَتىً ... ومَشَوْا فوق رءوسِ الحِقَبِ
عمَّموا بالشمس هاماتِهمُ ... وبنَوْا أبياتهم بالشُّهُبِ
قد قَبَسْتُ المجد من خَيْرِ أبٍ ... وقبستُ الدينَ من خيرِ نبى
وضممتُ الفخرَ من أطرافهِ ... سؤدُدَ الفُرْسِ ودينَ العربِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر فى كتاب العصر العباسى الأول عند بشار ، وأخذ يَخْفت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية – كما أشرنا إلى ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى – وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعوبيين ومايدَّعونه من تفوق الفرس والروم على العرب فى الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبى عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجَيْهانى وزير السامانيين وكان يُظْهر الإسلام ويبطن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبدِّيهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنما وجد الجيهانى الفارسى فى مهيار مستجيباً له ، لا فى هذه الياثية وحدها ، بل أيضاً فى قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية ، ويملأ شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات ، مستلهماً فى ذلك أستاذه الرضىَّ ، بمثل قوله :

يا نسيمَ الصُّبْحِ من كاظمةٍ شَدَّ ماهِجْتَ الجوَى والبُرَحا (١)
الصَّبَا ! إن كان لابُدَّ الصَّبا إنها كانتْ لقلبى أرْوَحَا
يا نداماىَ بِسَلْعٍ هل أرى ذلك المَغْبَقَ والمُصْطَبَحا (٢)
اذكرونا مثل ذِكْرانا لكم رُبَّ ذِكْرى قرَّبتْ من نَزَحا
واذكروا صَبًّا إذا غَنَّى بكم شَرِبَ الدَّمْعَ وعافَ القَدَحا
قد عرفتُ الهمَّ من بعدكمُ فكأنى ما عرفتُ الفَرَحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار فى البناء اللفظى ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التى تحدثت عنها بالتفصيل فى كتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية فى شعره وأن اللفظة الحادة كانت تضلّ منه ، فكان يدور حول الفكرة دوراناً يصيب شعره أحياناً بغير قليل من الركاكة والإسفاف ، وكان مع ذلك يُطيل قصائده طولاً مسرفاً ، مما جعل رُقْعَتها تتسع أو قل رُقَعها ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل فى ذلك من الحشو والاعتراض . وحين أسلم أخذ يُكثر فى شعره من ذكر مناقب أهل البيت ورثاء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضاً من سَبِّ الصحابة رضوان الله عليهم ، ويُرْوَى أن أبا القاسم بن برهان النحوى قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك فى النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسيا وصِرْتَ تسبّ أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسى والرافضىّ فى النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث فى مطلعها شكواه من الزمن :

لَئِنْ نامَ دهرىَ دون المُنَى فلى أُسْوَةٌ بِبَنِى أحْمَدِ
بأكرمِ حَىٍّ على الأرض قامَ ومَيْتٍ توسَّد فى مُلْحَدِ
أتاكم على فَتْرَةٍ فاستقام بكم جائرين عن المَقْصِدِ
ووليٌّ حميداً إلى ربِّهِ ومَنْ سَنَّ ما سنَّه يُحْمَدِ
وقد جعل الأمرَ من بعده لِحَيْدَرَ بالخبَر المُسْنَدِ
وسَمَّاه مَوْلىً بإقرارِ مَنْ لو اتَّبع الحقَّ لم يَجْحدِ

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية فى مديح الرسول عليه السلام ، وهى تخلو

(١) كاظمة : موضع على الخليج العربى جنوبى العراق فى الكويت .
(٢) سلع : جبل متصل بالمدينة .

من أى حرارة ، وكأنها نثر لُفِّقت ألفاظه وهو فى البيتين الأخيرين يشير إلى ماتذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلى أو كما يسميه حَيْدَراً بالخلافة يوم غديرخُمّ ، إذ آخاه قائلاً - كما يروون - : علىٌّ منى كهرون من موسى ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه . وانصر من نصره واخذل من خذله . والأبيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تكاد تؤثر فى قارئها أى تأثير . وله فى رثاء على والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته . وفيها يقول :

وشهيدٍ بالطَّفِّ أبكَى السَّمَوَا ... ت وكادتْ له تزولُ الجبالُ
يا غليلى له وقد حُرِّم الما ... ءُ عليه وهْوَ الشراب الحلالُ
قُطِعتْ وُصْلَةُ النبىِّ بأن تُقْـ ... ـطَعَ من آل بيتهِ الأوصال
لم تُنَجِّ الكهولَ سنٌّ ولا الشُّـ ... ـبّانَ زُهْدٌ ولا نجا الأطفال
لهفَ نفسى يا آل طَه عليكم ... لهفةً كلُّها جَوًى وخَبال

وهو رثاء حار يمتلئ باللوعة والحسرة والنواح على الحسين ومن قُتل معه من آل بيته . ولمهيار مراث أخرى فى الحسين وآله تَجْمد فيها العاطفة فلا نار تتقد فى الأحشاء ولا لهب يستعر فى الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على فصالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يصل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ فى مهد عربى يمكّنه دائماً من تملك السليقة العربية فى التعبير والصياغة .

ابن أبى[1] الحديد

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبى الحديد ، ولد فى « المدائن » سنة ٥٨٦ لقاضيها وأحد العدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أديبين ، لهما أشعار مليحة » . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيّع جميعا ، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حى الكَرْخ الشيعى

---

(١) انظر فى ترجمة ابن ابى الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ ، فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن الفوطى ج ٤ ق ١ ص ١٩٠ وذيل مرآة الزمان (طبع حيدر آباد) ٦٢/١ والتكملة لوفيات النقلة للمنذرى (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد طبعت قصائده السبع العلويات فى إيران وطبعت مشروحة فى صيدا بلبنان وطبعت قصائده المستصريات ببغداد ، وله مؤلفات مختلفة ، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام على والفلك الدائر على المثل السائر

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات ، وهى فى مديح على بن أبى طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيعيا إماميا فى هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضيا غالياً فى الرفض ، إذ يخلع على الإمام علىٍّ صفات الله جل شأنه ، وكأنه حلَّ فيه وامتزج بذاته ، تعالى الله علواً كبيرا عما يلجّ فيه من مثل قوله فى علىٍّ أو كما يسميه حيدراً[1] :

والله لولا حَيْدَرٌ ما كانت الـ ـدُّنْيا ولا جَمَعَ البريَّةَ مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوَّءَتْ شُهُبٌ كنَسْنَ وجَنَّ ليلٌ أدْرَعُ[2]
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافَعٍ والصُّبْحُ أبْيَضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ
وإليه فى يوم المعادِ حسابُنا وهْو الملاَذُ لنا غداً والمفْزَعُ

فعلىٌّ علة الوجود من أجله خُلِقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجُنَّته ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو – يومَ البعث – الذى سيحاسِبُ الناس على ما قدمتْ أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف فى حق الذات العلية ، فعلى ليس علة الكون والوجود ، فمثله مثل البشر جميعاً ، حقا هو صحابى جليل ، ولكن ذلك لا يرفعه على بشريته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (قل لا يعلم مَنْ فى السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ) وقوله : (عالمُ الغيب فلا يُظْهر على غَيْبه أحداً) . وبالمثل زعم ابن أبى الحديد أن الناس يعرضون على الإمام على ابن أبى طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جَلَّ شأنه .

ويتمادى فى علوياته الرافضة ، فيتعرض بالبهتان على أول من صدَّق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه فى الهجرة ، على الصديق أبى بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم فى السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم فى مرضه ونرى ابن أبى الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبا بكر كى يقيم للناس الحج ثم عزله[3] ، وهو لم يُعزَلْ إذ أقام الحج فعلاً للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم سبع

---

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا بلبنان) ص ١٠١ .
(٢) كنسْنَ : سرن ، جن : دجا . أدرع : مظلم .
(٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص ٤٦ .

عشرة صلاة ، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبضْ نبىٌّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبى بكر الصديق على أمور المسلمين فى الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبى الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة[1] . كما عزله عن الحج . وكل هذا غلو فى البهتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً فى تاريخ غير معروف تماماً ، ويبدو أنه تخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسى ويديج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها فى السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان أُلحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسيا ضد العلويين يَحْطب فى حبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله فى المستنصر :

يا بنى هاشمٍ بكمْ يغفرُ اللَّـ ـهُ الخطايا وَيْقبل الأعمالا
أنتمُ بالنبىِّ أولى فإنْ شَـ ـكَّ جهولٌ فَلْيقرأ الأَنْفالا
وإليكم إرثُ النبىِّ تناهى وإليكم سرُّ الإلٰهِ تعالى

وقد يقال إن البيت الأول عام فى بنى هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث فى البيت الثانى أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعالى فى سورة الأنفال : (وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ فى كتاب الله) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام فى الميراث وأن العم وهو العباس يحجب ابن العم وهو على بن أبى طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول فى البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الأبيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشيعه عامة ، حتى لنراه يقول فى المستنصر :

وأنت الدَّهْرُ يخفضُ كلَّ عالٍ بقوَّتِهِ ويُمْسِكُ كلَّ هارِى[2]
ويُبْرِمُ ما يشاءُ بلا اعتسافٍ وينقض ما يشاء بلا اقتسارِ

وكأنه تمثل فيه ثانية غلوّه السالف فى على بن أبى طالب ، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويبرم الأمور وينقضها نقضاً .

ولا يزال يعمل فى دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمى وزير المستعصم وكان شيعيا فيستحثه على

(١) نفس المصدر والصفحة .
(٢) هارى : متصدع يوشك أن ينهدم .

شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه ، وهو فى هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة على للرسول عليه السلام [١] ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل [٢] ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغضّ من الشيخين العظيمين أبى بكر وعمر [٣] . ومعروف أن لها عند الله الدرجة العظمى بما أدَّيا للدين الحنيف من خدمات جُلَّى ، كُتبت – ولا تزال تكتب – فيها المجلدات الضخام .

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة (طبعة أبو الفضل إبراهيم بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٢ /٥٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٥٦ .

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ١٠/٢٢٦

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يَخْلُ شاعر من شعراء اليتيمة والدُّمْية والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَغَنَّى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التى تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلئ تاريخ الشعر العربى بأبطال لهذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يتَجرَّعون غصصه فى صبر ، مهما ألمَّ بهم اليأس ومايُطْوَى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وَجْد لا يشبهه وجد وخطوب لا تدانيها خطوب . وهم دائما من العشاق العذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقدسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التى يتغنون فيها بسحرها سِحْرًا يشغلهم عن كل شىء وعن كل مَتاع فى الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب العذرى العفيف الذى يتحول فى قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، وأصبح ظاهرة عامة فى بوادى نجد والحجاز طوال العصر الأموى ، وظل حَيًّا بقوة فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسى الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك بشارو أبونواس . غير أن الشعراء التالين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث ، بما أشاعوا فى غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبى تمام والبحترى وابن الرومى وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر فى بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين . ولعل ذلك هو الذى دفع المتنبى فى أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر فى غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى ببغداد فى أوائل شبابه يتهالكن على اللهو ويُسْرِفن فيه ، فصمم – كما مرَّ بنا – أن يتخذ البدويات الأعرابيات موضوعا لغزله ، حتى يردَّ إلى الغزل فى أيامه العفة والسمو والنبل والارتفاع عن الجسد والغريزة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وحتى يذيع فيه أريج الوجدان النقى الأفلاطونى البرىء ، كما يذيع فيه شَذَا الحنان الذى يكتظ به الغزل العذرى عند العرب وما يُطْوَى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر الملتاع الذى شدَّه المتنبى إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره مستخرجا منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك فى ترجمته ، على شاكلة قوله :

خُذِى نَفَسِى يا ريحُ من جانب الحِمى ... ولاقِى به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاك الجوِّ حَيًّا عَهِدْتُهُ ... وبالرغم منى أن يطولَ به عَهْدى
ولولا تداوِى القلب من ألم الجوَى ... بذكر تلاقينا قضيتُ من الوَجْد
وما شَرِب العُشَّاق إلا بَقِيَّتى ... ولا وَرَدُوا فى الحبِّ إلا على وِرْدِى

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته النجدية ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقى نفسه من جانب الحمى بِقِطْعٍ من النسيم المعطَّر بِشَذَا صاحبته ، نسيم ربى نجد الذكىّ ، وإنه ليشعر بآلام ثقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء ذكريات لقائهما ، ولولا هذا الدواء لمات أسى والتياعا . وياله من عاشق شرب كأس الحب ، حتى لم يُبْقِ لغيره منها سوى الثمالة ، وكأنه أبُ العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما يَرِدُ على وِرْدِه وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدُّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ، كما مرَّ بنا فى ترجمته ، صَابًّا فى أشعاره منه ألحانا كثيرة من مثل قوله :

قُلْ لجيرانِ الغَضَا آءٍ على ... طِيب عيْشٍ بالغَضَا لو كان داما
نَصِلُ العَامَ ولا ننساكُمُ ... وقُصارى الوَجْد أن نَسْلُخَ عاما
حَمِّلوا ريحَ الصَّبا نَشْرَكمُ ... قبل أن تحملَ شِيحاً وثُمَامَا
وابعثوا أشباحكم لى فى الكرَى ... إن أَذِنْتم لجفونى أن تناما

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيح والثمام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة . والقطعة تفيض بالحنين لصاحبته وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينساهم ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل فى أن تحمل ريح الصبا نَشْرهم العطر حتى يردَّ إليه روحه ،

ويتمنى أن يرى صاحبته ولو خيالا أو شبحا فى النوم حتى تملأ نفسه بهجة وغبطة . ولصُرَّدُرَّ أشعار نجدية أو فى نجد ومحبوباته بها بديعة ، من مثل قوله فى مطلع قصيدته الهائية التى أشرنا إليها فى حديثنا عن شعراء المديح :

وقفنا صفوفًا فى الديارِ كأنها ... صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها
يقول خليلى والظِّباءُ سَوَانِحٌ ... أهذى التى تَهْوَى ؟ فقلتُ نظيرها
ويا عجبى منها يَصُدُّ أنيسُها ... وَيدْنو على ذُعْرٍ إلينا نَفُورها
ووالله ما أدرى غداةَ نَظَرْنَنَا ... أتلك سهامٌ أم كئوسٌ تُديرهاُ
فإنَ كُنَّ من نَبْلٍ فأين حَفيفُها ... وإن كنَّ من خمرٍ فأين سرورُها
أراكَ الحِمىَ قُلْ لى بأىِّ وسيلةٍ ... وَصلتَ إلى أن قَبَّلَتْكَ ثغورُها

وتصوير صُرَّدر نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديار كأنهم سطور بديع ، ولا نكاد نمضى معه حتى نشعر بروعة التصوير ودقة المشاعر . فصواحبه والظباء جنس واحد يدنو وحشيُّهُ مذعورا ويصد أنيسه نفورا ، ولا يدرى ما الذى أودعته ظباء الإنس –حين نظرن اليهم – قلوبهم وأفئدتهم ، هل أودعتها نُبْلا قاتلا ، أوكئوسا من خمر تلذ الشاربين . ويظل فى حيرته ويتساءل إنها إن كانت نَبْلا فأين حَفيفها ودويُّها ؟ وإن كانت كئوسا فأين سرورها ومتاعها . ويلتفت إلى شجر الأراك وبراهنّ يتخذن منه المسواك ، فيسأله مذهولا كيف وصل إلى ثغورهنّ . وكلها حيرات تصور لوعات هذا العاشق المفتون ، ومن بديع غزلياته قوله :

نُسائل عن ثُمامةِ بِحُزْوَى ... وبانُ الرَّمْل يعلم مَنْ عَنَيْنا
وقد كُشِفَ الغِطاءُ فما نُبالى ... أصرَّحْنَا بذكركِ أم كَنَيْنا
بنفسى راميَاتٌ ليس تَفْنَى ... نصُولُ سهامهنَّ إذا رَمَينا
وأمسينا كأنا ما افترَقْنا ... وأصبحنا كأنا ما التقَيْنا

إنه يمشى على استحياء فى ديار صواحبه بحزوى يسأل عن نبات الثمام ، وكل شيىء فى الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيئة سرِّه ، فقد كشف الغطاء وذاع السر المخبوء . وإنه ليفدى بروحه من رمته بسهامها ، ويقول إن سهامها لا تفنى أبدا ، فهى ما تنى ترسلها على المعجبين والمحبين . والبيت الأخير حكمة بديعة تصدق على كل شىء فى الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع .

وهذا الوجد فى شعر الغزل البدوى وما يثير فى النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوى إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبهم للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع فى الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير معبِّر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنىَّ لهم ! ، فضوا يتغنون به فى حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله فى صفين متقابلين ، ويقف منشد بينهما ، يرتِّل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمه الصوفية وتارة مما نظمه الشريف الرضى ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتهما البدوية النجدية فى الغزل ، لما أحسوا فى هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهى سعة تلاحظ أيضا فى الغزل الصوفى ، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هيأ لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفى ، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجدانى الصافى ، على نحو ما سنرى عند الحاجرى والتِّلَعْفَرِىّ .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوى الذى شدَّه المتنبى إلى فيثارته ظل الشعراء بعده لافى العراق وحده بل فى جميع الأقاليم العربية يشدُّونه إلى قيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووَجْدهم وما يثيران فى القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت ينابيعه تفجرا فى مقدمات المدائح النبوية التى أخذت تجرى على كل لسان منذ القرن السابع الهجرى . ومرَّ بنا فى الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغنى الجوارى والحرائر فى بغداد لزمن أبى حيان التوحيدى ، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعمائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنين بأشعار غزلية تَدْلع الوجد والحنين واللوعة فى قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتتفتَّت قلوبهم وتتحدر دموعهم ويعلو نحيبهم ، ومنهم مَنْ يسقط مغشياعليه ،ومَنْ يَلْطم وجهه ويخرِّق ثيابه أو يمزِّقها ، ومن يضرب الأرض بقدمه أو بجسده ويُرْغى ويُزبد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يُعَدّون أو قل لا شك أنهم كانوا يُعَدُّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يزلزلون الأرض – كما يقول أبوحيان – بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودمائثهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبيعى أن يتكاثر شعراء الغزل فى هذا العصر كما تكاثروا فى العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعدَّاهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومَن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة فى القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله [1] لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرَف بلهٍ ، وقيل بل لأنه كان غاية فى الذكاء فلقِّب بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بَخْتيار ابن عبد الله المولَّه أى الهائم صبابة وعشقا ، وحُرِّفت الكلمة فى بعض الكتب فقيل المولد بدلا من المولد ، وهو تحريف واضح . وذكره العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف يتزيَّ بزيِّ الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يغنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغانى) القدماء ، فهم يتهافتون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحوَّم على عَذْب المشرب » . ثم قال أنشدنى لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زارَ مَنْ أحْيَا بزورتهِ والدُّجَى فى لَوْنِ طُرَّتهِ
يا لها من زورةٍ قَصُرَتْ فأماتتْ طولَ جَفْوَتهِ
آهِ من خَصْرٍ له وعلى رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيقَتِهِ
يالَهُ فى الحسن من صَنَم كلُّنـــا من جاهليَّتهِ

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لخفتها ، والدقة واضحة فى تشبيهاته وطباقاته ، وأيضا فى مراعاته للنظائر فى الكلمات كما فى البيتين الأخيرين . وقد جعل محبوبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جمالها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلهم عابد لها مسحور . والكلمات والأبيات معدَّة حقا للغناء ، إذ كان أستاذا فى زمنه من أساتذة الأغانى ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادى فى شعره بين الصناعة والرقة وله ديوان شعر بأيدى الناس » وقال ابن الجوزى فى المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنه ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله فى مطالع إحدى قصائده :

يا بَرْقُ إن تجْفُ العقيقَ فطالما أغنتْه عنك سحائبُ الأجْفانِ
هيهات أن أنسى رُبـاك ووقفةً فيها أُغِيرُ بها على الغَيْران
ومُهَفْهفٍ ساجى اللَّحاظِ حفظتهُ فأضـاعنى وأطعتُه فعصـانى
يُصْمِى قلوبَ العاشقين بمقلةٍ طَرَفُ السِّنان وطَرْفُها سِيَّان

(١) انظر فى ترجمة الأبله المنتظم والنجوم الزاهرة فى ٢٤٤/٢ وعبر الذهبى ٢٣٨/٤ والشذرات ٢٦٦/٤ . سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤٦٣/٤ والوافى للصفدى

ما قام معتدلا يهزّ قوامَهُ إلا وبانَتْ خَجْلَةٌ فى البانِ

وفى الأبيات انسياب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب البرق المختفى مع السحاب عن ديار صاحبته بأن سحائب الأجفان ودموع العيون حرية أن ترويها ويقول إنه حفظ صاحبته فأضاعته ، وأطاعها فعصته ، ويعقد صلة بين طَرْفها وطرف السنان ، فكلاهما يصمى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبته لا يشبه قوام شجر البان فى اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يَسْرى فيه خجل وحياء شديد لحسن قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبابةَ إلا مَنْ يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضى فى عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفى بالحديث عن ابن المعلم والحاجرى والتلعفرى ، إذ هم أهم من نظم الغزل فى العصر ، وقد استطاعوا النفوذ فيه إلى ضرب جديد من الشعر الوجدانى يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرِّح الذى يستأثر بالقلوب والأفئدة .

ابن المعلم [1]

هو أبو الغنائم نجم الدين محمد بن على المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهُرْث من أعمال واسط جنوبى العراق سنة ٥٠١ وتوفى بها سنه ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، فقصد بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سِبْط ابن التعاويذى بعامل التنافس . وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : « متقدم الهُرْث شعره الديباج الملمَّع المعلم ، طرازه المعنَّى الممنَّع المحكم ، فلفظُه السوارُ ومعناه المِعْصَمُ . كلامه حُلْو حالٍ ، عالٍ غالٍ ، صَفْو من الرَّنَق خالٍ . . فأين مهيار من أسلوبه ! لو عاش شرب من كوبه » . ويقول ابن خلكان : « كان شاعرا رقيق الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رقته . . وأكثر القول فى الغزل والمدح وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعانى ، يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه السامعون » . وأتاحت له رقة شعره الوجدانى صلة وُثْقَى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

---

(١) انظر فى ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم العراق ٤ / ٢ / ٤٣٠ وابن خلكان ٥ / ٥ والوافى بالوفيات ٤/١٦٥ وعبر الذهبى ٤/٢٧٩ والشذرات ٤/٣١٠ والنجوم الزاهرة ٦/١٤٠ وانظر ص ١٠٢ .

الرفاعى ، فكانوا يتغنون بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبهم الصوفى ، ويقول ابن خلكان : « سمعت جماعة من مشايخ البطائح (يريد أصحاب الرفاعى) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المنتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعى وغنوا بها فى سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجملة فشعره يشبه النَّوْح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه » . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النَّوْح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقى فى تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التى لا تنطفىء فى فؤاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشقى به المحب ويبكى وينوح ولا مغيث ولا مخلِّص ولا معين ولا أمل فى لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَضَى من أهل نَجْدٍ أَرَبَهْ ... لم يَهِجْ نَشْرُ الخُزَامى طَرَبَهْ
عَلِّلُوا الصَّبَّ بأنفاس الصَّبا ... إنها تَشْفِى النفوسَ الوَصِبَهْ
فَهْى إن مرَّتْ عليه نشرَتْ ... ما انطوى عنه وجَلَّتْ كُرَبَهْ
كلفى فيكم قديمٌ عَهْدُهُ ... ما صَباباتى بكم مُكْتَسَبَهْ
عن جفونى النومَ من بَعَّدَهُ ... وإلى جسمى الضَّنَا مَنْ قَرَّبَهْ
فَصِلُوا الطَّيْفَ إذا لم تصِلوا ... مُسْتَهاماً قد قطعتم سَبَبَهْ

فهو لم يقض أربا من صاحبته ، وذلك هو مصدر لهفته ولوعته ، وإنه ليتمنى أن تمرَّ به أنفاس الصَّبا مَحمَّلة بنشرها علَّها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه لَيكْلَفُ بها أشد الكلف ، كلَفاً كأنما فُطر عليه ، فهو يعذبه ويُشقيه ويسهده ويُضنيه ، وإنه ليتمنى أقل التمنى : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أنَّى له ، وهو لا ينام ، بل يظل ليله – مثل نهاره – يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذى أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيلا . وينشد له العماد قطعة من كلمة له سارت وأنجدت وغارت حتى شدا بها الشادى ، وحَدا بها الحادى ، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوُجْد [1] وأصحاب القلوب الهوى والوَجْد ، وهى مطلع لإحدى مدائحه وفيها يقول :

تَنَبَّهِى يا عَذَباتِ الرَّنْدِ ... كم ذا الكَرَى ؟ هبَّ نسيمُ نَجْدِ
مرَّ علَى الروضِ وجاء سَحراً ... يَسْحَبُ بُرْدَىْ أَرَجٍ وبَرْدِ

(١) الوجد : اليسار والسعة

حتى إذا عانقتُ منه نَفْحَةً عاد سَمُوماً والغرامُ يُعْدِي
واعجباً منىَ ! أستشفى الصَّبا وما تزيد النارَ غيرَ وَقْدِ
أَعَلِّلُ القلبَ بِبانٍ رامةٍ وما ينوب غُصُنٌ عن قَدِّ
وأسأل الرَّبْعَ ومَنْ لى لو وَعَى رَجْعَ الكلام أو سَخَا بِرَدِّ
أأقتضى النَّوحَ حماماتِ اللِّوى هَيْهاتَ ما عند اللِّوى ما عِندى
بانوا فلا دارُ العقيق بعدهم دارٌ ولا عَهْدُ الحِمَى بعَهْدِ

والقطعة تكتظ بحب محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعا بنيرانه ، وبينما هو فى آلامه وغصصه التى يتجرعها محزونا إذا نسيم نجد يهبُّ محملا بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سَموما ، بل سُمًّا . ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحا سموما ساخنا ، وإنه ليزيد نار حبه وَقْدا واشتعالا . ويتلفت يسأل الربع عن محبوبته ، وليس عند الربع من جواب ، وإنه ليئنّ وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتئن معه ، فهو أولى من اللِّوى بالأنين والنواح ؛ إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام ، فقد رحلت صاحبته ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شىء ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى فى فنِّها وحلاوتها وحسنها كما يقول العماد الأصبهانى :

أُرْقىَ وهْو المحبُّ المستهامُ ما يُداوَى بالتعاويذ الغـــــرامُ
قَصُرَتْ عن بُرْئِهِ أيدى الأسَا كيف حَسْمُ الداء والداءُ عُقامُ [1]
يا لَدِيغَ الحدَقِ النُّجْلِ متى تجدُ البُرْءَ وحاميهِ الحُسامُ
ودواءُ الحب فى شَوْك القَنا مُتْ لَديغاً كلُّ دِرْياقٍ سِمامُ
قل لُنوَّام الغضَا عن ساهرٍ مَنْ تجافاه الهوى كيف ينام
غِبْتُمُ بالشمس عن ناظرِهِ والضُّحى مثلُ الدُّجى كلُّ ظلام

فحبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويذ والرُّقَى ، وقد عجزت عن برئه وشفائه أيدى الأسا والطب والعلاج ، إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للديغ الحدَق النُّجْل الساحرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم فلا يَدْرى المصاب به أيشرب رَحيقاً شافيا أم سُمًّا قاتلا . ويتجه إلى أهل الغَضا يشكو سهاده وجفاء محبوبه ، فقد غابوا بشمسه عن

(١) الأسا : المداواة والعلاج . عقام : لا يشفى منه .

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجاه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وأصبح كل شئ قِطَعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعبثا يرى نور محبوبته فقد أرْخىَ الظلام من حوله سُدوله ولم يعد هناك أمل فى انفراجه ، وهو يئنُّ وينوح نواحا لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل فى ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجدانى كان خليقا أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج فى حنايا صدورها وقلوبها من الحب الإلهى وكل مايُطْوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظمأ لا ينتهى إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته – كما تصوَّر شيوخهم – بركةُ أنفاسهم ، أو كما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الربانى الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ فى وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مرَّ يوما على ابن الجوزى وهو يعظ الناس وهم مزدحمون فى مجلسه ، وكان عجبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منوها به .

الحاجرى(١)

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سِنْجر بن بَهْرام بن جِبْريل بن خُمارتِكين بن طاشتِكين الإربلى المعروف بلقبه الحاجرى نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها فى شعره ، فنُسب إليها . وهو إربلى الأصل والمولد والمنشأ ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئا عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندى من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شىء من اليسار ، إذ لا نراه فى ديوانه مشغولا بممدوحين مختلفين يُهْديهم أشعاره ، إلا ماكان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا بإربل ، ولعله أراد أن يستلَّ من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء فى مقدمة مدحته إنه كان السبب فى مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل فى سنة ٦٢٦ بينما كان الحاجرى معتقلا فى قلعتها لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذى دبَّر له هذا الاعتقال ، وله فى ذلك أشعار يشكو فيها من حبْسه مثل قوله :

قَيْدٌ أُكابِدُهُ وسِجْنٌ ضَيِّقٌ يا ربِّ شابَ من الهمومِ المَفْرِقُ

ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك.

---

(١) انظر فى ترجمة الحاجرى ابن خلكان ٥٠١/٣ (١٧/٥) منه مخطوطات كثيرة ، وهو حرى بأن يحقق والنجوم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ وديوانه تحقيقاً علمياً .
طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان

المعظم مظفر الدين كوكُبوريّ والى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ وتقدم عندَه وتزيَّا بزيٍّ الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠ فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت فى مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدرى أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهيرة ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها فى شوال سنة ٦٣٢ ويقدّر ابن خِلّكان عمره بخمسين سنة . ويقول : «له ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والمواليا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قلّ من يجيد فى مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصّر فى الباقى ، وله أيضاً «كان وكان» واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له فى غير هذا الموضع .

وأول ما نقرأ فى ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا ، وفيه يقول :

ما للدموعِ تسيلُ سَيْلَ الوادى ... أحَدَا بِرَكْبِ العامريَّة حادى
نعم استقلُّوا ظاعنين وخلَّفوا ... ناراً لها فى القلب قَدْحُ زِناد[1]
ما كان أطيبَ للوداع عناقَنا ... لو لم يكن منا عناقَ بِعاد
يا سائقَ الوَجْناء غيرَ مقصِّر ... بطوى المفاوز من رُبًى ووِهاد[2]
مالى إليك سوى التحية حاجةٌ ... تلقى سُعادَ بها ودارَ سُعاد
عَرِّجْ برامةَ إنَّ رامةَ منتهى ... أملى وغايةُ بُغْيتى ومرادى[3]
يأيُّها الرَّشَأ الذى بلحاظهِ ... دَعَجٌ يصول به على الآسادِ[4]
الله فى كَبِدِى التى أحرقتَها ... عَبَثاً بجمرة خَــدِّك الوقَّادِ

ويلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفد الديوان جميعه بما فيه من مخمسات ودوبيتات أو رباعيات . وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالمدويات الذى قرأناه عند المتنبي والشريف الرضي ومهيار ، وكأن الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذى سميناه بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين ثَرٍّ لا يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد فى قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقته صاحبته إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

---

(١) قدح الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين .

(٢) الوجناء : الناقة الشديدة .

(٣) رامة : موضع بالبادية

(٤) الدعج : اشتداد السواد والبياض فى العين

بتحية رقيقة ، وإنه ليذكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعطفاً لكبده التي أحرقتها بجمرة خدِّها الوقاد ، ونحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبته يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو الريق ، يقول :

ويلاه من بَـرْدِ رُضَابٍ لهـا أشكو إلى العُذَّال منه الحريقْ

وهو في أثناء هذا الحريق الذي يأخذ فؤاده من كل جانب يلتاع لوعات ممضة ، كان يروِّع منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التي تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبته في رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إنَّ الأُلَى رحلوا غداةَ مُحَجِّرٍ ملئوا القلوبَ لواعجَ الأحزانِ
نزلوا برامةَ قاطنين فلا تَسَلْ ما حلَّ بالأغصان والغِزْلانِ
فلأبعثنَّ مع النسيم إليهمُ شكوى تَميل لها غُصونُ البان
يا عاذلي فيمن أحبُّ جهالةً عنى إليك فليس شأنُك شاني
لمْ لا أحِنُّ إلى الحجازِ صبابةً ويجودُ دمعُ العينِ بالهمَلان

فقد رحلت صاحبته عنه وتركته بحاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت رامةَ فأخجلت بقدِّها وجمال عينيها الأغصان والغزلان ، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقُّ له وتذكره ، ويلتفت إلى عَذوله ينهاه أن يتعرض له فليس من دربه ، وليس ذلك من شأنه ، ويتساءل إن كل محب ليصبو قلبه إلى الحجاز ونازليه ، ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هي لغة الشعر الوجداني الذي ينساب في النفس انسياباً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صوَّر فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبته كأقوى ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً :

أأحبابَنا بِتُّمْ عن الخَيْف فاشتكتْ لبُعْدكمُ آصَالُها وضُحاها
كأنكمُ يومَ الرحيلِ رحلتمُ بنومي فعيني لا تُصيب كَراها[1]
رعى الله ليلاتٍ بطيب حديثكم تقضَّت وحيَّاها الحَيا وسقاها
فما قلتُ إيهٍ بعدها لمسامرٍ من الناس إلا قال قلبيَ آها
متى تنقضي أيامُ ذلِّي وأجْتَنِي ثمارَ وصالٍ قد حُرِمْتُ جَنَاها
وأستصحبُ القومَ الذين بمهجتي لفقدهمُ نارٌ يَشِبُّ لَظاها

(١) الكرى : النوم .

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلمُّ ليلا بطرفه ، وهو يذكر ليلات سمره مع صاحبته ويدعو لها مذيبا فى دعائه حنينا حارا ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحيانا لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأ الهموم أحشاءه ، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبته ويقتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التى تستعر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعانى والوجد والصبابة كقوله فى فاتحة مخمس :

خليلىّ عُوجا بالغُوَيْر وكُثْبِهِ ولا تمنعا المشتاق من لَثْم تُرْبِهِ
هو الصبُّ يُصْبيه الهوى دون صَحبِهِ خُذَا من صَبا نَجْدٍ أماناً لقلبِهِ
فقد كاد ريَّاها يطير بلُبِّهِ

والغوير : ماء فى بادية الشام ، والديوان يطفح بأسماء المواضع والمنازل فى نجد والحجاز . وفى ديوانه رباعية يُذيب فيها وجده وحبَّه قائلا :

حيَّا وسَقَى الحِمىَ سَحابٌ هامى ماكان ألذَّ عامَهُ من عامِ
يا علوةُ ما ذكرتُ أيامكمُ إلا وتظلَّمَتْ على الأيام

وقد نوه القدماء طويلا بما فى شعره من انسياب موسيقى رائع ، وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفى دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات فى مدح خير البريات » وهى مجموعة من المدائح النبوية ، لم يضمنّ ديوانه منها شيئا .

التَّلَعْفَرِىّ [1]

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّلَعْفَرِىّ نسبة إلى « تلّ أعفر » بين سِنْجار والموصل ، ويروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكّام والأمراء على عادة الشعراء فى عصره ، ولم يكتف بأمراء موطنه ، فقد اتجه بمديحه أيضا إلى أمراء الشام ،

---

(١) انظر فى ترجمة التلعفرى ابن خلكان ٧/ ٤٠ ، ٤٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٥ / ٣٤٩ وديوانه طبع قديماً وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/ ٥٤٦ والنجوم الزاهرة فى القاهرة وبيروت ٧/ ٢٥٥ ، ٣٧٢ والفلاكة والمفلوكون ص ٢٦٥ .

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبى الذى ظل مستولياً على صولجان الحكم فى دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيرا من العطاء الجزل ، غير أن التلعفرى كان مغرًى بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجعه فى ذلك كثيرا ، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر ، وفى ذلك يقول :

أقلعتُ إلا عَنِ العُقارِ وتُبتُ إلا مِنَ القِمارِ
فالكأسُ والقَمْرُ ليس يخلو منهـا يمينى ولا يسـارى

ولما أعيت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبُها الملك الناصر الأيوبى ، فقرَّبه منه ، وجعله من جُلسائه ، وقرَّر له راتبا ، راجيا أن ينوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة فى دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بثيابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادَى فى حلب من قِبَل السلطان : « مَنْ قامر مع الشهاب التَّلَعْفَرِىّ قطعنا يده » فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفى ، وظل بها يستجدى ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديدا . ورحل إلى مصر فى هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتفى به وأضفى عليه عطاء وفيرا أتاح له بأخرة من حياته عيشا كريما . وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إذا ما باتَ من تُرْبٍ فِراشى وبتُّ مجاورَ الربِّ الكريمِ
فَهَنِّئونى أُصَيْحابِى وقولوا لك البُشْرى قدمتَ على رَحيمِ

وليس فى الديوان مدحة من مدائحه ، إلا ما قد يشير إلى بعضها فى الأبيات التى يختتم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلا ، وهو غزل من طراز غزل الحاجرى ، أو هو بعبارة أدق شعر وجدانى يسيل رقة وعذوبة وسلاسة ، وكأنه الماء النمير حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما ابُتلى به من القمار ، وهو فيه يجرى على هذا النمط الوجدانى الرائع :

أىّ دَمْعٍ من الجفون أسالَهْ إذ أتتْه مع النسيم رِسَالَهْ
سَلْ عقيقَ الحِمىَ وقُلْ إذ تراه خالياً من ظِبائهِ المختالَهْ

أين تلك المراشفُ العَسَلِيَّا تُ وتلك المعاطفُ العسَّالَهْ (١)
ولـيـالٍ قضيتُهـا كلآلٍ بغزالٍ تغارُ منه الغَزالَهْ (٢)
بابليّ الألحاظِ والرِّيقِ والألـ ـفاظِ كلٌّ مُدامَةٌ سَلْسَالَهْ
وسقيم الجفون والخَصْر والعَهـ ـدِ فكلٌّ تراه يشكو اعتلالَهْ
أوقعَ الوهمَ حينَ يَرْمِي فلمَ نَدْ رِ يداهُ أم عَيْنُهُ النبَّالَهْ

والقصيدة كلها تموج بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق ، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعرا ووجدا وهياما ، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر ، وكأن كلا منها تجذب صاحبتها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرابة . وتلك الألحاظ والريق والألفاظ لصاحبته جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفتورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخصر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبته فهى تُدِلُّ عليه ولا تفى بوعدها ، وهكذا يشكو كلٌّ سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشعراء سهام العيون وكيف تصمى الأفئدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدى الفاتنة ، فلا يدرى أحد من أين يأتى النبل أمن الأيدى أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبى صاحبته قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوِّبانها إلى العاشقين المفتونين . وله يصور ألم الفراق .

إنى لأعجُب من محبٍّ مُشْغَفٍ عَيْشا له من بعد حَثِّ الأينُقِ
يأيُّها الحادى بِعَوْدِك سالماً ألا رثيتَ لشملنا المتمزِّقِ
أرِحِ المطيَّ وها فؤادى فاقتبسْ وامْنُنْ علىّ وها دموعى فاستَقِ
ليسَ التعجبُ من رقادى – إذ مضى – فيه ولكنْ من جميعى إذ بَقِى
لدلالهِ ذُلِّى بـهِ ولحبِّـهِ وهواه ما يَلْقَى الفؤادُ وما لَقِى

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبته ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستقِ من دموعه التى تتدافع سيلا مدرارا . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبته ولا يعجب من سهاده فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، وإنه ليتذلل ويضرع أسى ووجدا . وكل ذلك شعر وجدانى وقف عليه التلعفرى – مثل أستاذه الحاجرى مواطنه – حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العزّازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) العسليات : المنسوبة إلى العسل ، وأراد بالمعاطف القوام . العسالة : اللينة .
(٢) الغزالة : الشمس .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجدانى ، على نحو ما يتضح من قوله فى مطلعها :

ليس يُروِى ما بقلبى من ظَمَا   غيرُ بَرْقٍ لائحٍ من إضَمِ [١]
إن تبدَّى لك بانُ الأجْرَعِ [٢]
وأُثَيْلاتُ النَّقَا من لَعْلَعِ [٣]
يا خليلى قِفْ على الدار معى
وتأمَّلْ كم بها من مَصْرَعِ
واحترزْ واحْذَرْ فأحداقُ الدُّمَى   كم أراقتْ فى رُباها من دَمِ

وللحاجرى موشح فى ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح فى موسيقاه ورصف ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفرى يتفوق على الحاجرى فى روعة شعره ، فالحاجرى هو الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبَّدها للتَّلعفرى ، وهما جميعا يجلِّيان فى غزلها تجلية بديعة . ويقول ابن تَغْرى بَرْدى عن التلعفرى إنه كان يتشيع ، ولكنه لم يفسح لنحلته فى شعره .

٢

شعراء اللهو والمجون

مرَّ بنا فى حديثنا عن المجتمع فى الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس فى الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو واحتساء الخمر فى مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد فى بغداد . وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص ، وفى يد كل منهم طاس مملوء خمرا يعبُّ منه عبًّا . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله فى اللهو والعبث ، ويصور محمد بن أبى المطهر الأزدى فى كتابه «حكاية أبى القاسم البغدادى» – الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع – بعض هذه المجالس فى القرن الخامس الهجرى وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إضم : الوادى الذى فيه المدينة المنورة .
(٢) البان : شجر . والأجرع : الرملة الطيبة المنبت . لعلع : ماء بالبادية .
(٣) أثيلات : شجر . النقا : القطعة من الرمل .

والورود وكيف كانت تهبّ للأنس رياح ، سحابها الأقداح ، وبرْقها الراح ، وقد نطقت ألسنة العيدان والنايات تسند غناء الجوارى والمغنين بألحانها الشجية ، ويطيل فى وصف الخمر وأن منها ماكأنه عُصر من خَدِّ الشمس ، وما هو أصفى من الماء ، وأرق من دمعة العاشق المهجور [١] . والكتاب إنما كتب فى وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه ، وينبغى أن لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هى صورة حياة طبقة خاصة هى الطبقة المترفة ، وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبَّبُ جبينه عرقاً كى تملأ هذه الطبقة بطونها وتملأ مجالسها بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والعبث ، غير أنها قلما تعدَّت أعياد المجوس والنصارى مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ماكان ببغداد من اللهو والمجون ، وأن نقصر ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحَسْبه منها ماكان يستمتع به من لهو فى بعض الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من لهو البغداديين وخروجهم إلى الرياض وتنزههم فى الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون ويتثالون (كأنهم إلى نُصُب يُوفضون) فينزلون الجوارى (السفن) فى رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصْده . . ويخترقون أشجاره ويقطفون ثماره ونوَّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره وينزلون غِيطانه وأنهاره ، ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان ، وتصفِّق الغُدْران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما دَسَع (امتلأ) الرَّاوُوقُ (دَنّ الخمر وطاسه) طاب المشوق . . وكلما طرب العود ، زمجرت الرعود ، وقد انتظموا فى سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أياما ، لا يطعمون مناما »[٢] ولم تكن حانات بغداد فى الكرخ ولا حانات المتنزهات وحدهما هما اللتان يجد فيهما عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمور بل كانوا يجدونها أيضا فى الأديرة .

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على ألسنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم يحاول أن يأتى فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الخمريات فى مجالس الوزير المهلبى ، ولعل جليسه القاضى أبا القاسم التنوخى كان المجلِّى بين ناظميها بمثل قوله فى

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهير الدين الكازرونى (طبع بغداد)

إحدى خمرياته[١] .

وراحٍ من الشمسِ مخلوقةٌ بَدَتْ لك فى قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولـكـنـه جـامـدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وهو تصوير بديع أن يجعل الخمر شمسا أو قطعة منها وماء غير جار والكأس نهارا وهواء جامدا . وكان كثيرون من أهل بغداد رجالا ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل على ذلك ما حكاه ابن خلكان – فى ترجمة صاحبها – عن الحسن بن عسكر الصوفى الواسطى قال : كنت ببغداد فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالساً على دكة بباب أبْرز للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبى ، فأنشدتُ متمثلا :

هواءٌ ولـكـنـه جـامـدٌ وَماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وسكتّ ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماما ؟ فقلت : ما أحفظ سواه ، فقالت : إن أنْشَدك أحدٌ تمامه وما قبله ماذا تعطيه ؟ فقلت ليس لى شىء أعطيه ، فأنشدتنى الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأمَّلتَها وهْىَ فيهِ تأملت نورا مُحيطاً بنارِ
فهذا النهايةُ فى الابيضاضِ وهذا النهاية فى الاحمرارِ

فحفظت البيتين منها . وإنما روينا ذلك لندل على ظرف الجوارى فى بغداد وأن سوق الخمريات كانت رائجة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعانى المبتكرة الطريفة كقول البَبَّغاء فى عِتْق الخمر[٢] :

وعريقة الأنسابِ والشِّيَمِ موجودةٌ والخلقُ فى العَدمِ
هى آدمُ الكَرْم المولَّد فى الـ ـدُّنيا وحَوَّا الخمرِ فى القِدم
ظهرتْ ونور الشمس فى فلكٍ من قبل خَلْق الصبح والظُّلَمِ
واشتُقّ معنى اسمِ السُّلافِ لها من كونها فى سالف الأمم

وبون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخى فى بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج الشعراء فى الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد أبى حيان التوحيدى غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهى تتشاجى وتتدلل وتتمايل وتتكسَّر متغنية بهذه الخمرية[٣] .

---

(١) انظر ترجمة القاضى التنوخى فى ابن خلكان ٣٦٦/٣ والجواهر المضية ومعجم الأدباء ١٦٢/١٤
(٢) اليتيمة ٢٦٢/١ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٧٣ .

مجلسُ صَبَّين عَميدَيْنِ ليسا من الحبِّ بِخِلْوَيْنِ
قد صيَّرا رُوحيْهما واحدا واقْتَسماه بين جِسْمين
تنازعا كأسا على لذَّةٍ قد مَزَجاها بين دَمْعين
والكأسُ لا تحسنُ إلا إذا أَدَرْتَها بين مُحِبَّيْنِ

ومن قديم أيضا يمزج الشعراء بين النشوة بالخمر والنشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلا كما مر بنا يشربونها على أبسطة الربيع وبين آسه ووردِه وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلا يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعيا أن يتحدث الشعراء فى خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين فى الربيع ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج فى الشتاء كقول الوزير المهلبى فى إحدى خمرياته [١] :

الوردُ بين مضمَّخٍ ومضرَّجٍ والزهرُ بين مكلَّلٍ ومتوَّجٍ [٢]
والثلجُ يهبطُ كالنِّثار فقُمْ بنا نلتذَّ بابنة كَرْمةٍ لم تُمزَجِ [٣]

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت لخمريات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضَتْ أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان . وكثير منه كان يُقْصَدُ به إلى التندر والدعابة فى أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن فى العصر ، وهو – لاشك – وصمة معيبة فى جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحى أصحابها من ذكر العورات والإسراف فى الفحش ، ونعجب الآن أن يُتَّخذ ذلك ضربا من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعياهم أن يُسرُّوا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التى تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادر ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدَّته ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئْ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئاً عن التورط فى الخمر فحسب وإنما أيضاً عن التورط فى وصف الفواحش والتصريح بالآثام فى غير استحياء . وكان الذى دفع إلى ذلك ابن سُكَّرة وابن الحجَّاج فى القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدَّرْك

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٣٧ .
(٢) مضمخ : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ بالحمرة .
(٣) النثار : ما ينثر فى حفلات العرس والسرور من نقود أو حلوى .

الأسفل من التصريح بالمآثم على نحو ما نرى فى خمريات عبد الصمد [١] بن بابك المتوفى بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عُقارٌ عليها من دَم الصَّبِّ نَفْضَةٌ ومن عَبراتِ المستهام فَواقِعُ
معوَّدةٌ غَصْبَ العقولِ كأنما لها عند ألباب الرجال ودائع
تحيَّرَ دَمْعُ المُزْن فى كأسها كما تحيَّرَ فى وَرْد الخدود المدامع

وقد أبدع فى تصوير فواقعها فى كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الولهان ، ويقول إنها استردَّتْ منه وديعتها ، ففارقه عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمر المحمرة فى كأسها وبين الدموع وتحدرها على خدود المحبوبة الموردة ، وله من أخرى :

يا صاحبىَّ امزُجا كأسَ المُدام لنا كيما يُضىء لنا من نورها الغَسَقُ
خمراً إذا ما نديمى همَّ يَشرَبُها أخشى عليه من اللألاء يَحْترق
لو رام يحلفُ أن الشمس ما غَرَبتْ فى فيه كذَّبه فى وجهه الشَّفَقُ

وخوفه على نديمه من الاحتراق فى لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس غربت فى فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حمرتها ، وكأنها تركت عليها شفقها أو بصماتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون فى الخمر متفننين فى معانيها محاولين بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن التعاويذى والحاجرى والتِّلَعْفرى وصفى الدين الحِلِّى . وانحصرت موجة المجون والفحش بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالفيهم وكادت تنحصر فى شعر هزلى مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع [٢] الدِّلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل قوله :

مَنْ مضَغ الأحجارَ أدمتْ فَكَّهُ فالضِّرْسُ لم تُخْلَق لتليين الحصَى
من قطَع النَّخْلَ وظلَّ راجيًا ثمارَها فذاك مقطوعُ الرَّجَا

وقد يحاول شاعر من باب الدُّعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف جدا من تماجنه وتعابثه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتفى ببيان عكوفه على الخمر وأنها كل لذته فى دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها فى ليالى رمضان

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الصمد اليتيمة ٣٧٤/٣ وابن خلكان ١٩٦/٣ وعبر الذهبى ١٠٢/٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٥/٤ والشذرات ١٩١/٣ . وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان ٢٥/٥ .

(٢) انظر فى ترجمة صريع الدلاء تتمة اليتيمة للثعالبى ١٤/١ وابن خلكان ٣٨٣/٣ وعبر الذهبى ١١٠/٣ والشذرات ١٩٧/٣ وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان ٦٥/٢ .

قبل سحوره ، وفى ذلك يقول ابن السَّوادى [١] من شعراء القرن السادس متماجنا :

الصَّبوحَ الصبوحَ فى شعبانِ لا تُخلُّوا به مع الإمكانِ
واسْقِنيها يوم الثلاثين فى الشَّـ ـكِّ وبعد السُّحور قبل الأذانِ

وبعد أن تماجن طويلا فى القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه وأنه بَراء من كل ما يصف به نفسه ، قائلا :

نِيَّتى غيرُ ما سمعتَ وماكا ن لسانى عن نِيَّتى تُرْجمانى

ومضى يذكر أن عُدَّته فى معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلى وفاطمة الزهراء والحسنين ، وبذلك محا كل ما جاء به فى قصيدته من تماجن ، مصرحا بعقيدته الشيعية وما يعتقده الشيعة فى شفاعة على والسيدة فاطمة والحسن والحسين . وما دمنا بصدد التماجن فحرى بنا أن نتوقف قليلا عند عَلَميه فى العصر : ابن سكرة وابن الحجاج .

ابن سُكَّرة [٢]

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادى الهاشمى ، وهو من سلالة على بن المهدى بن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى المشهور ، ويبدو أنه كان فى يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وتربيته وحياته إلا ما يصفه به الثعالبى فى اليتيمة من قوله : « هو شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الملح والطُّرف ، أحد الفحول الأفراد ، جارٍ فى ميدان المجون والسخف ما أراد . . ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت ، منها فى قينة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عُرْضة نوادره ومُلَحه . وحكى بعض معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته — وهى ابنة عمه — أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره فى هجاء خمرةَ ، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم ، فلا تفارقه مالم يقرض ولو بيتاً فى ذكرها وهجائها . وتدل الأشعار التى أنشدها له الثعالبى على شاعرية خصبة فى الغزل وغير الغزل من مثل قوله :

---

(١) راجع فى ترجمة ابن السوادى وشعره الخريدة (قسم العراق) ٣٦٩/١/٤ وابن خلكان ٤٨١/٣ . وتاريخ بغداد ٤٦٥/٥ والمنتظم ١٨٦/٧ وعبر الذهبى ٣٠/٣ وابن خلكان ٤١٠/٤ والشذرات ١١٧/٣ ومرآة الجنان لليافعى ٤٢٧/٢ والوافى ٢٠٨/٣ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/٣

حذارِ من وَصْلِ مَنْ بليتُ بهِ فقد لقيتُ الرَّدَى بِجَفْوتِهِ
دنوتُ منه كيما أقبّلَهُ فلم تَدَعْنى نيرانُ وَجْنَتِهِ

فقد جعل النيران المشتعلة فى وجنات محبوبته وخدودها تدفعه دفعا وتردّه ردا عنيفا ، ومن هذا النمط قوله متغزلا :

منعتْنى من مُقبّلِهِ حين أدنو منه عَقْرَبُهُ
واستدارتْ فَهْىَ تَحْرُسُهُ من فمى بُخْلاً وتَرْقُبُهُ

وكانت النساء تلْوى على أصداغها خُصلة من شعرها فى شكل عقرب تزينا وتجملا ، فاستغل ذلك حتى النهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع فى طرفها ،وكأنها تراقب صاحبتها وتستعد للدغ من يقترب من خدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه فى الغزل ، ونكتفى بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذى الذوق ، من ذلك قوله :

ويومٍ لا يقاسُ إليه يومٌ يلوحُ ضياؤه من غير نارِ
أقمنا فيه للذّات سُوقاً نبيع العقلَ فيها بالعُقارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهماك فى المجون والعبّ من الخمر وإنه ليقيم للمجون سوقا يبيع فيه عقله بيع وَكْسٍ بِدَنٍّ زهيد من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله :

اشربْ فاليوم فضلٌ لو علمتَ به بادرتَ باللهو واستعجلتَ بالطَّربِ
وردُ الخدودِ وورد الروض قد جُمعا والغيم مبتسمٌ والشمسُ فى الحُجبِ
لاتَحْبسِ الكأسَ واشْرَبْها مُشعْشَعَةً حتى تموت بها موتاً بلا سبب

وقد جعل كل شىء فى الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر وورد الخدود كما يقول وورود الرياض فى يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعابة مقصودة ، ومن قوله :

قد بدا الصبحُ مؤذناً بسُفورِ وفَرى الفجرُ حُلَّةَ الدَّيْجُورِ[1]
فاسْقنى قهوةً تترجم بالرِّقّـ ـةِ عن دمع عاشقٍ مهجورِ

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حباته المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملكة الشعرية التى رُزقها لحفظ لها حقها ولم يسقط فى شعر الفحش والمآثم ، ولا لطخ أشعاره بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة الوهم على نحو ما نرى فى قوله :

---

(١) فرى : شَقّ . الديجور : الظلمة .

قيل : ما أعددتَ للبَرْ دِ فقد جاء بشدَّه
قلت : دُرَّاعَةُ عُرْيٍ تحتها جُبَّـةُ رِعـدَه

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعرى دراعة وللرعدة من برد الشتاء جبَّة . وما أظنه كان يصور شيئا من حقيقة حياته ، فقد كان على غير قليل من اليسار . وكأنه فى البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفاقر وإظهار الخَصاصة ، وكان لها شعراء معروفون هم شعراء الكُدْية ، فجاراهما فى بيتيه تظرفا ودعابة . وقد توفى سنة ٣٨٥ للهجرة .

ابن الحجَّاج [١]

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جَدٍّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من العمال ، وعُنى بتربية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلا عن مجالس الأدب ، والتحق بالدواوين كاتبا ثم أصبح ضامنا لفرائض الصدقات بِشِقّى الفرات مدة ، ثم تولى حِسْبة بغداد فترة إلى أن عُزل بأبى سعيد الإصطخرى الفقيه الشافعى . وكان أكبر شعراء زمانه فى التماجن والتعابث ، وهو يخطو فيهما خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه «فرد زمانه فى فنِّه الذى شُهر به وأنه لم يُسْبَقْ إلى طريقته ، ولم يُلْحَق شأوه فى نمطه» وفيه يقول أبو حيان : «سخيف الطريقة بعيد من الجدّ ، قريعٌ (فَحْل) فى الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له فى قَرْضه مثال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار ، عن عادته الجارية فى الخسار ، وهو شريك ابن سكرة فى هذه الغرامة ، وإذا جَدَّ أَقْعَى [٢] ، وإذا هزل حكى الأفعى » ويقول صاحب اليتيمة : «هو وإن كان فى أكثر شعره لا يستتر من العقل بِسِجْفٍ [٣] ، ولا يبنى جُلَّ قوله إلا على سُخْف ، فإنه من سَحرة الشعر ، وعجائب العصر . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلْديين (أصحاب الحرف) والمكْدين (أدباتية العامة) والشطار . . وكلامه يمدُّ يد المجون فيعرك بها أذن الحَرَم ، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل ، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . . وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣٠/٣ والشذرات ١٣٦/٣ .
وتاريخ بغداد ١٤/٨ ومعجم الأدباء ٢٠٦/٩ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١٣٧/١ وابن خلكان ١٦٨/٢

(٢) أقعى هنا : قعد ولم يتم جده .

(٣) سجف : ستر .

الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصِّلات الجسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر . تحكمَ الصبي على أهله ، ويعيش فى أكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية » . وإلى ذلك يشير فى شعره مرارا ، وأنه بناه على التماجن والفحش للتفكه والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لو جَدَّ شعرى رأيتَ فيهِ كواكبَ الليلِ كيف تَسْرِى
وإنما هَـــزْلُـــهُ مجونٌ يمشى بِهِ فى المعاش أمرى

وقد عاش عيشة رَفَهٍ ويَسارٍ حتى توفى سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع فى حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقاذر قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته بَرْبخ » أى بالوعة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالنا بحكم الناس وراءه فى عصره وبعد عصره . وقد دعا بعض أصحاب الحِسْبة فى كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغى أن نشير إلى ماذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق فى التماجن ، وكأنه كان تماجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسبه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون الرَّدِّى فى بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله فى مديحه لبَخْتِيار الحاكم البويهى لبغداد فى عصره :

فَدَيتُ وجهَ الأميرِ من قمرٍ يحلو القَذَى نورُهُ عن البصَرِ
فَديتُ مَنْ وَجْهُهُ يُشَكِّكُنِى فى أنّه من سُلالة البَشرِ
إن زُلَيخا لو أبصرتْك لما ملَّتْ إلى الحشْر لذَّةَ النظرِ

ويستمر فى مثل هذا التماجن . وهو لا يطيق الصبرَ حتى مع بختيار فى تماجنه ، إذ يمضى فيلطخ المدحة فى أواخرها بشىء من قاذوراته . وكان شيعا إماميا ، وكان يشوب تشيعه أحيانا بشىء من الغلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختار من شعره قطعة تخلو من قذره وسخفه . ورثاه حين توفى رثاء حارا ، ومن خمرياته التى تخلو من فحشه وبذاءته قوله :

يا صاحبىّ استيقظا من رقدةٍ تُزْرِى على عقل اللبيبِ الأكْيَسِ

هذى المجرَّةُ والنجومُ كأنها نهرٌ تدفَّق فى حديقةِ نَرْجِسِ
قوما اسقيانى قهوةً روميَّةً من عهد قيصرَ دنَّها لم يُمْسَسِ
صِرْفاً تُضيف إذا تسلَّط حكمُها موتَ العقول إلى حياة الأَنْفُسِ

والصورة فى البيت الثانى جيدة إذ جعل نهر المجرة يتدفق فى حديقة نرجس ، وجعل الخمر فى البيت الأخير تميت العقول فى رأيه ، ولكنها تحيى النفوس . وله خمرية قالها فى عيد المهرجان ، وهى تخلو من مقاذره غير أن فيها تبجحا شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه الخمر مع ما جاء من تحريمها فى الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد فى هذه القصيدة أو الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه السلام والإمام على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين . وتكثر فى أشعاره الكدْية أو الشحاذة الأدبية . فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلا عن اللحم ، وأنه دائما يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقه من خشونته ، ودائما لا يجد صوفا يقيه برد الشتاء ولا خَيْشا يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعابة وفكاهة ، فقد كانت الدنانير والدراهم تنسكب عليه من كل جانب .

٣

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يُعَدّ الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم ، زهد فى طيبات الحياة ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه وتعبده لربه وبين السعى لرزقه . فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . وهو يضع ثقته فى الله ويتوكل عليه حق التوكل ، ولا يرى فى سعيه لكسب قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا فى العراق مع العصر الأموى طوائف من النساك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قديمان فى هذه البيئة ، وأخذت تتسع موجة الزهد مع العصرين العباسى الأول والثانى . وظلت حادة فى هذا العصر ، ولا شك فى أنها كانت أحدَّ وأكثر اتساعا وجمهورا بل جماهير من موجة اللهو والمجون . فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة فى الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث . وكان الشعب لا يشترك فى اللهو إلا فى مواسم خاصة كأعياد المجوس والنصارى . أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة ، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلا ونهارا . وكان يغذى هذه الروح فى المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم .

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون [١] المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان : كان وحيد دهره فى الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة » ومن قوله : «سبحان من أنطق باللحم ، وبصَّر بالشحم ، وأسمع بالعظم » إشارة إلى اللسان والعين والأذن . وإياه عَنَى الحريرى فى المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله فى أوائلها : « رأيت بالرَّىّ ذات بُكرة ، زمرةً فى إثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنّون [٢] استنان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه ، ويُحلُّون ابن سمعون دونه » ولم يكن له نظير فى زمنه . وكانت تعاصره ميمونة [٣] بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو فى الوعظ . وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات ، وكان بعضهن يعظن وبعضهن يُحْمَل عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزى فى كتابه « صفة الصفوة » لطائفة كبيرة منهن . وفى سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور « وبوعظه حَلَقَ أكثر الصبيان رءوسهم ولزموا المساجد وبدَّدوا الخمور وكسروا الملاهى » [٤] ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلى المارّ ذكره ويقول ابن رجب : « من معانى كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزى » . وفى كل بلدان العراق نلتقى بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارقى [٥] المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية ، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه ، وكان يضمنها أشعارا فى الزهد والوجد مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٤ /٣٠٤ وتاريخ بغداد ١ /٢٧٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٢ /١٥٥ وصفة الصفوة ٢ /٢٦٦ والوافى ٢ /٥١ .

(٢) مستنون من استن : جرى .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٠٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ٥/١٨٦

(٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك فى الخريدة (قسم الشام) ٢/٤٣١ ومابعدها والمنتظم ١٠/٢٢٩ والوافى ٤/٤٤ .

مَنْ كان فى ظلماءِ ليلٍ سارياً رَصَدَ النجومَ وأوقدَ المِصْباحا
حتى إذا ما البدرُ أشرق نورُهُ ترك السِّراجَ وراقبَ الإصباحا
حتى إذا انجاب الظلامُ جميعهُ ورأى الضياء بأُفْقِهِ قد لاحا
هجرَ المسارجَ والكواكبَ كلَّها والبدرَ وارتقبَ السَّنا الوضّاحا

وهى قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا فى مطلبه الأسنى من الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بَدْرُ الدراية والمعرفة أشرقَ على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسَّنا الوضاح فرأى عين اليقين ونهل من معين الحب الإلهى ورحيقه المصفى . وربما كان أكبر واعظ عرفته العراق فى هذا العصر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وقد وصف مجلس وعظه ابن جبير سنة ٥٨٠ وصفا مسهبا قائلا « شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر مجلس الشيخ الفقية الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشطّ بالجانب الشرقى فى آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص فى العلوم بالرتب العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة (يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة . مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضىّ الطباع مهْيارى الانطباع . وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقُسٍّ وسَحْبان . ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القرّاء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقَراً . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . وحَدِّثْ ولا حرج عن البحر ، وهيهات ليس الخبر عنه كالخُبْرِ . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج وتردد النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزّها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُغْشَى عليه ، فيُرْفَعُ فى الأذرع إليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكّرها هول يوم القيامة ،

فلو لم نركب ثَبَجَ (وسط) البحر ، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة . فالحمد لله على أن مَنَّ بلقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله[١] » .

وطبيعي أن يَنْهَى هذا الوعظ الذى كانت تتدفق جداوله فى المساجد الناسَ عن ارتكاب المعاصي وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد فى متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم . وكما كان للوعاظ فضل كبير فى سريان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل ، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد ، وكثيرا ما كانوا يثورون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النبيذ . وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكبسوا الدور وأراقوا الأنبذة[٢] وكانت الدولة لا ترى بدا من النزول على إرادتهم . وسِيَرُهُم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها ، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع . وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مرَّ بنا آنفا فى مقطوعة واعظ ميَّافارِقين وزاهدها محمد بن عبد الملك . وتمتلئ كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التى يصورون فيها عشقهم الإلهى ومكابدتهم معطِّلين لحواسهم وعقولهم بينما يتجلى الله فى كل الموجودات ، وهم سابحون فى بحار الوجد وبين أمواجه ، غارقون فى آلام حبهم وأشجانه ودموعه ، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعى صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة فى قوله :[٣]

إذا جَنَّ ليلى هامَ قلبى بذكركم ... أنوحُ كما ناحَ الحمامُ المطوَّقُ
وفَوْقِى سحابٌ يُمْطِر الهمَّ والأسَى ... وتحتى بحارٌ بالأسى تتدَفَّقُ

وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السُّهْرَوَرْدِيّ البغدادى فى الفصل الأول . وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم فى القرن السابع الهجرى ، وَوَلِيَ عدة رُبط للصوفية ، وكان فقيها عالما واعظا ، عقد مجلس الوعظ سنين ، ويُرْوَى أنه أنشد يوما فى تضاعيف وعظه[٤] :

لا تسقِنى وحدى فما عَوَّدْتَنِى ... أنى أشِحُّ بها على جُلَّاسى
أنت الكريمُ ولا يليق تكرُّماً ... أنْ يَعْبُرَ النُّدَماءَ دَوْرُ الكاسِ

---

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزى مذكورة فى صفحة ٣١٨ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٤/١ .

(٣) ابن خلكان ١٧٢/١ .

(٤) ابن خلكان ٤٤٦/٣ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهى . ومن غزله الصوفى :

تَصـرَّمَتْ وَحْشَةُ الليالى وأقبلتْ دَوْلةُ الوِصالِ
تقاصرتْ عنكمُ قلوبٌ فيالَهُ مورداً حَلاَ لى

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجاب عنه الحجاب ، وأضاءت مِشْكاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفى منذ ابن دريد فى أوائل القرن الرابع الهجرى مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية . وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر . ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر فى ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه . وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنُّها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامى محاولين – بكل ما وسعهم – أن يحيلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتى عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفى الوقت نفسه مضوا يمدحون النبي الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرما . ولم يكتف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم فى ذلك ديوانا مثل محمد بن أبى بكر بن رشيد الواعظ البغدادى فقد نظم فى مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوترية فى مدح خير البرية وهى تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم ، ونختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السرَّاج البغدادى والمرتضى الشهرزورى والصَّرْصَرىّ .

ابن السرَّاج البغدادى [1]

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السرَّاج البغدادى المقرئ المحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أو فى أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءاته وأقرأه سنين ، وعُنِى بالحديث النبوى ورحل فى طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرَّج له الخطيب البغدادى خمسة أجزاء تسمى

(١) انظر فى ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١٢٣ والمنتظم ٩/١١١ ومعجم الأدباء ٧/١٥٣ وابن خلكان ١/٣٥٧ .

السِّراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعرا مطبوعا ، واستغلَّ موهبته الشعرية فى نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسك الحج وكتاب الخِرَقى وكتاب التنبيه . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو فى أخبار العبَّاد والنساك ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح . وكان حَنْبليا حُمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزى « حدثنا عنه أشياخنا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبَرىّ ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها[١] » . وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء ، وكتب على كل جزء أبياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشَّاقِ ... صَرَعَتْهُمُ أيدى نوًى وفِراقِ
تصنيفُ مَنْ لدغَ الفِراقُ فؤادَهُ ... وتطلَّب الراقى فعزَّ الراقىَ

وكان تقيا ورعا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره فى نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفى الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذُرَى الهدى ، والترفع عن اللذات البدنية ،والشهوات الدنيَّة ، ومن قوله :

أفلحَ عبدٌ عصى هواهُ ... وفاقَ فى دينهِ وكاسا[٢]
ولم يَرُحْ مُدْمِناً لخمرِ ... يَنْهَلُ طاساً يَعُلُّ كاسا[٣]

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كيِّسا فلا يقع فى الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقى فى درجات الهدى بقمعه لشيطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجدانى من مثل قوله يصوِّر حنين ناقته لمنازلها فى نجد والحجاز :

قضتْ وطَراً من أرض نَجْدٍ وأمَّتْ ... عقيقَ الحِمىَ مُرْخىً لها فى الأزمَّةِ[٤]
وخبرَّها الروّادُ أنّ لحاجرٍ ... حَياً نوّرتْ منه الرياضُ فحنَّتِ[٥]
ولاح لهـا بَرْقٌ من الغَوْرِ مَوْهِناً ... كشعلةِ نارٍ للطوارقِ شُبَّتِ[٦]

---

(١) ابن خلكان ٢/٤٧٧ .

(٢) كاس : أصبح كيِّساً حكيماً حصيفاً .

(٣) النهل : الشرب الأول . الطاس : إناء الخمر ومثله الكأس . العلل : الشرب الثانى .

(٤) أمت : قصدت .

(٥) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : غيثاً .

(٦) الغور . غور تهامة وهو ما انحدر منها غرباً . موهناً : بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف .

وغنىَّ لها الحادى فأذكَرها الحِمَى وأيامَها فيهِ وساعاتِ وَجْرةِ (١)
وقد شَرِكَتْنى فى الحنين ركائبى وزِدْن علينا رنَّةً بعد رنَّةِ (٢)
ألا ليت شعرى هل تعود رواجعًا ليالى الصِّبا من بعد ما قد تولَّتِ

والحنين يجرى فى الأبيات كما يجرى الماء والخضرة فى الأغصان النضرة . وقد جعل ناقته أو دابته نفسها تحنُّ حنينا لا ينقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه فى نفسها ما يلوح لها من برق ليلا صادرا من جانب الغَوْر . وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنينَ شدوُ الحادى وغناؤه . فتذكر أيامها فى وجرة وغير وجرة . ويصرِّح بأن ناقته وركائبه تشركه فى الحنين ؛ بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فيأسى لها ولنفسه ، ويتمنى لو عادت ليالى الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب . ولم يبق إلا الوجد والحنين الذى يتَّقد فى فؤاده بمثل قوله :

حبَّذا نجْدٌ بِلاداً لم نجدْ راحةً للقلب فى أرضٍ سواها
فإذا ما لاحَ منها بارقٌ هاج أشواقىَ أو هَبَّتْ صَباها
لستُ أنْسَى إذ سُلَيْمَى جارةٌ تبذل الوُدَّ وتُصْفينا هَواها
أرسلتْ طيفَ كَرًى لكنَّه زارنا والعين قد زال كَراها (٣)

فنَجْدٌ راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليذكر أيامها وماكان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هبَّ نسيم صَباً هاجت به أشواقه ، وأعادت إليه ذكرى حبه لسليمى حين كانت تبادله الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجده ويحتمل آلامه ، باكيا ذارفا دموعه كما يقول :

بانَ الخليطُ فأدْمُعى وَجْداً عليهم تَسْتهلُّ (٤)
وحَدا بهم حادى الفِرا قِ عن المنازل فاستقلُّوا (٥)
قُلْ للذين تَرحَّلوا عن ناظرى والقلبَ حلُّوا
ما ضرَّهم لو أنْهلوا من ماء وَصْلهمُ وعَلُّوا

فأجابه رحلوا وحبَّات دموعه لا تزال تتساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

(١) وجرة : موضع بنجد .
(٢) الركائب : الإبل .
(٣) الكرى : النوم .
(٤) تستهل : تنصب .
(٥) استقلوا : ارتحلوا .

والدموع الغزيرة . لقد كان فى حلم غمره وملأ عليه فؤاده ، وأفاق منه على فراق أحبابه ، وإنه ليعلن إن كانوا قد رحلوا وبعدوا عن مرأى عينه فسيظل وفيا للعهد ، وسيظلون يحلُّون فى سويداء قلبه . ويفضى إلى اليأس قائلا : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكرهم بل سيظل حبهم فى قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة فى مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفى ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

المرتضى الشَّهْرَ زُورِىّ [١]

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفَّر الشهرزورى الملقب بالمرتضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفى بها سنة ٥١١ فى أرجح الأقوال . أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ماكان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقة الصوفية ولا لزم رِباطا من رُبطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا . صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما تبقى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للعماد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول فى تضاعيفها :

لمعتْ نارُهم وقد عَسْعَسَ اللَّيْـ ـلُ وملَّ الحادى وحارَ الدليلُ [٢]
فتأملتُها وقلتُ لصَحْبى هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا
وهْى تعلو ونحن نَدْنُو إلى أن حجزتْ دونها طلولٌ مُحُول [٣]
فدنونا من الطلول فحالتْ زفراتٌ من دونها وغَليلُ
قلت : منْ بالديار ؟ قالوا جريحٌ وأسيرٌ مكَبَّلٌ وقَتِيل [٤]
فحَطَطْنا إلى منازلِ قومٍ صرَعَتْهم قبل المذَاق الشَّمولُ [٥]
قلت : أهلَ الهوى سَلامٌ عليكم لى فؤادٌ عنكم بكم مشغولُ
جئتُ كى أصْطَلى فهل لى إلى نا رِكمُ هذه الغداةَ سبيلُ

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراها من بعيد فى الظلام الدامس وقد كلَّ الحادى

---

(١) انظر فى ترجمة المرتضى وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٢/٣٠٨ وابن خلكان ٣/٤٩ والشذرات ٤/١٢٤ ومرآة الزمان ٨/١٢١ والنجوم الزاهرة ٥/٢٣١ .

(٢) عسعس : أظلم .

(٣) محول : مجدبة .

(٤) مكبل : مقيد .

(٥) الشمول : الخمر .

لطول السُّرَى وحار الدليل المرشد ، وإذا النار أو قَبَسٌ منها يظهر فجأة ، فينادى صحبه : رأيت نار ليلى فميلوا ، وكلما جد فى السُّرَى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طلول محول ، ويحاول الدنوّ من الطلول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يجد فى الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومغلول فى القيود وقتيل . وينزل بين قوم شغفهم الحب الربَّانى ، بل لقد صرعهم قبل أن ينتشوا به ويذوقوا خمره . ويسلِّم ، ويقول إنه جاء يصطلى بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طلولها . إنها نار تضيىء للسارى بالليل ولا تُنال ، ومنتهى الحظ أن يتزود اللحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلَّف الصوفية على مر الحقب ، وقد أنشدها بكمالها ابن خلكان ، وقال إنما أثبتُّها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهى مطلوبة ، ويقول العماد فى الخريدة : « وجدت من كلام القاضى المرتضى أبى محمد الشهرزورى رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات فى رقة السلسال والشَّمول » وكأنه لم ينظم فى التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العماد لم يُعْنَ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عُنى بما جاء فى الرسالة من رقائق الغزل الصوفى من مثل قوله :

وعاودتُ قلبى أسأل الصبرَ وقفةً عليها فلا قلبى وجدتُ ولا صَبْرى
وغابتْ شموسُ الوصل عنى وأظلمتْ مسالكهُ حتى تحيَّرْتُ فى أمرى

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاع منه قلبه وعزَّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يهتدى ولا يجد من ينقذه . إنه محب مهجور قد حُرم وصله وخُطف منه أو أُسر قلبه ، ويقول :

يا لَيْلُ ما جئتكمُ زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطْوى لى
ولا ثنيتُ العزم عن بابكم إلا تعثرتُ بأذيالى

فهو دائما على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصل ولا لقاء ، ويملّ الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الإياب ، كأنما شىء يمسك بتلابيبه ، فكلما حاول الانصراف وأعياه الانتظار ورغب فى الرجوع تعثر فى أذياله فتسمَّر فى مكانه ، ومن قوله :

شكوتُ إليها ما بقلبى من الجوَى فقالتْ : وهل أبقى الفِراقُ له قَلْبا

فقلت : فهل لى فى وِصالكِ مطمعٌ فقالتْ : إذا ما شَمْسُنا طلعتْ غَرَبا
فقلت : فهل من زورةٍ يَجْتنى بها ثمارَ المنى ظمآنُ قد مُنِع الشُّرْبا
فقالت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ وخاضَ حِياضَ الموت واستسهلَ الصَّعْبا
وأصبحَ فينا حائرا ذا ضلالةٍ يُواصلنا بُعْداً ونهجرُه قُرْبَا

وهى محاورة بديعة بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الربانى . فمن يحب الذات العلية يفقد قلبه ولا يصبح له مطمع حقيق فى وصال ولا فى زورة يقتطف فيها ثمار المنى وينهل معها من الماء ما يطفئ ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد فى الوجود واقتحم حياض الرَّدَى لايبالى ، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريقَ يواصل من بعيد ويُهْجَرُ من قريب . ومن قوله يشكو آلامه وعذابه فى حبه الإلهى .

بقلبى منهمُ حُرَقٌ لها الأحشـــاءُ تحترقُ
ولا وصْلٌ ولا هَجْرٌ ولا نومٌ ولا أرَقُ
فليتهمُ وقد قطعوا ولم يُبْقوا علىَّ بَقُوا
فأفنى فى محبَّتهم وريحُ محبَّتى عَبِقُ
كمثل الشَّمْعِ يُمْتِع مَنْ ينادمـــــه ويَمْحِـقُ

فأحشاؤه تحترق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا يأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ، ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكتوى بنيران هذا الحب مؤملا - على طريقه الصوفيين - أن تنمحى حَوَاسُّه وأحاسيسه ، حتى يفنى فناء مطلقا فى الذات العلية ، فناء ينعدم فيه وجوده البشرى انعداماً تاماً ، كما ينعدم الشمع المضيىء ، وينمحق انمحاقاً خالصاً .

الصَّرْصَرِىّ [1]

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرْصرى ، نسبة إلى صَرْصَر : قرية قريبة من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان حنبليا ، ويصفه ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الربانى ، ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبَّاد ، كانت له اليد الطولى فى النظم وشعره فى غاية الجودة ، ويقول الصفدى عنه « صاحب المدائح النبوية السائرة فى الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر فى ترجمة الصرصرى ومدائحه النبوية ذيل مرآة الزمان للقطب اليونينى (طبع حيدر آباد) ١/٢٥٧ - ٣٣٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٧/٦٦ والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والشذرات ٥/٢٨٤ .

شاعرا أكثر من مدائح النبى ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عليا . يدخل شعره فى ثمان مجلدات وكله جيد» ويقول القطب اليونينى وابن تَغْرى بَرْدى : إن مدائحه فى النبى ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غير منشور وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدى أن بين مدائحه النبوية قصيدة التزم فى كل حرف منها ظاءً وثانية التزم فى كل حرف منها ضادا وثالثة التزم فى كل حرف منها زايا ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدى : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى فى المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وينوِّه بزوجاته أمهات المؤمنين وفى مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يتراءى فى نبوياته سُنِّياً حنبليا حتى ليعرض فى بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تغرى بردى أبياتا من همزية نبوية يقول فيها :

ياهلالَ السرور يا قمرَ الأُنْـ ـسِ ونجمَ الهدى وشمسَ البهاءِ
ياربيعَ القلوب يا قرَّة العَيْـ ـنِ وبابَ الإحسان والنَّعْماءِ

وهو يصدر فى القصيدة عن محبة للرسول عليه السلامْ شغَفت قلبه ، حتى ليراه كل جمال فى الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرة العين ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نَعْماء ، ويروى له الصفدى قطعة طويلة من مدحة خائية يقول فى تضاعيفها :

يا خاتمَ الرُّسُل الكرامِ وفاتحَ الـ ـخيراتِ يا مُتواضعا شَمَّاخا
يا مَنْ رَسَتْ وسمتْ قواعدُ دينهِ وبه هَوَى أمرُ الضلال وسَاخا
يا خيرَ مَنْ شَدَّ الرِّحالَ لقصدهِ حادى المطىِّ وفى هواه أناخا
عَطْفاً على عَبْدٍ تعلَّق حُبَّكم طفلا وفى صدقِ المحبَّة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفا ومتشفعا به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التى رواها القطب اليونينى أنه كان يصدر أحيانا عن نظرية الحقيقة المحمديه المعروفة ، إذ ذهب إلى أزلية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس فى يدنا الديوان لنحكم على الصرصرى حكما دقيقا فى هذا الجانب غير أن هناك بعض إشعاعات من الفكرة نلتقى بها عند اليونينى مثل قول الصَّرْصَرى عن الرسول :

هو سابقُ الأعيانِ إذ كُتِبَ اسْمُهُ بالعَرْشِ ثم استُودِعَ الألواحا

فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمداً حينئذ من نظرية الحقيقة المحمدية ، وبالمثل ما نجد عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام ، وأنه تنقل فى صلب آدم والأنبياء من بعده ، إذ يقول :

حَلَلْتَ صُلْبَ أبينا عند مَهْبطِهِ وصُلْبَ نوح وقد غَشَّى الوَرَى الزَّبَدُ (١)
وكنتَ فى صلبِ إبراهيمَ مستترا ونارُ نُمْرُودَ أشقى الخلقِ تتَّقِدُ (٢)
وحاز نوركَ إسماعيلُ يُودِعهُ أبناءَهُ الغُرَّ حتى حازهُ أُدَدُ (٣)

ويمضى الصرصرى فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المنزلة الرفيعة ، وما زال النور يتنقل حتى انعقد به على رأس هاشم إكليل فخر لا يشبهه إكليل . واتصل النور بعبد المطلب وابنه عبد الله ، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت فى المشارق والمغارب . .

وكانت وفاة الصرصرى سنة ٦٥٦ دخل عليه التتارى اكتساحهم لبغداد ، وكان ضريرا ، فطعن بعكازه بطن واحد منهم فقتله ، وقُتل شهيدا .

٤

شعراء الفلسفة والشعر التعليمى .

يكثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكِنْدى ، وفى الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك أسراب غير قليلة ، وكثيرا ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية . وتلقانا فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبعة بعض وصايا طبية طريفة (٤) . وكثيرا ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما فى الحياة وبعد الممات ، على شاكلة ما أنشده أبو النفيس (٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجرى :

فى النفس والجسم إنْ فكرتَ معتبَرُ بل دون ذلك ضلَّ الرأىُ والفِكَرُ
وحار كلُّ لَبيبٍ فى اتحادهما وتلك عَيْنٌ وهذا حكمُهُ الأثَرُ

(١) غشى الورى الزبد : يشير إلى الطوفان المشهور زمن نوح عليه السلام .

(٢) النمرود : الملك الوثنى الذى ألقى بإبراهيم الخليل فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

(٣) أدد : أبو قبيلة عربية ، رمز به إلى العرب .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٩٠ .

(٥) صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى — طبع طهران) ص ٣٥٩ .

يا ليتَ شعرى إذا الأبدانُ أضمرها ... يَدُ البِلَى وحَواها التُّربُ والمدَرُ
هل للنفوس التفاتٌ نحو عالمها ... كما تلفَّتَ نحوَ المركزِ الحجَرُ
ليحصل الفوزُ فى دار الخلود لها ... وتَنتفى دونها الآفات والغِيَرُ
أم تضمحلُّ كما قد بان هَيكلُها ... ولا يُحَسُّ لها وِرْدٌ ولا صَدَرُ
هذا الذى صَدِئَتْ منه خواطرُنا ... وليس يجلو صَداها العِلْم والخَبَرُ

والأبيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تفنى كما يفنى الجسد ، أو تنفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهى مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادى محسوس يفنى بموت صاحبه ، وهذه لا تُحَسُّ ولا تُرَى إلا بأثرها وبَثِّ الحياة فى الجسم ، حتى إذا فارقته انتقل إلى عالم العدم والفناء ، فهل يكون مصيرها نفس مصيره ، أو أنها تحيا حياة جديدة خالدة فى الملأ الأعلى . إنها مشكلة محيرة فى رأى أبى النفيس يُطبِقُ عليها ظلام غامر لا يرفعه عِلْمٌ ولا خبرة ، والأبيات تمضى فتجعل علم الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وجدنا به متفلسفين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر ، مثل ابن التلميذ[1] المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره فى ابنه سعيد :

حُبِّى سعيداً جوهرٌ ثابتٌ ... وحبُّه لى عَرَضٌ زائِلُ
بهِ جهاتى الستُّ مشغولةٌ ... وهْو إلى غيرى بها مائلُ

والجهات الست هى اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ، يريد أنه مشغول بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتا بينما حب سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كانتْ بُلَهْنِيَةُ الشَّبيبة سكرةً ... فصحوتُ واستأنفتُ سيرةَ مُجْمِلِ
وقعدتُ أرتقبُ الفناء كراكبٍ ... عَرَف المحلَّ فبات دون المنزلِ

والصورة فى البيتين بديعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل ، وقعد ينتظر دوره ومماته ، وكأنما هو راكب يعرف منزله ويبيت دونه بقليل ، ولابد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرلابى وهبة الله ابن الفضل ومحمد بن المجلّى المعروف بالعَنْتَرى وابن هُبَل .

(١) انظر فى ابن التلميذ وشعره معجم الأدباء ٦٩/٦ .
٢٧٦/١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ وابن خلكان

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نمط شعرى جديد هو الشعر التعليمى ، فى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذى ترجم كليلة ودمنة شعرا ونظم قصائد طويلة فى الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد فى العصر العباسى الثانى على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دُرَيْد ، حتى إذا كنا فى هذا العصر اتسعت موجته وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرَّ بنا فى ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزرى فى كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنه ٤٩٧ نظم كتابا فى القراءات[1] ، ونظم الحريرى صاحب المقامات ملحة الإعراب فى النحو وأبوابه وقواعده وهى مطبوعة . ونظم ابن أبى الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع . ونظم فخر الدين بن الفصيح مدرس العربية فى المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكنز فى الفقه والسراجية فى الفرائض وقصيدة طويلة فى القراءات[2] ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نُظم من العلوم والمعارف على مر الحقب لهذا العصر . ونقف قليلاً عند شاعر متفلسف وشاعر تعليمى ، وهما على الترتيب ابن الشِّبْل البغدادى وابن الهبَّارية .

ابن الشِّبْل البغدادى [3]

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشِّبْل ، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفى سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسفين فى زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدى ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول ياقوت : «كان متميزا بالحكمة والفلسفة خبيرا بصناعة الطب أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا . وهو صاحب القصيدة الرائية التى نسبتْ إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له . وقد دلت على علو كعبه فى الحكمة والاطلاع على مكنوناتها وقد سارت بها الركبان . وتداولتها الرواة» وهو يستهلها بقوله :

بِربِّك أيها الفلكُ المُدَارُ أَقَصْدٌ ذا المسيرُ أم اضطرارُ
مدارُك قُلْ لنا فى أىِّ شَىْءٍ فَفِى أَفْهامِنا منك انْبِهارُ

---

(١) غاية النهاية فى طبقات القراء ٥٤٨/١

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٧/١٠ والعزاوى ٣٢٧/١

(٣) انظر فى ترجمة ابن الشبل وشعره البدية ٣٥٢/١ ومعجم الأدباء ٢٣/١٠ وابن أبى أصيبعة ٣٢٣ وفيات الوفيات ٣٩٣/٢ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله ابن الشبل وذكر أن وفاته كانت فى سنة ٤٧٣ وراجع الوافى بالوفيات ١١/٣

وفيك نَرَى الفضاءَ وهل فضاءٌ ... سوى هذا الفضاء به تُدَارْ
وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل ... مع الأجساد يُدْرِكها البَوارُ
وموجٌ ذى المجرَّةُ أم فِرِنْدٌ ... على لُجَجِ الدروع له مَدارُ
وَطَوْقٌ للنجوم إذا تبدَّى ... هلالُكَ أم يَدٌ فيها سِوارُ
وأفلاذٌ نجومُك أم حَبابٌ ... تؤلِّف بينه لُجَجٌ غِزَارُ
وتُنْشَرُ فى الفضَا ليلا وتُطْوَى ... نهارا مثلما يُطْوَى الإزارْ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له ، وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيرا بعيدا فى حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هى اضطرارية من قبل الذات العلية أو هى اختيارية . ويتساءل فى أى شىء مداره وحركته . وهل تُرْفع الأرواح إلى عالمه العلوى أو تفنى مع الأجساد فى العالم السفلى ، وهذه المجرة التى تتدفق ليلا فى السماء بالنور هل هى موج من الأضواء كموج البحر أو هى أثر تموجات ضوئية تُلْمَحُ كما يلمح تموج الضوء فى صفحة الفرند أو السيف . وهل الهلال طوق معلَّق للنجوم أو سوار يلمع فى يد على صفحة السماء . والنجوم هل هى أفلاذ وأرواح أو هى حَباب طافٍ على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تُنْشَرُ ليلا وتُطْوى نهارًا . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألغاز كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا يتملكه الدَّهَشُ وتتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشَّبْل فى عرض هذه الألغاز :

ودهرٌ ينثرُ الأعمارَ نَثْراً ... كما للوردِ فى الروضِ انتثارُ
ودنيا كلما وضعتْ جَنِيناً ... غَذَتْهُ من نوائبها ظُؤارُ[1]
هى العَشْواءُ ما خَبطتْ هَشيمٌ ... هى العَجْماءُ ما جَرحتْ جُبَارُ[2]
فمن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ ... بغير غدٍ إليه بنا يُسارُ

فهذا الدهر . يُسْقط الأعمار كما تَسْقط الورود فى الروض وتذبل وتفارقها النضرة والحياة ، وهذه الدنيا كلما وضعت جنينا لم تُرْضعه ، بل تركته لظؤار أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عَشواء لا تبصر ، وكل ما تخْبطه من الأنفس يصبح هشيما ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهْدَرُ ولا يُصْلَحُ أبداً . وما الحياة فى رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(١) ظؤار : المرضعة لابن غيرها .
(٢) جبار : هدر لاقصاص فيه ولا غرم .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأُخرج من الفردوس ثم أُهْبط إلى الأرض . ويصوِّر ذلك ابن الشِّبْل قائلا :

لقد بلغَ العدوُّ بنا مُناهُ ... وحَلَّ بآدمٍ وبنا الصَّغارُ (١)
فيالكِ أكلةً ما زال منها ... علينا نقمةٍ وعليه عارُ
نُعاقَبُ فى الظهور وما وُلدنا ... ويُذْبَحُ فى حَشَا الأمِّ الحُوارُ (٢)
ونَخرجُ كارهين كما دَخلْنا ... خروجَ الضَّبِّ أخرجه الوِجارُ (٣)
وكان وجودُنا خيراً لو انَّا ... نُخَيَّرُ قبله أو نستشارُ
أهذا الداءُ ليس له دواءٌ ... وهذا الكَسْرُ ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ فى بنى الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحلَّ بآدم وبهم الهوان والصغار ، فيالها أكلةَ إثمٍ ويالِه ذنبَ جُرْمٍ ! . ويعود ابن الشبل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة فى أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومَنْ يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الضَّبِّ من جحره . وهكذا نجيء ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وألغازها لداء يعز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . ويمضى فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتُذْهَل كل مرضعة عن ابنها وتسيَّر الجبال وتسجَّر البحار ، ويقول إن فى ذلك كله لعبرة وعظة لأولى الألباب . وله مرثية بديعة فى أخيه أحمد يقول فى تضاعيفها :

يا أخى عاد بعدك الماءُ سُمًّا ... وسَموماً ذاك النسيمُ الرُّخاءُ
كيف أرجو شفاءَ ما بى وما بى ... دون سُكْناكَ فى ثَراكَ شِفاءُ
شَطْرُ نفسى دفنتُ والشَّطْرُ باقٍ ... يتمنَّى ومن مُناه الفَناءُ
إن تكن قَدَّمتْه أيدى المنايا ... فإلى السابقين تَمْضِى البطاءُ
إنما الناس قادمٌ إثْرَ ماضٍ ... بَدْءُ قومٍ للآخَرين انتهاءُ

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير فى الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبكاء ، مع مايخلِّفون من غُصَصٍ تعتَرض بالشجى فى الحلوق . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها فى المساء ما وهبته فى الصباح ، وكأن الإنسان يعيش فى حلم أو كأنما يعيش بدون عقل ،

(١) الصغار : الذل والهوان .
(٢) الحوار : ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين .
(٣) الوجار : جحر الضب وغيره . والضب : من جنس الزواحف ، يكثر فى صحراء الجزيرة العربية .

فليست تُعْقَل الدنيا إزاء هذا الفساد الذى يعم كل شىء فى الكون من أحياء وغير أحياء . وفى الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحِسًّا دقيقا مرهفا .

ابن الهَبَّارِيَّة[1]

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهَبَّاريَّة العباسى ، نسب إلى هبَّار جده لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خبيث اللسان ، فلم يكد يسلم من هجائه أحد . وفيه يقول العماد الأصبهانى : « من شعراء نظام الملك (وزير ألْب أرْسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسَبَك فى قالب ابن الحجاج وسلك أسلوبه وفاقه فى الخلاعة والمجون ، والنظيف من شعره فى نهاية الحسن » ويقول ابن تغرى بردى : « كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب » . ومرت بنا فى حديثنا عن الهجاء فى الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له فى هجاء أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى . وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه له أمر بأن يُصرفَ رسمه أو راتبه مضاعفا . وعُدَّتْ تلك مِنَّة من نظام الملك دالةً على مكارم أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعا قائلا :

خُذْ جملةَ البَلْوى وَدعْ تفصيلَها ما فى البريَّة كلِّها إنسانُ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة فى أصبهان عاصمة ألْب أرْسلان وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلا بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى بغداد ، بل اتجه إلى كَرْمان وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومديحه ، وإنما نريد الحديث عن شعره التعليمى فقد نهض بعملين كبيرين فيه : أوَّلهما نظمه لقصص كليلة ودمنة ، وقد سماه « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج ، فكل بيت فيه يتفق شطراهما فى قافية واحدة . وفى فواتحه ما يدل على أنه نظمه فى كَرْمان ، وقد نوه بنظم أبان للقصص ، وأبان يتفوق عليه فى جودة شعره وإن كان عمله سقط من يد الزمن إلا ما رواه منه الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج الفطنة مطبوع فى بومباى من قديم .

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة القصر (قسم العراق) ٢/٧٠ وابن خلكان ٤/٤٥٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢١٠ والوافى ١/١٣٠ ولسان الميزان ٥/٣٦٧ والشذرات ٤/٢٤ .

والعمل الثانى من شعره التعليمى ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالطرب والباغم خافض الصوت فى لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة ، أو قل كثرته قِصَصٌ ثم يليها وعظ خلقى وحكمٌ متعاقبة . وقد طُبع الديوان فى القاهرة وبيروت ولكنو فى الهند . وهو يستهله بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبْ ... يفوق أنواع القريض والخُطَبْ
عملتهُ لسيِّد الملوكِ ... وموئل الملهوف والصُّعْلوكِ
فجاء مثل الذهب المسبوكِ ... سلكتُ نَهْجا ليس بالمسلوك
وضعتُه مخترعاً معناهُ ... لملكٍ ما خاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدى صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ وقد مضى يمدحه طويلا ، حتى إذا تمَّ الديوان سيَّره إليه من كَرْمان مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته . ويمضى ابن الهبَّارية فى الديوان بعد تقديمه لصدقة ومديحه فيذكر مناظرة بين هندى وفارسى استمع إليها فى أحد أسفاره ، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه . أما الهندى فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة ، وأما الفارسى فافتخر باختراع بلاده للنَّرْد . وتتوالى القصص ، وقليل منها الذى يشبه كليلة ودمنه فى جريانه على ألسنه الحيوانات والطير . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعى ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة ، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصى فى الديوان لا يلبث أن ينقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شىء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبارية مربِّيا يقدم النصائح فى السياسة ومعاملة الناس وفى الزهد وعلو الهمة والنهى عن الظلم والأمر بالعدل ، وكأن ابن الهبارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصى الأدبى ، ولعل ذلك ما جعل الأدباء بعده ينصرفون عن مجاراته فى هذا العمل الفنى ، وكان حريا أن تأخذ القصص مجرى كبيرا فى الشعر العربى ، غير أن النموذج الذى وضعه ابن الهبارية كان من الضعف – فى رأيى – بحيث لم يمهِّد تمهيدا حسنا لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حَسَنٌ تحار فيه الفِطَنُ
أنفقتُ فيه مُدَّه عشرَ سنين عِدَّه
بيوتُه ألفانِ جميعها معانى

ولعل ابن الهبارية بالغ فى قصة السنوات العشر ، ومع ذلك كله لابد أن نبقى له على

شيء من الإحسان . فقد كانت ملكته الشعرية خصبة ، وساق له العماد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة . وحقا ليست من الأشعار التعليمية . ولكنها تدل على براعته الشعرية .

٥

شعراء شعبيون

قد يُظَنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب . فالمديح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه فى الحاكم العادل . ويصور الهجاء الأخلاقَ الذميمة التى يرى الشعب تنحيتها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر فى كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان . وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قَصْفَ الشعب فى أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربى والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب . فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا . وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسه ومشاعرها ، ويَصْدرون عنها فى أشعارهم . ولابد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربى بشعوبه فى بغداد وغير بغداد وفى مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ، إذ كانت تُلقَى فى المساجد يوميا ، يلقيها كبار العلماء . والناسُ يتحلَّقون من حولهم . وكلٌّ يجد ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوى ومن دروس أدبية يُرْوَى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أى فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين فى مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء فى هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يُشْتَرطُ فيمن يَحْضر حلقات العلماء والأدباء أى شرط . ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين . وأتاح ذلك لنفر منهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمى أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات . نذكر منهم الخباز الموصلى ، وله ترجمة فى كتاب

اليتيمة[١] للثعالبى ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا . وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف » . وانتظامه فى اليتيمة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقد أشار إلى أميته فى بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بالغتَ فى شَتْمى وفى ذَمِّى ... وما خشيتَ الشاعرَ الأمّى
جرَّبتَ فى نفسك سُمًّا فما ... أحمدتَ تَجْرِيبَكَ للسُّمِّ

وكان يحفظ القرآن الكريم . فاقتبس من آياته مرارا وتكرارا . وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه ، كقوله متغزلا :

كأنَّ يمينى حين حاولْتُ بَسْطَها ... لتوديع إلفى والهوى يذْرِف الدَّمْعا
يمينُ ابن عمرانٍ وقد حالتِ العَصَا ... وقد جُعلتْ تلك العَصَا حيَّةً تَسْعَى
وقائلةٍ هل تملكُ الصبرَ بعدهم ... فقلت لها : لا (والذى أخرجَ المَرْعَى)

وهو فى البيت الثانى يقتبس قوله تعالى فى سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فحالت أو تحولت : « فإذا هى حيةٌ تَسْعى) واقتبس فى البيت الثالث آية سورة الأعلى : (والذى أخرج المرعى) . ويقول الثعالبى إنه « كان يتشيع ويتمثل فى شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعية . ويلقانا فى الخريدة شاعر أمى ثان هو نباتَه[٢] الأعور الإبَرِى ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوفا بهجو أحد العلويين وفيه يقول :

شريفٌ أصلُه أصلٌ حميدٌ ... ولكنْ فعلهُ غيرُ الحميدِ
ولم يخْلُقْه ربُّ العَرْش إلا ... لتنعطفَ القلوبُ على يزيد

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعة . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهين مثل السَّرِىِّ الرَّفاء الذى تقدمت ترجمته فى الفصل الماضى ، ومثل الزاهى أبى القاسم على بن إسحق بن خلف البغدادى وكان قطَّانا وكانت دكانه فى قطيعة الربيع ، وقد عرضنا له بين شعراء التشيع فى الفصل الماضى ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين فى كتب البلاغة وفيهما يصف البنفسج[٣] :

ولا زَوَرْدِيَّةٍ تَزْهو بِزُرْقَتِها ... بين الرياض على زُرْق اليواقيتِ

---

(١) انظر ترجمة الخباز البلدى وأشعاره فى اليتيمة (قسم الشام) ٣٠٦/٢ .
٢٠٨/٢ وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف .
(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره فى الخريدة
(٣) ابن خلكان ٣٧٢/٣ .

كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْن بها أوائلُ النار فى أطراف كِبْريتِ

وقَرْنُ البنفسج الذى ترفُّ أوراقه الرطبة ويترقرق الماء فى غصنه بلهب نار فى أعواد كبريت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . ومما أنشده له ابن خلكان قوله :

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما هَزَزْنَ سيوفا واسْتَلَلْنَ خنَاجرا
سَفَرْنَ بدوراً وانْتَقَبْنَ أهلَّةً ومِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جآذِرا[1]
وأطلعْنَ فى الأجياد بالدرِّ أنجماً جُعِلنَ لحبَّات القلوب ضَرائرا

والتقسيم فى البيت الثانى بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين انتقبن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخترن غصونا وحين التفتن جآذر ، وبذلك ومثله عُدَّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب فى أن مشاركة ذوى الحرف والأميين فى شعر العصر دليل قوى على صلته بالشعب ، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

ولم تقف مشاركة العامة فى الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء لا ينظمون شعرا فصيحا . وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامية ، وأخذ ذلك يظهر بوضوح منذ القرن السادس الهجرى ، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاطل الحالى والمرخَّص الغالى لصفى الدين الحلِّى ، وفيه يتحدث صفى الدين بالتفصيل عن الفنون العامية ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبدا ، أما المَوَاليَّا فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها «مستفعلن فاعلن مستفعلن فَعْلُنْ» وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صفى الدين إن أهل واسط تغزلوا بها ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغاددة فلطَّفوه ولحنوه وسلكوا فيه غاية لا تدرك ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادى فى مديح الصاحب بن الدِّباهى (أحد متولِّى الخراج فيما يبدو) :

بِكم قُرى نَهْرِ عِيسى أصبحتْ كالمُدُنْ أىْ باذلين القِرَى أى عاقرين البُدُنْ[2]
ولو تشاءوا بأطراف الرماح اللُّدُنْ صَيَّرْتُمُ الأُسْد تحرثْ فى مكان الفُدُنْ[3]

(١) سفرن : كشفن عن وجوههن – انتقبن : لبسن النقاب . مسن : تبخترن . الجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق والبقر التى تذبح قرباناً أو للضيوف .

(٣) اللدن : اللينة : كناية عن حدة قطعها . الفدن : الثيران .

ومع أن صفى الدين يعدّ هذه المواليا من الجزل المعرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح فى جزم الفعلين المضارعين « تشاءوا وتحرث » . ويتحدث صفى الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره فى الأندلس وكبار أعلامه ويطيل فى بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالى بغداد على رأسها على بن المراغى ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادى أطلقتُ دمعى المَصُونْ
وصرتُ فيكم أغالى جُهْدى ولى تُرْخصونْ

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامى الثالث الذى تحدث عنه صفى الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور فى قافية واحدة مُرْدَفة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول فى كل بيت أطول من الثانى . اخترعه البغداديون كما يقول صفى الدين ثم تداوله الناس فى البلاد . ويذكر أنه سُمِّى بذلك لأن البغداديين أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزى فى أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبى بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفى فى القرن السابع . ويقول صفى الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات و الأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُسْتَحْضَرُ فى المذاكرات ويذاكر بها فى المحاضرات ، وينْشِد من الكان وكان غزلية موجّهة فى الطيور ، وفى تضاعيفها :

طَيْرى الذى كانْ إلفى لو رِدْت مِثْلو ما حَصَلْ
وهُو علَىَّ معوَّدْ وانا عليه معتادْ
إذا قلعْ من عندى فما تزال عينى مَعُو
واعْرِفْ مطارو وأَقْعُد فى البُرْج بالمرصادْ

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طَيْراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذه إلفاً له . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حطَّ فى بُرْج لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من ينزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يسامحه ، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله ، ويقول إن الماضى : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوعا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خير استقبال . والمنظومة طريفة كما هو واضح .

والفن العامى الرابع القُوما ، ويقول صفى الدين إن له وزنين : وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فَعْلن وإما مستفعلن فاعلن . أما الوزن الثانى فيقول صفى الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثانى ، والثانى أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه فى دولة العباسيين برسم السحور فى شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحِّرين فى آخر كل دور منه : « قوما للسحور » ينبهون بذلك ربَّ المنزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علما له . ويذكر صفى الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اختُرع من قبله وكان الناصر يطرب له وجعل لابن نقطة رسما فى كل سنة وحدث أن توفِّى وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباعَ والده فى أول ليلة من ليالى رمضان وتغنَّى على مسمع من الناصر :

يـا سـيـد السـادات لَكْ بالكرمْ عاداتْ
أنا بُنَىّ ابْن نُقْطَهْ وابى تعيش انت ماتْ

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذى ذكره صفى الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحتوى أكثر من عشرين دورا . ومثل للنوع الثانى من القوما بقوله .

داوى عُضالَكْ[1] بَعْدنا واتْرُكْ نضالَك بالرَّغم كانْ تركَكْ لنا لا بالرِّضا لَكْ
دام العَنا لَكْ إشْ تُرَى فى العشق نالَكْ ما نال احدْ من بَعْد أحبابُو مَنالك

وينبغى أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامية لم يكتب لها أن تكون الترجمان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية فى بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت فى مرتبة دانية ، وظل يُنْظَرَ إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب فى كل مكان ، كما ظل ترجمانا صادقا عن كل ما يأملون ويألمون وكل ما يلم بهم من ابتهاج وابتئاس ، حتى لنجد أصحاب الكُدْية والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامى ، لما له من تأثير بعيد فى نفوس السامعين ، ونقف قليلا عند الأحنف العكبرى كبيرهم فى بغداد .

---

(١) الداء العضال : الذى لا طب له ولا دواء .

الأحنف العكبرى [١]

هو أبو الحسن عَقيل بن محمد الملقب بالأحنف العُكْبرى ، ظريف الشعراء المكْدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بنى ساسان الفارسيين تظرفا ، ويعيشون على الكُدْية أو الشحاذة الأدبية ، يطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه يقول الصاحب بن عباد : « لوأنشدتك ما أنشد نيه الأحنف العكبرى لنفسه ، وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام (بغداد) لامتلأتَ عجبا من ظرفه وإعجابا بنظمه » . ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدية والشحاذة :

ألا إنى بحمد اللَّـ ـه فى بيتٍ من المَجْدِ
بإخوانى بنى ساسا نَ أهل الجِدِّ والجَدِّ [٢]
لهم أرضُ خُراسانَ فقاشانَ إلى الهنـــد
إلى الروم إلى الزَّنْجِ إلى البُلْغارِ والسَّنْد
قَطَعْنا ذلك النَّهْجَ بلا سيفٍ ولا غِمْدِ
ومَنْ خاف أعاديهِ بنا فى الرَّوْع يَسْتَعْدى

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بنى ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصوِّر تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان فى إيران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدة حربية ، لأن أحداً لا يعترضهم ، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئا . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير ، فقال : لهذا البيت معنى بديع : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم فى أيدى قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مُكْدِى (أى لا يملك شَرْوَى نقير) فانظرْ كيف غاص ، وأبرز هذا المعنى المعتاص . ويشكو الأحنف الفقر وتطوافه فى الأرض مراراً فى شعره بمثل قوله :

عشتُ فى ذِلَّةٍ وقلة مالٍ واغترابٍ فى معشرٍ أَنْذَالِ
بالأمانى أقول لا بالمعانى فغِذائى حلاوةُ الآمال

وطبيعى أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقلّ ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغربة ونكدها ومرارتها وما يداخلها من حرمان ، ويحس كأنه يعيش ويتغذى

---

(١) انظر فى ترجمة الأحنف وأشعاره تاريخ بغداد (٢) الجد بفتح الجيم : الحظ .
واليتيمة ١١٧/٣ والنجوم الزاهرة ١٧٣/٤ .

بالآمال ، وقد ضُيِّق عليه الخناق . وكثيرا ما يشكو همه وبؤسه وتعاسته حتى ليقول :

العنكبوتُ بنَتْ بَيْتاً على وهنٍ تأوى إليه ومالى مثلهُ وَطَنُ
والخنفساءُ لها من جنْسِها سكنٌ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنُ

فليس له بيْت حتى ولا بيتٌ واه كبيت العنكبوت ، بيت يجعله يشعر أن له وطنا يأوى إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لها سكن ولها إلف ، وهو لا إلف له ولا سكن . وهذه الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لترقّ له القلوب وتُمَدَّ إليه الأيدى بالعطاء . وشعره كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التنميق والمحسنات البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأيى أن شعر الكُدْية والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقاماتُ عند بديع الزمان والحريرى .

الفصل الخامس

النثر وكتّابه

١

تنوع النثر

رأينا فى العصرين العباسى الأول والثانى كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمى والنثر الفلسفى والنثر الأدبى ، وكانت هناك المناظرات والمواعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبى ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية ، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر فى عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنهما كانا أزهى القرون فى العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربى كل ماكان يرجى له من نضج ، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ماكان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماؤهم ومتفلسفتهم ، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة فى مطالع هذا العصر.

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهى تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها فى هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة ، حتى لكأن المترجمات توضع فى العربية ابتداء ، فلا عوج ولا أمْت فى صيغة ، بل مع الرونق وحسن الأداء ، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زُرْعَة البغدادى المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقى السجستانى : «هو آخر من يُرْتَضَى نقله لكتب الحكيم أرسطاطاليس : البسائط والجوامع . . وكتاب جالينوس «منافع الأعضاء وغيره من الكتب» . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسطاطاليس على هذا النمط[1] :

---

(١) انظر فى الفقرة التالية المترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (طبع طهران) ص٣٣٣

«الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر إلى مركزه ، إلا أن يكون مؤوفاً (معلولاً) فى طبيعته ، مخلوقاً بأخلاق بهيمية . ومَنْ رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبْله على غاربه ، وسيَّب هواه فى مَرْعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان لِيِّن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار أرذل من البهيمة بسوء إيثاره» .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسطاطاليس ما تنبهنا إلى ذلك لصياغتها العربية المحكمة ، وما يجرى فيها من رونق الصياغة الأدبية كما هو واضح فى مثل قوله : «ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيَّب هواه فى مرعاه» . وهى استعارات وكنايات بيانية . وأرسطاطاليس فى الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكوّن من طبيعة هى البدن وما يتصل به من الملذات ، وهى تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التى لا تبلى والتى يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقا ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء ، ولذلك تصبح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ – كما لاحظ أبو سليمان المنطقى السجستانى – يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمارة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويُشيد ابن أبى أصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعيات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغةُ المحكمة الفلسفةَ ، ويخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت فى القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاما للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى فى المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا فى الفصل الثانى دليلاً قويًّا على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السرِّيَّة التى كانت تدعو فى البصرة إلى المذهب الإسماعيلى لجأت إلى الفلسفة والعلوم فى صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر فى نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفّتْ عنها ، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدسُّون رسائلهم فى دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل حى على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة ، وسنرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسى والحريرى فى دكان حمزة بالوزاق بشارع الوراقين فى بغداد ، تتناول الأسس

والغايات التى من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسى ورفيقه زيد بن رفاعة على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى ألممنا بها فى فصل الثقافة وهى تدل على أن الفلسفة أصبحت فى القرن الرابع الهجرى شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ،وهى كثرة المتدبات التى كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، وذكرنا من كان يؤمها من عِلْية المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم فى الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلْقَى سؤال وتدور حوله محاورة كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدْلى به ، ثم يكون الرأى الأخير لأبى سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدى – كما مرَّ بنا – أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، وسماها المقابسات أى المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابسة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفى إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستا فى نحو أربعمائة صفحة كبيرة ، وهى أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة فى الإلهيات والطبيعيات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن نُدْخل متفلسفة القرن الرابع فى هذه الندوة وغيرها فى دائرة الفارابى وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً فى إثره يُعْنَوْنَ بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التى بثَّتها الأفلاطونية الحديثة ، وهى مبثوثة فى كلام أبى سليمان وتلميذه النَّوْشَجانى ، وقد عرض لها الأخير فى المقابسة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعه مما يدل على إيمانهم بها جميعاً . وفى مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مريديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التى قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهى الوصل بين الفلسفة والشريعة ، كما مر بنا فى فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وصوَّر أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ردَّ أبى سليمان عليهم[1] ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحى ومرد الفلسفة إلى الرأى والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية ، يقول :

« الشريعة مأخوذة عن الله عزَّ وجَلَّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوِّزه

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ /٦ – ١٨ وانظر فى أبى سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متقنة ، ومراشد تامة مبيَّنة ، وفى أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبعث) ولابد من التسليم للداعى إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط لِمَ ؟ ويبطل كيف ؟ ويزول : هَلاَّ ، ويذهب لو وليت فى الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتياب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلفى . ليس فيها حديث المنجم فى تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك . . ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر فى آثارها . . ولا فيها حديث المهندس . . ولا فيها حديث المنطقى . . فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة فى طريق الشريعة . . وكما لم نجد فى هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهى النصارى ، وكذلك المجوس . . فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ . . وبالجملة النبى فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبى ، وعلى الفيلسوف أن يتَّبع النبى وليس على النبى أن يتبع الفيلسوف ، لأن النبى مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكْتَفَى به لم يكن للوحى فائدة ولا غَناء ، على أن منازل الناس متفاوته فى العقل وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس . . والنبى يقول أُمرت وعُلِّمت وقيل لى وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، والنبى يقول : معى نور خالق الخلق أمشى بضيائه ، وهذا يقول معى نور العقل أهتدى به ، والنبى يقول : قال الله تعالى وقال المَلَكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط . . » .

وواضح أن أسلحة أبى سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحى والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهى تتفاوت وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنبى فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذى دفع أبا سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا فى مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكأن أبا سليمان أحسَّ أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذى يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى الغالى غلوًّا شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة — كما نقل عنه أبو حيان

فى المقابسات – قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تألُّهٍ وسوء ديانة . ومن المؤكد أن وصفهم بقلة التألُّه وسوء الديانة فيه مبالغة . وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغى أن لا يعمِّم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة فى العصر صُبغت بأصباغ أدبية واضحة ، إذ يعرف أبوسليمان كيف يصطفى ألفاظه ، وكيف يجرى فيها ترادفاً بديعاً يجعل لوقعها على الآذان جمالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتى بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ فى المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النَّوْشَجانى الذى نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط[1] :

« إذا كان صنف من أصناف الموجود فى حكم المعدوم لخساسته ، ونقصه وتهافته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقبح صورته ، وانمحاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطُّع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون فى مقابلته وبإزائه صنف آخر من المعدوم فى حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاسة جوهره ، وكمال فضيلته ، وظاهر عفته ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سِنْخه ، وصفاء سُوسه[2] ، وطهارة ذاته ، وظاهر زيته ، ودوام نضرته ، وتناسب جملته وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . . فإنك متى حويت هذه المعانى . . اكتنفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فنيت ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحيا وإن مت . وظاهراً وإن بطنت ، وجليًّا وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهدا وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . هنالك تصل إلى غِنًى بلاقُنْية[3] ، وتنطق بلا عبارة ، وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبقى بلا آفة . . وتسعد بلا شَوْب . إلهية ورثتها من البشرية ، وربوبية وصلت إليها بالعبودية » .

ويمضى النوشجانى فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص فى إسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة . فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حريًّا به أن يباين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذن تكون السعادة غايته ، والأبد نعته ونهايته . وصياغةُ النوشجانى رائعة بمافيها من

---

(١) المقابسات (طبعة بغداد) : المقابسة السادسة والأربعون وانظر فى النوشجانى المقابسات ٢٩ ، ٣٦ ، ١٠٦ .

(٢) السوس والسنخ : الأصل .

(٣) القنية : ما يكتسب من المال ويقتنى .

جمال الجرس فى الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجرى فيها من ترادف بديع وقدرة على التناسق فى الكلمات والصيغ وسيلانها . بل تدفقها ، بالفكر الصافى الخالى من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفى فى هذا العصر التقى بالأدب والتمع فى أثنائه وعلى حواشيه ، فعدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبيعى فى هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات ، وأن تشيع فى كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبى ببعض مناظرات بين الحاتمى والمتنبى على نحو مايوضح ذلك الحاتمى فى رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البويهى بما كان يُعْقَدُ من مناظرات بين العلماء فى مجالسه ، ويحدثنا القاضى عياض فى ترجمته[1] للباقِلاَّنى عن مناظرته بحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف مالا يطاق ، ومناظرته بحضرته أيضاً لأبى إسحق النَّصِيبينى رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرت لاتزال ناشبة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طبيباً بغداديًّا فى القرن الخامس الهجرى هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطبيب المصرى والحوار معه[2] . ومالنا نذهب بعيداً ومنتدى أو ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى فى القرن الرابع الهجرى كانت تعج بالحوار والجدال فى كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجرى فى الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقى أصحاب المذاهب والآراء ، فتنشب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التى حكاها أبو حيان بين شخص يسمى الحريرى كان يأخذ بشىء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسى أبى سليمان محمد بن معشر البيستى الرازى مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا فى فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقى السجستانى كما مرَّ بنا . وكان لا يزال يُرَى ببغداد فى ندوته ، وفى شارع الوراقين . وكان الرأى العام السائد هناك يعارض نظريته فى التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلهم كانوا يعرفون مقصده الذى نبهنا إليه مراراً ، وكانوا يتعرَّضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم – وهو يتجوَّل فى الوراقين – تعرَّضَ له فيه الحريرى غلام ابن طَرَّارة وهيَّجه بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلاً[3]

الشريعة طِبٌّ المرضى والفلسفة طب الأصحاء ، فالأنبياء يُطِبّون للمرضى حتى

---

(١) انظر هذه الترجمة فى نهاية كتاب التمهيد للباقلانى (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة) ص ٢٤٦ .

(٢) راجع القفطى ص ٢٩٨ ، ٤٤٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ ، ١١ وما بعدها .

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطبُّون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسْبَ الفضائل التى تؤهلهم للحياة الإلهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينهما لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينهما لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريرى ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طبيب للمرض وطبيب للصحة ، بل ذلك شيء خارج عن العادة ، فدائماً الطبيب يُعْنَى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة . ونقضَ عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفية برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحى ولذلك تستقيم مع أى برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهى التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهى لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريرى أشد العجب من جَعْل المقدسى الشريعةَ من باب الظن وهى بالوحى ، والفلسفةَ من باب اليقين وهى من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموَّهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحى من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهى تناقش الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أى جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قَسْراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما فى المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلن إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هى كيد للدين القويم ، حاوله من قبلهم كثيرون فباءوا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسى وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريرى إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسى لندل على مدى ما حَظِىَ به العقل العربى فى القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشعيبها ونَقْضها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت حِدَّتها تخف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجَّهه أبو نصر السرَّاج الطوسى والقُشَيْرى نحو التصوف السنى ، ويعم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجرى بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ الرفاعى ، ولا يلبث الدراويش أن ينتشروا فى العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالى الذى كان لحملاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر فى انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفيًّا سُنِّيًّا ، فدعم التصوف السنى إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هى الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر فى العصر على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية . ويكفى أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة ، من ذلك دعاء[1] لمحمد بن عبد الملك الفارق المار ذكره فى الفصل الماضى . وأخذت توضع كتب كثيرة فى التصوف وفى القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللمع فى التصوف لأبى نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفا المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأعطى رياسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبى طالب[2] المكى الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر[3] الخلدى المتوفى سنة ٣٤٨ ومر بنا فى حديثنا عن ابن السراج البغدادى بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنساك .

---

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٢/٤٣٣ . الجنان ٢ / ٤٣٠ .

(٢) راجع فى أبى طالب تاريخ بغداد ٣/٨٩ وابن خلكان ٤/٣٠٣ والوافى ٤/١١٦ وميزان الاعتدال ٣/٦٥٥ والشذرات ٣/ ١٣٠ ولسان الميزان ٥/ ٣٠ ومرآة الجنان ٢ / ٤٣٠ .

(٣) انظره فى تاريخ بغداد ٧ / ٢٢٦ وبروكلمان ٤/٧٥.

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة ، على نحو ما نرى عند أبي على المحسِّن[1] التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هى : كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهومطبوع ، و«نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» وهو أقاصيص وأخبار عن معاصريه وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه «أنس الفريد» سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتَّاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ، وفى مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقِيا الذى ذكرناه فى فصل الثقافة بين علماء البلاغة فى القرن الخامس الهجرى ، وهو سابق للحريرى ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو اليشكرى ، ورواتها متعددون ، وتدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وهى مطبوعة من قديم فى إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبى العلاء أحمد ابن أبى بكر بن أحمد الرازى من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريرى وأهداها إلى أبى حامد الشهرزورى المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزى الذى مرَّ ذكره فى غير موضع . وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشرى فى مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التى ألفت فى القرن السادس بعد مقامات الحريرى مقامات يحيى بن سعيد بن مارى النصرانى البغدادى المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته . وهى ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريرى . ونلتقى فى أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزرى المعروف بابن الصَّيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهى خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريرى فى الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أى أديب بعده . وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر فى العصر كتب الأدب التهذيبى ، وتتخذ مَجْرَيَيْن : مجرى فلسفيًّا فكريًّا على نحو ما نرى فى كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجرى عمليًّا تربويًّا مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبى الحسن على بن محمد الماوردى المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب فى فضل العقل وذم الهوى ، وباب فى أدب العلم ، وباب فى أدب الدين . وباب فى

(١) راجع ترجمته فى اليتيمة ٢ / ٣٤٥ وتاريخ بغداد وبن خلكان ٤ / ١٥٩ والنجوم الزاهرة ٤ / ١٦٨ ، ١٣ / ١٥٥ ومعجم الأدباء ١٧ / ٩٢ والمنتظم ٧ / ١٧٨ والشذرات ٣ / ١١٢ .

أدب الدنيا ، وباب فى أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفى كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التى تحث على الفضائل وتنهى عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقرراً للمطالعة فى المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب التهذيبى بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه فى النفع والفائدة .

وتموج اليتيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية . وتتكاثر كثرة مفرطة ، فى الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يتفننون فى تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حَبْلا تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدِّس فيها أكداساً ، وتكدِّس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة بجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة باتخاذ حرف واحد تُبْنَى عليه الرسالة . وللحريرى رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحَصْكفى [1] يحيى بن سلامة خطيب مَيَّا فارقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة ليس فى حروفها حرف منقوط ، وكان شغوفاً بالجناس وصُنْع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

« النفس بعقود التذرُّع حالية . ولقعود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعى المزعجة مائلة ، وفى بحار الحمدراسية ، وفى رحاب المدح سارية » .

ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة فى السجعة الأولى تعود فى السجعة الثانية مقلوبة معكوسة فى هيئتها وبنيتها وصورتها . فعقود تتحول إلى قعود والتذرع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهى مهارة تُحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعى الذى يؤدِّيه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . ونلتقى بمعاصر للحصكفى ، هو الحَيْص بَيْص البغدادى المارّ ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهانى : « له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف » يقول : وهى كثيرة ، وسأورد

---

(١) انظر فى الحصكفى الخريدة (قسم الشام) ٢ / ٤٧١ وما بعدها والمنتظم ١٠ / ١٨٣ والسبكى ٧ / ٣٣٠ وابن خلكان ٦ / ٢٠٥ ومعجم الأدباء ٢٠ / ١٨ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص ٣٠٤ وبدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسائله .

منها نبذاً يستدَلّ بها على الباقيات . وتدل النُّبَذُ على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متقعراً فيها أبعد تقعُّر ، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جمالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكأن الرسالة مجموعة من الألغاز ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السَّمْح [1] سعيد بن سَمُرَة أن يؤلف على نمط الحريرى لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . وتصبح منذ القرن السادس حقا بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً ، وكأنما فارقت كل ما كانت تزدان به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتّاب الرسائل الديوانية .

٢

كتّاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلّة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية . وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعُنى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه فى عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلّبى [2] الذى وزَر لمعزالدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الثعالبى فى يتيمته طائفة من شعره ، أما نثره فاكتفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع فى كتاباته ، والسجع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كتّاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز [3] بن يوسف ،

---

(١) انظر فى ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٢٦٣ .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته اليتيمة ٢ / ٢٢٣ والمنتظم ٧/٩ ومعجم الأدباء ٩/١١٨ والشذرات ٣/٩ وكتب التاريخ العامة فى سنة وفاته .

(٣) راجعه فى اليتيمة ٢/٣١٢ .

وفيه يقول الثعالبي : «كان أحد المقدمين فى الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً فى وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده» . ويورد الثعالبي مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين فى عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصابئ وسنخصه بكلمة عما قليل . وعُنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصَلايا فقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخصه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده فى العصر السلجوقى سديد الدولة أبو عبد الله محمد [١] بن عبد الكريم الأنبارى منشئ ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهى سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيفاً وخمسين سنة ويقال إنه عُمِّر حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العماد ولاصُبْحُ الأعشى للقلقشندى شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد [٢] بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفى بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان فى عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى [٣] بن زبادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوَّه طويلاً قائلاً : «انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته فى الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفى عدة خدمات ، وكان مليح العبارة فى الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة» . وقد احتفظ القلقشندى برسالة [٤] له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشى طغرل صاحب إقطاع البصرة ، وقد بلغ الخليفة أنه نزح عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو فى الرسالة يحاول إثناءه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

---

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ١/١٤٠ والمنتظم ١٠/٢٠٦ والنجوم الزاهرة ٥/٣٦٤ والشذرات ٤/١٨٤ .

(٢) انظره فى الخريدة (قسم العراق) ١/١٤١ وابن الأثير فى وفيات سنة ٥٧٥ .

(٣) انظر ترجمة ابن زبادة فى معجم الأدباء ٢٠/١٦ وابن خلكان ٦/٢٤٤ ومرآة الجنان ٦/٢٤٤ والشذرات ٤/٣١٨ .

(٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية) ٨/٢٦٩ .

«ولولا أن الأيام صحائفُ العجائب ، ولا يأنس بتجدّداتها إلا من حنّكته التجارب ، لم أصدّق هذه الحركة ، وإني ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر الصائب . . والفائتُ لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الهوى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج» .

وتمضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتى منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة جَلْبه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زبادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرقى فى السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم تعرض للعماد الأصبهانى ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له فى ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل فى دواويهما . فحرى أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية فى الشام ومصر ، مع من عاشوا فى ظل هذين البطلين العظيمين . وتمضى إلى أيام المغول ويلقانا عطا ملك الجُوَيْنى المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظّف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء[1] الدين الإربلى المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف[2] الدين على بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . ويلقانا فى صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولاكو الذى مرَّ بنا فى الفصل الأول أنه أسلم فى سنة ٦٨١ وحسُن إسلامه . وتسمَّى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصلى عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية فى جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتمَّ الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط[3] :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عُنفوان الصِّبا ورَيْعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوَّته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبَرِيَّته (فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبةُ الملك ، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ،

---

(١) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٢/١٣٤ وعند الغزاوى ١/٢٥٩ .

(٢) راجعه فى الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد ، طبع بغداد) ص ٤٨٠ وعند الغزاوى ١/٢٦٠ .

(٣) صبح الأعشى ٨/٦٥ .

ما حقَّق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه» .

وتمضى الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة . والرسالة مؤرَّخة بأواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة وكتب الرد فى رمضان سنة ٦٨١ ناصر[١] الدين شافع بن على بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان أحمد بن هولاكو فى رسالته - كما هو واضح - إسلامه وأيضا أنه حرَّم على عساكره الغارات على البلاد ، وتقول الرسالة إن فى اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كتَّاب الإنشاء فى القرن الثامن يحيى[٢] بن عبد الرحمن الجَعْبَرِىّ الملقَّب بنظام الدين المتوفى سنة ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأُعيد إلى وظيفته فى كتابة الإنشاء عن حكامها إلى وفاته . ويلقانا فى أواخر القرن التاسع الغياث[٣] البغدادى عبد الله بن فتح الله كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم فى هذا العصر ، فسرعان ما دخلت العراق فى حكم الدولة العثمانية . وكانت لاتهتم بديوان الإنشاء فى بغداد ، فضعف شأنه إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين فى العصر : أبى إسحاق الصابىء والعلاء بن الموصَلايا وضياء الدين بن الأثير .

أبو إسحاق[٤] الصابىء

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زَهْرون الصابئ المكنى بأبى إسحاق ، أصل ابائه من حرّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتثقف وتأدب ، ولزم فيها مواطنيه الحرَّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول القفطى : له مؤلف فى المثلثات . ويبدو أنه أحسَّ فى نفسه مبكراً بنزوع شديد نحو الأدب وأن يصبح من كتاب الدواوين ، فأخذ يكبّ على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففُتحت له الأبواب وتعرَّف عليه الوزير المهلبى ، وأُعْجب به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أُنْسه ، ولم يلبث أن قلَّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

---

(١) صبح الأعشى ٧ / ٢٣٧ .

(٢) ترجمته فى الدرر الكامنة لابن حجر ٥ / ١٩٢ .

(٣) الغزاوى ١ / ٢٧٧ .

(٤) انظر فى ترجمة الصابئ اليتيمة ٢ / ٢٤١ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢ / ٢٠ وابن خلكان ١ / ٥٢ ، ٤٤٥ وعيون الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطى ص ٧٥ والشذرات ٣ / ١٠٦ والإمتاع والمؤانسة ١ / ٦٨ والمقابسات لأبى حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى ٦ / ٤٨٣ و ١٤ / ٣٦٠ (راجع الفهرس) وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

حتى إذا توفِّى المهلبى سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهى أمواله قبض على أبى إسحاق الصابئ فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف معز الدولة بقصائد جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله فى ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بَخْتيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهى ، وكان الصابئ فى أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤلمه ، وحدث أن تقرَّر الصلح بينهما ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصابئ أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حق الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بُدًّا من حَلِف اليمين ، وعرف أن أبا اسحاق الصابئ كاتبه ، فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بَخْتيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار فى ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق . وسرعان ما اعتقل الصابئ وزجَّ به فى غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنفْ كتاباً فى أخبار آل بويه ، فأخذ فى تصنيف كتاب «التاجى» وهو فى السجن ، ونُقل إلى عضد الدولة أنه سُئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنمِّقها وأكاذيب ألفِّقها ، فحنق عليه حنقاً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة ليُقْتَلَ أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يتشفعون له ، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً فى أيامه . حتى إذا توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولى ديوان الإنشاء وظل يليه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة فى بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثنى ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله فى الدين الحنيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزراؤهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه فى الكتابة ، يقول الثعالبى إنه «أوحد العراق فى البلاغة ومَنْ به تُثْنَى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة» ويقول أبو حيان التوحيدى : «نظمه منثوره ، ومنثوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبك فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما ماثله فيها إنسان» وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان فى مجلدين ، وهى مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آى القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جِلَّة المسلمين ، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

«الحمد لله العلىّ العظيم ، الأزلى القديم ، المتفرد بالكبرياء والملكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لا تحدُّه الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصرُه قرارة مكان ، ولا يغيِّره مرور زمان ، ولا تتمثَّله العيون بنواظرها ، ولا تتخيَّله القلوب بخواطرها ، فاطر السموات وما تظلّ ، وخالق الأرض وما تُقِلّ » .

وهو يستمر فى هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصابئ كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال ، المؤمنين بوحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس بجسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والخواطر لا تتخيله ، مبدع السموات والأرض . وفى هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهايتى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين فى عدد حروفها وحركاتها وسكناتها ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة « العلى العظيم » يليها « الأزلى القديم » وكلمة « المتفرد بالكبرياء والملكوت » يليها « المتوحد بالعظمة والجبروت » وتتوالى السجعات ، فكل سجعة تسمع فى تاليتها جرسها الموسيقى ، مع المهارة فى اصطفاء الألفاظ . واقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينهما من صلة الرَّحِم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تُؤتَى مراسى أوتاده من ذوائب عروشه ، وأن تدبَّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أراقم المناقشة ، وتنبثّ الدواهى فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعداتهم » .

وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان فى أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليتها ، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصها من تماثل الروى فى نهايتها . ومرَّ بنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شىء من السرور والسعادة على قارئه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها ردًّا على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أهدى إليه جَمَلاً ، وذكر ذلك فى رقعته ، وفيها يقول :

« ذكرت حَمَلاً (كبشاً) جعلته جملاً ، . . فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادم الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور . . فبانت دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيلا ، بادىَ الأسقام ، عارىَ العظام . . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً ، قد طال للكلإ فقده ، وبَعُدَ با لمرعى عهده ،

لم ير القتَّ إلا نائماً ، ولا الشَّعير إلا حالما . . وقلت أدبجه ليكون وظيفة للعيال . . فأنشدنى وقد أُضرمت النار ، وحُدَّت الشِّفار :

أُعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ[1]

ثم قال : وما الفائدة من ذبحى ، ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمى ، ولا ذى جلد يصلح للدِّباغ لأن الأيام قد مزقت أَدَمى ، ولاذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حَصَّت (أذهبت) وَبَرِى » .

وليست الفكاهة شيئاً سهلاً . فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح . وهى تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجعه فى هذه الرسالة التى يجدر بنا أن ندخلها فى حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقى ، وهو قصير قصراً تَسْرى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما فى السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتَاليتها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصابئ رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست[2] صفحات كبيرة، وهى صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير فى عصره كان يسمى عَلَيْكا إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عُرْس الموصلى ، وهو يستهله بأن عليكا عهد إلى تلميذه بإحياء سُنته وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أَرْباضها (ضواحيها) وأكنافها فى سوادها وأطرافها لما توسَّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللَّقْم ، وجودة الهضم ، ويأخذ فى سرد وصاياه فى شكل أوامر وفرائض يجب أن يتَّبعها ابن عرس ، من ذلك أنه :

« أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمُطَ الأمراء والوزراء بسَراياه . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجَّار ، ومجهِّزى الأمصار ، من بنيان الدار ، والعُرْس والإعذار (الختان) . . وربما صَبروا على تطفيل المتطفلين ، وأَغْضَوْا على تهجم الواغلين (الممعنين فى التطفل) ليتحدَّثوا بذلك فى محافلهم الرَّذْلة ، ويعدُّوه فى مكارم أخلاقهم النَّذْلة . . وأمره أن يصادق قَهارمة الدور ومدبِّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحَمَّاليها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمَّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل مودَّاتهم ومعارفهم . . وأمره أن يتعهد أسواق المسوِّقين ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

---

(١) البيت للمتنبى من قصيدته التى عاتب فيها سيف الدولة الحمدانى . والضمير فى أعيذها يعود إلى نظرات شاعرك وغيره من حاسديه الذين يتظاهرون لك بمثل مودته تمويها وخداعا .
يقول له : أعيذ نظراتك البصيرة أن تخدعك فلا تفرق بين

(٢) صبح الأعشى ١٤/٣٦٠ .

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، اتَّبعها إلى المَقْصِد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقاتَ الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأدُبةٍ تعمُّهم . . حَمل عليها حَمْلة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، واللَّيْث الهاصر ، والعُقاب الكاسر . . وأمره أن يَرُوضَ نفسه ، ويغالط حِسَّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صَفْحاً ، ويَطْوِىَ دونه كَشْحاً ، فإن أتته اللَّكْزَة فى حلقه ، صَبَر عليها فى الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصَّفْعة فى راسه ، صَبر عليها لموقع أضراسه ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء» .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكُدْية ، وقد تحدثنا عنهم فى غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور فى نفوس سامعيهم . ولا ريب فى أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبى إسحق الصابئ السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقى ، سواء قصَّره أو طوَّله ، إذ يبغى به دائماً أن يلذَّ الآذان ، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء[1] بن الموصَلايَا

هو أمين الدولة أبوسعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصَلايا البغدادى ، ولدسنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانيًّا ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعدَّ نفسه مثل أبى إسحاق الصابئ ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة فى عهد المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧) هـ) والمستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) حتى توفى سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه فى أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحَسُنَ إسلامه ، واختلف من ترجموا له فى زمن إسلامه ، فالعماد الأصبهانى يقول إنه كان فى زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان فى زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

---

(١) انظر فى ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه خلكان ٣/ ٤٨٠ وصبح الأعشى ٦/ ٤٠٤، ٤١٥، الخريدة (قسم العراق) ١/ ١٢٣ والمنتظم ٩/ ١٤١ ، ٤٥٣ ، ١٠/ ٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .
ونكت الهميان ص ٢٠١ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٨٩ وابن

ونميل إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفَّ بصر العلاء فى آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضَمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة فى الوزارة وظل يضمها فى عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : «كان بليغ الإنشاء ، سديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه» ويقول الصفدى : «أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل» .

وقد احتفظ كتابُ صبح الأعشى للعلاء فى جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى فى منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُلْبَك ، وهى موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غَزْنَة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عيَّنه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتسز . وبالمثل احتفظ صبح الأعشى فى جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس فى سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس فى عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه فى الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع فى نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يَقْبس من أضوائه فى رسائله مثل الصابئ . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل فى الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرخ به القلشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق . والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين فى صورة عهد بحياطته هو وأهل ملته فى نفوسهم وأموالهم وبِيَعهم وديارهم ومقارّ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية – وكانت أشبه بضريبة دفاع – من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومَنْ لم يبلغ الحُلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة فى السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة فى بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بَطْرك النصارى العام . ويلفتنا فى العهد لابن تاشفين وفى الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك فى الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلايا يطيل

فى الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجرى الصلاة فى رسالة البساسيرى على هذا النمط :

« الحمد لله الذى اختص محمداً ﷺ برسالته وحَباه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحَواه ، وبعثه على حين فَتْرة من الرسل ، وخَلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه مَنْ عصاه ، وبلغ فى الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وسلكوا فى نُصْرته جَدَداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدتْ أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فصلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخَبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلَّم تسليماً » .

ولعلى لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل فى منتصف القرن الخامس حين كُتبت هذه الصلاة فى رسالة البساسيرى لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ . وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء ألفاظه وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى فى الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل فى الرَّعايا قِبَله ، ويُحِلّهم من الأمن هِضابه وقُلَله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويُضفى على المسلم منهم والمعاهَد (الذمىّ) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويُلحق التليدَ منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين فى كنف الصَّوْن ، راجعين إلى الله تعالى فى إمدادهم بالتوفيق وحُسْن الطاعة والعَوْن ، وأن ينظر فى مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر عَلَمَ العدل فى مطاويه . . مُلِيناً لهم فى ذلك جانبه ، ومُبِيناً ما يظل به كاسبَ الأجر وجالبَه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلا أمر الله تعالى فى ذلك متلقًّى بالطاعة الواضحةِ الدليلِ والبرهان ، قال الله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذى القُرْبى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾ .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو فى رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفِّى ألفاظه من الشوائب ، ويخليها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستتم تأثيره بما يختم به فقره فى هذا العهد وفى غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التى تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء[1] الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالى العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعْنَى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرَّغه للدراسة كما فرَّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل فى التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى . ولما أحسَّ أنه كملت له أدواته فى الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ ووصله به القاضى الفاضل وزيره ، فعمل فى دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولبَّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذه لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفِّى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلَّف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هَمُّوا بقتله . وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطانا على مصر ، فيلحق به سرًّا فى صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين فى مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويعوِّضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقيم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مآب فى سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقى عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله فى سنة ٦٣٧ إلى بغداد فى بعض المهام ، فيدركه بها الموت .

وحَظِىَ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه فى رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، والمختار منها – كما يقول – مجلد واحد . وربما كان أهم منها فى سبب شهرته كتابه : «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» وفيه صوَّر الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعةَ المعنوية وما يتصل بها من

---

(١) انظر فى ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٥ / ٣٨٩ والشذرات ٥ / ١٨٧ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبى وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٣ .
٥ / ١٥٦ ومرآة الجنان ٤ / ٩٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٣١٨

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تامًّا ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : « إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام » . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم فى حَلِّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى فى الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه فى رسائله الديوانية ، وهو يُعْنَى فيها قبل كل شىء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوى فيها وَحلِّ أبيات الشعر . وعادة يسوق فى الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته فى رسائله ، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصافات ، وهى : (اللهُ الذى رفَع السَّموات بغير عَمَدٍ ترونها) (وفى السماءِ رِزْقُكم وماتوعدون) (وحفظاً من كل شيطان مارِدٍ لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كل جانب) إذ يقول فى إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب :

« وعَقَد العَجاجُ[1] شَفَقاً فانعقد ، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمد ، غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجياد ، وزُيِّنت بنجوم الصِّعاد[2] ، ففيها ما يُوعَدُ من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق ، ومنها تُقْذَفَ شياطين الحرب لا شياطين الاسترق » .

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوى وألفاظه فى رسائله ، فمن ذلك ما رُوى عن الرسول عليه السلام من أنه فى غزوة حُنَيْن أخذ قَبْضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار قائلاً : « شاهت الوجوه » . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً : « أخذنا بسنة رسول الله ﷺ فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كفًّا من التراب ، وقلنا : شاهت الوجوه » . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبى الذى يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحَدَث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزَّق ، إذ يقول :

وكانَ بها مثلَ الجنونِ فأصبحتْ ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمَائِمُ

وقد نثره ضياء الدين فى وصف معركة مماثلة قائلا : « وكأنما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلَّق عليها من رءوس القتلى تمائم » . ومن ذلك بيت البحترى :

(١) العجاج : الغبار . (٢) الصعاد : الرماح .

سُلبوا وأشرقتِ الدماءُ عليهمُ محمَّرةً فكأنهم لم يُسْلَبُوا

فقد نثره فى فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحقهم محقاً لم يُبْق منهم ولم يَذر . والفصل يجرى على هذا النمط :

«سُلبوا وعاضتهم الدماءُ عن اللِّباس ، فهم فى صورة عارٍ وزِيُّهم زِىُّ كاس ، وما أسرع ما خيط لهم لباسُها المحمّر ، غير أنه لم يُجَيَّبْ[1] عليهم ولم يُزَرّ ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقى على الدهر ، وهو شعار نسجه السِّنان الخارق ، لا الصَّنَعُ الحاذق ، ولم يَغِب عن لابسه إلا ريثما غابت البِيض[2] فى الطُّلَى والهام[3] ، وألَّف الطَّعْنُ بين ألف الخط واللام» .

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين فى السجع ، وهى مهارة كتب بها مجلدات ، كما أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه فى المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التى تحيل الكلام رصفاً لألفاظ وحَشْداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعانى الطريفة المبتكرة ، بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته فى أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة ، منها قوله فى وصف النيل وقت زيادته وفيضانه فى رسالة من رسائله : «وعَذُبَ رُضَابُه فضاهى جَنَا النَّحْل[4] ، واحمرَّ صَفيحه فعلمتُ أنه قتَل المَحْل[5]» . ويقول ابن خلكان : «وهذا بديع غريب نهاية فى الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه» . وضياء الدين يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه فى رأيه دماء الجدب ، وهى حقاً صورة رائعة . وجعلته عنايته بالمعانى والصور المبتكرة يؤلف كتابه «المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء» كما جعلته عنايته بحل الشعر والاقتباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : «الوشى المرقوم» .

وفى الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده بكاتب ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى أدباء العصر النابهين : أبى حيان التوحيدى ، وابن مسكويه ، والحريرى .

---

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحته العليا .
(٢) البيض : السيوف .
(٣) الطلى : الأعناق ، والهام : الرءوس .
(٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل : عسله .
(٥) المحل : الجدب .

٣

أبو حيان [١] التَّوحِيدىّ

هو أبو حيان على بن محمد بن العباس التَّوحِيدىّ ، وقد اختُلف فى مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقيل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوبى العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح فى رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيدِ ، وعليه حَمل شُرَاح المتنبى قوله :

يترشَّفن من فمى رشفاتٍ هنَّ فيه أحْلَى من التوحيدِ

وكأنه هو وأباه نُسبا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجَر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا ينْسُبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذاك غير معتزلى ، وسنرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفى هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه فى عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده فى العقد الثانى من القرن الرابع بين سنتى ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه فى السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه فى شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس فى المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسى ، ومن قائل إنه عربى ، ويرجح عروبته اعترافه – كما جاء فى ترجمه ياقوت له – بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرَّر ما يشير

(١) انظر فى أبى حيان وترجمته معجم الأدباء ١٥/٥ وابن خلكان ١١٢/٥ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازى ٥٣ والمنتظم ١٨٥/٨ والسبكى ٢٨٦/٥ وتهذيب الأسماء واللغات ٢٢٣/٢ وميزان الاعتدال للذهبى ٣٥٥/٢ ، ٥١٨/٤ ولسان الميزان لابن حجر ٣٦٩/٦ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبت عنه فى العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيى الدين وإحسان عباس وزكريا إبراهيم ومحمد كرد على فى الجزء الثامن من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وأحمد أمين فى تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى وإبراهيم الكيلانى فى مقدمتيه لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين فى تقديمه لكتاب المقابسات وبروكلمان ٣٣٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى ذلك فى المقابسة الثانية من كتابه «المقابسات» وفى المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل» . وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة – دفاع العربى الأصيل – ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجَيْهانى ، ويرفعهم مكاناً عَلِيًّا ، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا فى الليلة السادسة من ليالى كتاب الإمتاع والمؤانسة .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن طفولة أبى حيان ومَرْباه ومنشئه ، وطبيعى أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتّاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب ، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره ، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء فى المساجد ، وكانت مفتوحة ومهيَّأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة . ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته فى كتاباته ، منهم فى النحو واللغة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ وفى البلاغة والبيان على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ وفى الفقه أبو حامد المرو رُّوذى المتوفى سنة ٣٦٢ وفى الحديث أبو بكر الشافعى صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤ ، وفى التصوف جعفر الخُلْدى تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفى الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابى المتوفى سنة ٣٦٣ وأبو سليمان المنطقى السجتانى الذى مرَّ ذكره ، وقد تعرَّف به فى مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينهما صداقة وثيقة ، حتى إذا استقل أبو سليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رُوَّاده ، بل من ملازميه ومسجِّلى ما يدور بحضرته . وكان من أكبر الأسباب فى اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نَسْخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب فى كل فن وفى كل علم ، وانطبع كثير مما كتبه فى ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً . واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان ، فكان ما يكتبه منه يُعَدّ نسخاً نفيسة فى عصره ويُدِرُّ عليه مكافأة جزيلة ، كما جاء فى مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، بل لا شك فى أن كل ما كان يكتبه كان يُجْزَى عليه الجزاء الحسن .

وتظل حياة أبى حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورَّاقا ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب إلى الحج فى سنة ٣٥٣ ويتعرف فى مكة على جماعة من الصوفية ، منهم ابن الجلاَّء والحرَّانى ، وفى كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما . وعاد إلى بغداد فى سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة . ويبدو أنه أنس فى نفسه شيئا من القدرة الأدبية ، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد فى الرَّىّ لعله يجد لنفسه عملا عنده ، أو لعله يوصى به أولى الأمر فى خراسان . ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذ عاد إليها خالى الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرَّف فى هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعى أن يعود أبو حيان إلى عمله فى الوراقة ونسخ الكتب .

ويحدث فى سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تثور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيَّارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدىّ ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه فى الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيَّارين لا فى هذا الكتاب وحده ، بل أيضا فى كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول فى الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضَعَةٌ والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أُسرَته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجيا لهذه المهنة أشد الهجاء ثالبا لها أشد الثلب حتى ليسميها « حرفة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه فى هذا العصر يرْثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها فى عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتفى بالقليل مما ينسخ فى حدود حاجته على نحو ما يَرْوِى ياقوت فى ترجمته للسيرافى أستاذ أبى حيان فى النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه فى القضاء بين الناس أو فى محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئونته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتفى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه فى علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى فى ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوِّره المعاصرون من شكوى أبى حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسيًّا أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا فى الحياة وهم دونه فى الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملأ قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلازمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضا فإن ذلك لم يَعُدْ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضنى . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء . ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تتعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرَّىِّ وأرَّجان وافدا على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بخفى حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطاياه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبو سليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىِّ سنة ٣٦٦ راجيا أن يعوضه ما نهبه منه العيَّارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكُدية والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائما إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شيء منهما على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورَّ عنه . وتتطور الحوادث سريعا ، ويفتك مؤيد الدولة البويهى بأبى الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخا له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يُحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتدخَّل فيما يكون من حديث ببجاحة وزهو وتعالم مما ملأ نفس الصاحب عليه حَنَقاً وموجدة ، فبرم به الصاحب برما شديدا ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلُّ عليه لسانه ، وأن شيئا من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينهما فسادا من الصعب إصلاحه أو رَتْقه . وأخذ الصاحب يجفوه ويصدُّه عن مجالسه صداقبيحا . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافأته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهَّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبى الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيها كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليهما تحاملا مسرفا وتجنى عليهما تجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبهما ما اشتهرا به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبى الفضل بن العميد ، لأن جرح أبى حيان منه كان أبعد غَوْراً وأشدَّ إيلاما .

ويعود أبو حيان جريحا كسيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقة ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرَّع من حرمان مرير ، ومدَّ إليه يدَ العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلابد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائبا فى الرَّىّ ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرىَّ زمن أبى الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجىء أبى حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرِّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس بالبؤس واليأس المرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مَسارِبَ ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسَّ ، أو إلى الصابرين معك وتسلَّ ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك وتبكى على باك ، ففى كل حلق شجىٌ وفى كل عين قَذًى » . فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقه ما يكاد يغصُّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيانَ ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شُحًّا شديدا ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرَّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أرعاه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بيمارستان بغداد ، فعيَّنوه راعيا لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قرَّبه من ابن سَعْدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلَّفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعة فى سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر فى صنع رسالة عن الصداقة والصديق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمائة ، وهى أقوال وأشعار مجموعة على طريقته فى كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التى كوَّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويبتسم الزمن فترة لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لصمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أدبيا للحوار ليلا فى كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعيات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون فى هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين فى ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سَعْدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكآبة التى كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل فى كتاب أطرف المسائل التى تناولها حواره مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرا فيه على مادار فى سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالا ويأخذ أبو حيان فى الإجابة ، وقد يطلب إليه فى موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت فى سوق الوراقين أو دارت فى عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة فى الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس فى الكتاب ما يدل على أنه ألف بعد فتك صمصام الدولة البويهى بابن سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتدأ تأليفه فى حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولمجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى فى زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواره مع ابن سعدان فى الإمتاع والمؤانسة سجَّل فى كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار فى ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرِّح

فى المقابسة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر فى المقابسة الحادية والستين أنه قرأ على أبى سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث فى للقابسة الثانية والخمسين عن شخص توفى سنة ٣٨٦ وهناك مقابسة هى المقابسة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات فى تاريخ إملاء أبى سليمان لها على تلاميذه ، هل هى سنة إحدى وسبعين أو هى سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابسات وإلقائها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

وليست المقابسات جميعها من إملاء أبى سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان فى المقابسات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرَّر كلام أبى سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيْغ التأليف ، ويقول إنه استنفد الطاقة فى تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع فى الظن ، فيقول إن صياغة المقابسات وغيرها من النصوص التى يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هى من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جُلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكِّد ذلك بالقياس إلى أبى سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان فى الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن فى لسانه لُكْنة ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن فى عبارته تقطعا فى السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبى حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعلى لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابسات فى جملتها من كلام أبى سليمان ورفاقه نَصًّا ولَفْظاً . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابسة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمّار المتفلسف يجدها بنَصِّها ولفظها فى كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى ص ٣٣٥ ومثلها المقابسة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص فى صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابسة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجانى موجودة بلفظها ونصها فى صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبى سليمان فى كتابه صوان الحكمة وفى رسائله التى ألحقها به الدكتور بدوى يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفى عن أبى حيان جهده فى تنسيق المقابسات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعنى ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة فى المقابسات له ، والمعنى لأبى سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان فى بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحياناً . وقد طُبع كتاب المقابسات طبعات مختلفة فى بومباى والقاهرة وبغداد .

ونمضى مع أبى حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقة وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع فى القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب فى صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتتخلَّلُ ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوِّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشعره سنوات طوالا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه فى رسالته رقم « به » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بى منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد – وحقِّك – شددتَ الوَثاق ، وضيَّقت الخِناق ، وأقمت الحرب بينى وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، فى عهود وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نظن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤلف فى عام واحد ولا فى أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر فى السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجرى فى كلامه من هجر للدنيا وترهاتها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه فى طلب العفو والرجاء فى نعيمه ، وعيناه تعتصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبى حيان فى الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأناجيل وأولى من ذلك فى رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوثة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ، فمصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف فى فؤاده وصفاء جوهره الروحى . أما ما ردده ابن الجوزى والذهبى وغيرهما – ونقله عنهم السبكى فى طبقاته – من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكى ، وقال إن الذهبى حَمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة فى الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة . . جَدَّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم » ويفضِّل الأميين عليهم ويقول إنهم أتقى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويَسْلقُ الباقلانى الأشعرى العظيم

بلسان حاد . وهى طبيعةُ أبى حيان حين يهجو يُسِفُّ فى هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لنراه يصف الباقلانى بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين – بجانب أنه سنى – ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يجاهرهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أبى بكر وعمر زاعما أنهما وجَّها بها إلى على بن أبى طالب لبيان أنه دون أبى بكر منزلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلانى مع رسالتين أخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أبى حيان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأبى حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها « الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى » وأكبر الظن أنه يقصد بها – إن صحت نسبتها إليه – النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلا . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعمائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظنا أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسَخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها – إن كان قد أحرقها – شيئاً . وكأن هذا الإحراق كان مَعْلَماً قوياً على طريق حياته التى أخذ يمضيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجها بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروى فيها الناسُ عنه – كما ذكر السبكى – الحديثَ النبوى حتى وفاته .

وأبو حيان يُعَدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه – كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة – كثيرا من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعيات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظيا ، قَعْقعة ولاطِحْن ، بل هو أدب يحمل زادا كبيرا من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يُعْنَى بالألفاظ ، وهو شىء طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً ، وصدر عنها فى كتاباته صدوراً طبيعيًّا ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التى سادت الكتابات الأدبية فى أيامه ، إذ رأى فيها طلبا للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعانى ، بل قل تحيُّفا وانتقاصا ، فازورَّ عنها . وكانت المكتبة العربية قد ألقت بكنوزها بين يديه فى أثناء وِراقته ونَسْخه ، فراعه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتى والمعانى ، مستخدما أسلوب الازدواج الذى عُرف به ، وقد يتخلله فى الحين البعيد بعد الحين السجعُ ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب فى نفس أبى حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتى لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً فى أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتى ، ولْنقرأ هذه الفقرة فى فاتحة الرسالة التى توسل بها إلى أبى الفتح بن العميد .

« اللهم هيِّئْ لى من أمرى رشدا ، ووفِّقنى لمرضاتك أبدا . ولا تجعل الحِرْمان علىَّ رَصَداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلا بين كل عبارة وتاليتها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية فى تفريع الجمل بعضها من بعض . إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهى بالتوفيق . ونحس كثيرا إزاء ازدواجات أبى حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارئه اكتساحا ، دون أن يستطيع تخلصا أو إفلاتا . وكان عجبا له أن هذه الرسالة التى كتبها لأبى الفتح لقيت منه إعراضا ، وعرف أن السبب فى ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصريه ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة فى تقريظ الجاحظ يشيد فيها به وبفنه . ولايروعنا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحيانا إنما يروعنا فيه أيضا ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل فى جميع أوعيته الصوتية ، ونقصد الشراب السائغ الذى تحمله هذه الأوعية من المعانى الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات . فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكفى لبيان ذلك كتابه « مثالب الوزيرين » الذى

يقع فى نحو ثلثمائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانبا فيهما إلا مزقه تمزيقا ، وخاصة الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلبه وذمه بمثل قوله فى الكتاب :

« رمانى عن قوسه مُعْتَرِقا[1] فأفرغت ما كان عندى على رأسه مغيظا ، وحرمنى فازدريته ، وحقرنى فأخزيته ، وخصّنى بالخيبة التى نالت منى ، فخصصته بالغِيبة التى أحرقته ، والبادى أظلم ، والمتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانى شَهْدَةٌ يُشْتَفَى بِهِ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ

ولئن كان منعنى ماله الذى لم يبق له ، فما حَظَر علىّ عِرْضه الذى بقى بعده ، ولئن كنت انصرفتُ عنه بخُفَّىْ حُنَيْن ، لقد لصق به من لسانى وقلمى كل عار وشَنَار[2] وشَيْن ، ولئن لم يرنى أهلاً لنائله[3] وبِرّه ، إنى لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونثٍّ[4] ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إلىّ من ماله ضائع ، إنى لأوقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولى شائع . والمنصف فى الحكم يَعْذر المظلوم ،ويلوم الظالم » .

وواضح فى الفقرة أن أبا حيان يعتمد فى أسلوبه المزدوج على المقابلات ، فهو يقابل بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب فى كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع فى ذلك هنا وفى كثير من جوانب كتاباته ، يرفده فى ذلك ذهن خصب حافل بالمعانى المتقابلة فلا يكاد المعنى يدوّنه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشيء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه فى حديثنا عنه بكتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ الذى نجده عند أبى حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شيء من التعبير ، فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعانى بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رِفْدُه ولا مدده .

ونراه فى الإشارات يصور إحساسه فى أواخر حياته بالغربة التى طالما أمضته والتى وصفها فى مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه ليطيل فى الإشارات فى «...فه للغريب إذ يمتد فى ست صفحات لَبَّته فيها الألفاظ ولَبَّته المعانى بمثل قوله :

« قد قيل الغريب مَنْ جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

---

(١) معترقاً : أى حتى نفذ السهم من اللحم إلى العظم .

(٢) شنار : شنعة .

(٣) نائل : عطاء .

(٤) نث : نشر .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشَّريب[١] ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذّاله . . والغريب مَنْ إن حضَر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجِر ، وإذا قعد لم يُزَرْ . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسْأَلْ عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرْفع له الحجاب . . الغريب ليله أسَف ، ونهاره لَهف ، وغَداؤه حَزَن ، وعَشاؤه شَجَن ، وسيره عَلَن ، وخوفه وطن » .

وهى كلمات من سيل الغربة الذى تدفق فى صفحات الإشارات ، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعانى التى صيغت فى أسلوب الازدواج . وغَلَبَ السجع فى هذه الكلمات ، وهو يَكثُر فى الإشارات كثرة لا نراها فى كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التى لا تغيب أبدا عن كتابات أبى حيان لا فى شبابه ولا فى هرمه . وارجع إلى فكر أبى حيان الخصب فى هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بَثَّ فى كلامه معانى إنسانية عميقة ، وهى تجرى فى كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله :

« دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تهالك فى ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرِّضا لجَدْواه » . فحتى الصوفى غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أَدْعيته ومناجياته لربه فى الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رَوِّح صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمُرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدك ، وأَذِقْنا حلاوة بِرِّك ، وجُدْ علينا بك ، وخَلِّ بيننا وبينك ، وجَلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألسنتنا قواطف وصفك ونعتك ، فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عَطِشْنا فَرَوِّنا ، وإذا ضعفنا فقوِّنا ، وإذا اعْوَجَجْنا فسوِّنا ، وإذا اعتللنا فداوِنا ، وإذا كَدِرنا فصَفِّنا ، وإذا دَنِسْنا فنَقِّنا . . وإذا بنَّا منك فصِلْنا بك » .

• وخصائصه التى صورناها واضحة فى هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

(١) الشريب : المشارك فى الشرب .

ومعادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريعات فى المعانى والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن[1] مسكويه

هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطربت المصادر القديمة فى مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت فى ترجمته وكذلك القفطى فى تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان فى ترجمة ظهير الدين الروذراورى إنه أبو على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذى يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسيا وأسلم وكان عارفا بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومَرْباه فضلا عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالى سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث فى مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل فى دواوينه وهو فى نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرَّىِّ ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتيحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها فى شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولابد أنه اختلف فى بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظنا أنه

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تتمة اليتيمة ١/٩٦ ومعجم الأدباء ٥/٥ وابن خلكان ٥/١٣٧ وروضات الجنات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطى ٣٣١ وابن أبى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوارزمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/٣٥ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د . بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكوية وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د . عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدىّ ومجالسه التى كان يحاضر فيها تلاميذه فى تلك العلوم ، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين فى اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى . ونراه فى كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال فى اللذات إنما كان فى عهد المهلبى الذى مرَّ بنا انهماكه فى الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين فى كل أسبوع . ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولّى ابن مسكويه وجهه نحو الرَّىِّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه عُرف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذه ابن العميد مشرفاً عل مكتبته ينظِّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمنه فى مختلف العلوم والفنون . وتعرَّف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ فى قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد فى الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته » وطبيعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحولت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقْبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتخذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوَّل معه إليها . وأخذ يُعْنى — منذ هذا التاريخ على الأقل — بمجالس المتفلسفة ومصاحبتهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الخمَّار المتفلسف الذى مرَّ ذكره ، كما كان يلم أحياناً بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته فى الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

فى السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ – ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثانى بهاء الدولة (٣٧٩ – ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذْكَر أنهما خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك فى أوائل القرن الخامس الهجرى . وحدث بينه وبين ابن سينا شىء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره فى مسألة فاستعادها كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفى رأينا أن ابن سينا تجنَّى عليه ، كما تجنَّى عليه أيضاً أبو حيان فى كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه « عَيِىٌّ بين أبيناء » . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عِتِيًّا ، فقد توفى عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعيًّا إماميًّا يعتقد بعصمة الإمام على نحو ما ذكر ذلك فى خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعَدّ فى الصفوة من فضلاء عصره وأجلَّائه ، يقول الثعالبى فى وصفه : «إنه فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه فى صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وَكْدَه وهمَّه . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من تراسله مع الخوارزمى وبديع الزمان . وفى رسائل الخوارزمى رسالة يعزيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفى ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتنصَّل البديع فى أولاهما من شىء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردَّ عليه ابن مسكوية فاسحاً فى تنصله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبى صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف وبرسالة خلقية كبرى جرَّد نفسه لها فى معظم كتاباته وتأليفاته ، ويَذْكر له القفطى من كتبه المتصلة بالطب كتاباً فى الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً فى الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه « تجارب الأمم » وهو فى التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرَّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذه الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاقى ، وهو المقصد الأسمى الذى ابتغاه فى تآليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجرى وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم فى

دولتهم عرضا عادلا منصفا دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبى الفضل ابن العميد حين كَفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان فى حماسة بالغة حين جاءهم النبأ المشئوم باستيلاء الروم على ثغرى المصِّيصة وَطَرَسوس فى شمالى الشام ، إذ وفدوا على أبى الفضل بن العميد فى الرىّ سنة ٣٥٤ يطلبون المال للمسيرة والسلاح ، فردَّهم ردًّا منكرا ، وكأنه خشى منهم مكيدة فسلَّط عليهم جنوده ، ففرَّقوا جموعهم ، ويأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم – وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً – أعطاهم ابن العميد المال الذى طلبوه لانضمت إليهم فى الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَّلوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه » . فصداقته لأبى الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوَصْمة فى تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخى الذى كان يقع فى ست مجلدات إما فى حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاق من العبرة والعظة الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخى الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال فى الرىّ بخدمة أبى الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصوِّر فى ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنسانى وما ينتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه فى الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنسانى واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عُدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها فى ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة فى عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى فى إثبات الصانع وأنه واحد أزلى ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعْرَفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شىء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التى تحصل بها الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنَّى فى حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع ، إذ لم يخلق خَلْقَ مَنْ يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تم لها حياتها خِلْقة وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تم له حياته إلا بالتعاون والتعاضد فى كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرِّمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس فى ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشىء ، وهم بذلك – فى رأيه – جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة فى النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات فى العالم التى تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهى النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع فى هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذى يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يُرَى فى أشجار النخيل ففيها المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسِّفاد فى الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان فى القرود وما يماثلها فى الخلقة الإنسانية . وهى تقترب فى التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنسانى وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو فى هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخَصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندى والفارابى وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هى تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ – كما لاحظ الفلاسفة قبله – أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذاتى لا العَرَضى عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة . ويمضى فيما وُضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طَهُرَتْ نفسه من الشهوات الجسمانية والنزوات البهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ فى بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهى أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أخيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراوهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشرارا أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرِّير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشريعة وأنها هى التى تقوِّم الناشئة وتعوِّدهم الأفعال الخيرة ، ويقول إن كمال الإنسان فى اللذات المعنوية لا فى اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُرَبَّى الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب فى أنفسها . ويُدْلى بفصل طويل فى تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب فى المطاعم وغيرها ، ويطيل فى الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض فى بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفى رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه فى الجماعة ، وبها تفسَّر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلِّف مذهباً خلقيا يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ماهو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس فى أداء فريضة الحج . وهكذاتقوم شريعتنا على الأنس والمحبة ، وفى الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان فى حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدْرَسُ للناشئة فى كثير من البلدان العربية فى هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم فى المدارس الثانوية ، حتى نمدهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن فى العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها فى أسجاع قلما تحوى غذاء فكريًّا ، بل تمتد فى أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التى أجاب عنها فى الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخفى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح فى هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح فى الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره فى بعض صحفه .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التى تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجَّهها إلى الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهى موزَّعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية . وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين فى تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبى حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردَّ على هذا السؤال قائلاً :

« ليس يجوز أن تَرِدَ الشريعة من قِبَل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاكَّ فى [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبداً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأبِّى الطباع من شىء هو مخالفة للعقل . والعقل إذا أبى شيئاً فهو أبدىّ الإباء له لا يجوز أن يتغير فى وقت . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التى يأباها العقل وينكرها بل هو من الأشياء التى تأباها بعض الطباع والعادة » .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

فى الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق فى الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألها أبو حيان ، وهى إذاعة الأسرار مهما ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبيَّن فى المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة . فهى بالقوة الآخذة تستثيب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبِّين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هى انفعال وشوق إلى الكمال الذى يخصُّ النفس . وهى بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعى إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاقت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكتم سِرٌّ بتَّةً . وهذا تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته » .

ويمضى ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السر ينبغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لنزواتها ، وأن إخراجه من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج مجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها فى أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت فى ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريرى [1]

هو أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، كان أبوه من أثرياء « المشّان » ، وهى قرية قريبة

(١) انظر فى الحريرى وترجمته الأنساب للسمعانى ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٢/٥٩٩ ومعجم الأدباء ١٦/٢٦١ وابن خلكان ٤/٦٣ وإنباه الرواة ٣/٢٣ وتذكرة الحفاظ والسبكى ٧/٢٦٦ وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب ١/٢٩٥ ومرآة الجنان ٣/٢١٣ والعبر فى خبر من عبر ٤/٣٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٥ وروضات الجنات ٥٢٧ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات=

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومَرْباه . ثم سكن البصرة فى حى بنى حَرام الفَزارِيِّين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميهم ، ويعدِّدهم ، السبكى فى طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر فى ديوان الخلافة بالبصرة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات فى عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلَّدها ولا متى عُهد إليه بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده فى أبنائه حتى آخر عهد المتقى بالله (٥٣٠ – ٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لهما ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف « درَّة الغوَّاص فى أوهام الخواص » وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ فى ذلك حتى عَدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجى شرح عليه طُبع فى إستانبول ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقى تكملة ألحقها بالكتاب وهى مطبوعة . ويؤلف الحريرى أيضاً مُلْحة الإعراب ، وهى منظومة فى النحو شرحها شرحا جيداً ، وهى مطبوعة فى القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله فى البصرة وضياعه فى المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهانى فى مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقى الذى صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكى إنه حدَّث فى بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريرى لا يبارَى فى الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتُعَدُّ مقاماته آية براعته التى ليس لها لاحقة مماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه فى تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشرى قائلاً :

أقسم بـالله وآيـاتـهِ ومَشْعَرِ الحج ومِيقاتِهِ
إن الحريرىّ حرىٌّ بأن نكتب بالتِّبْر مقاماتِه

ويقول السمعانى عنه : « لم يكن له فى فنه نظير فى عصره ، ولو قلت إن مفتتح الإحسان فى شعره كما أن مختتم الإبداع فى نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحريرية ، وهو مطبوع فى مصر مراراً ، وهو شرح نفيس وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال مخطوطة . وراجع فيه وفى مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٩٢ .

مخيَّم السحر عند أقلامه ، لما زَلَقْتُ من شاهق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف» . ويقول العماد الأصبهانى : «طلعت ذُكاء [١] ذكائه فى المغرب والمشرق ، وامتلأت ببضائع فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائبُ المشْيم والمعرق . . حريريّ الوَشْى ، عراقيّ الوَشْم [٢] ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتميمة النَّحْر ، ودُرَّة الصَّدَف ، ودُرِّى السُّدَف [٣] . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبَرَّ [٤] على البلغاء ببراعته» . ويقول الرواة إنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسماع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعمائة طالب أن يرووها عنه ، وفى ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته فى عصره من منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحة لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ، واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صَوْغه لها ما حكاه عن نفسه من أنه كان جالساً فى مسجد بنى حَرام فى البصرة فدخل شيخ رَثّ الهيئة ، كان شحاذاً أديباً فسلَّم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحتُه وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سَروج ، وهى بلدة قرب حرَّان شمالى العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ، ونسبها إلى أبى زيد السَّروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها — فيما يقال — أنوشروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢–٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى بغداد ، فأعجب بها الأدباء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل أربعين يوماً لا يُفْتَحُ عليه بشىء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى بغداد فعرف الأدباء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ، فمات عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً لمغربى من بعض القوافل كانت به هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه ! .

وكل ما قدمنا قِصَصٌ غير صحيحة ، وفى مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

---

(١) ذكاء : شمس .
(٢) الوشم : النقش .
(٣) السدف : الظلم .
(٤) أبر : غلب .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريرى ، وكذَّبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريرى نفسه كَتَب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له فى أول خلافته سنة ٥١٢ وكأنه هو الذى أشار إليه فى مقدمة المقدمات بقوله : «فأشار مَنْ إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع» يريد البديع الهمذانى ومقاماته . وتوقف الشريشى فى شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألفت فى عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألفت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ – ٥١٢ هـ) وبدأ الحريرى تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبى زيد ، أديب المقامات الشحاد ، فقيل إنه نحوى يسمى المطهّر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريرى الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته «ملحة الإعراب» وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السَّروجى . ومن المؤكد أن أبا زيد فى المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريرى ليحوك من حولها حِيَلَ أديب متسول . وقد سمى راويته الحارث بن هَمَّام يعنى به نفسه أخذا من الحديث النبوى : «كلكم حارث وكلكم همام» أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعَدَّ مجزّأ ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريرى فى عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبى زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبى زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، ويغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده فى بلدته سَروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً فى عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثا منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريرى يذكر فى مقدمتها مقصده منها إذ يقول : «أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جِدِّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشَّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورصَّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية» . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القَصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عَمَّ فى الكتابة ، فلم يقف الكتَّاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عُقَداً غريبة يصعِّبون بها المرور إلى السجع ، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يخلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعْبة غاية فى العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لُمْ أخا مَلَّ» فإن العبارة تُقْرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفى المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقْرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلْغَى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقْرأ «الحاجة تلغى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرَّقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «نائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض» . وفى المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة فى المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريرى من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعْبَة الألغاز شاعت فى العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتى عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقه مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعْنَى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنايات وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تَصُكُّ الأسماع ولا تستثقلها الأفواه . وهو يُكثر فى مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسِّنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعى أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابْنَ آدم ما أغراك بما يغرُّك ، وأضْراك (أجرأك) بما يضرُّك ، وألهجك بما يُطْغيك ، وأبهجك بمن يُطْريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن سَتُتْرَكُ سُدًى ، وأن لا تحاسَب غداً . . كلا والله لن يدفع المنون ، مالٌ ولا بَنون ، ولا ينفع أهلَ القبور ، سوى العمل المبرور ، فطُوبى لمن سمع ووَعَى ، وحقق ما ادَّعى (ونهى النَّفْسَ عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعَوَى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعَى وأن سَعْيَه سوف يُرَى)» .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة فى المقامات ، ودائماً تُعَرِض فى مثل هذه الأسجاع الخفيفة التى تطير عن الأفواه فى عذوبة ورشاقة . وبينما يلقانا أبو زيد فى بعض النوادى واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجنا مع ندامى يَحْتسى العُقار ويخلع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل فى المقامات ، وقد أراد به الحريرى إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده فى مقامات عدَّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكّام على نحو ما نرى فى المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكَّر فى زى شيخ هرم خبيث تجرُّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضى وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

«أيَّد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إنى امرأة من أكرم جُرْثومة ، وأطهر أُرومة ، ميسَمى الصَّوْن . وخلقى نعم العَوْن ، وبينى وبين جاراتى بَوْن ، وكان أبى إذا خطبنى بُناة المجد ، وأرباب الجدِّ ، سكَّتهم وبكَّتهم ، وعاف وُصْلَتهم وصِلَتَهم ، واحتجَّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلْفة ، أن لا يصاهر غير ذى حِرْفة ، فقيَّض القدر لنَصَبى ووَصَبى ، أن حضر هذا الخُدَعة نادىَ أبى ، فأقسم بين رَهْطه ، أنه وَفْق شرطه ، وادَّعى أنه طالما نظم دُرَّة إلى درَّة ، فباعها ببَدْرة (مال كثير) فاغترَّ أبى بزخرفة مِحاله (كيده) وزوَّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كِناسى (بيتى) ورحَّلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسْره (بيته) وحصَّلنى تحت أسره ، وجدته قُعَدة جُثَمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضُجَعة (عاجزاً) نُومة . . . ومزَّق مالى بأسره ، وأنفق مالى فى عسره . . ولى منه سُلالة ، كأنه خَلالة ، وكلانا ما ينال منه شُبْعَة ، ولاترقأ له من الطَّوى (الجوع) دَمْعة ، وقد قُدْته إليك ، وأحضرته لديك ، لتَعْجُم (لتختبر) عُودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله» .

وتمضى المقامة على هذا النمط الفكه ، ويردّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشَقُّ غُباره فى العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جِيل الكرام ، مما اضطره إلى بَيْع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع — كارهاً والدموع تترقرق فى عينيه — جَهَازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضى على الشيخ وزوجته وفرضه لهما فى الصدقات حِصَّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العذوبة ، ويخيل إلى قارئ الحريرى فى مقاماته كأنما جمع العربية كلها فى كِنانة أو حقيبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها وينتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة . وكأنما كان يعزفها على قيثارة عَزْفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يجارَى فى غَرْس ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطْوَى فى هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية . ومرَّ بنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن بَرِّىّ اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ ردًّا عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العماد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال العماد الأصبهانى فى قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيهما واضح لالتزام كلمات بعينها ، وكأنه فيهما يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

« وصل الجواب . . وخلتُه كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقيته كما تتلقى يَدُ الإنسان ، صحفَ الإحسان ، وصِكاكَ العطايا الحسان . لا : بل كما تتلقى أناملُ الرَّاح (الكف) كاسات الرَّاح (الخمر) من أيدى الصِّباح (الفاتنات) فى نسمات الصَّباح ، ومازلت أتمتع بحُلِيٍّ ودُرَر ، ووَشْيٍ وحِبَر (حرير) ومُلَح وزَهَر . فلله ما جمع فيه من أنوار ونُوَار (زهر) ونضير (جميل) ونُضَار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومَعين (ماء عذب) ومَعان » .

وواضح ما فى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقيًّا خلاباً يصبّ فى حنايا سجعه ، متاعاً يلذ الآذان والقلوب والأفئدة .